الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد المائة وثلاثة عشر . السنة العاشرة . يونيه ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 113 - June 2008

مصر.. «الجديدة» و«القديمة»



السنة / الشيعة : إلى أين نحن ذاهبون ؟
رضوان السيد

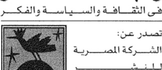
إبحار في عالم جديد
آلان جرينسبان

مصر الجديدة : مول . جلباب . خادمة آسيوية !
ماجدة بركة

النمو وحده لا يحقق العدالة !
محمود محيى الدين

السنة العاشرة
العدد ١١٣
يونية ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

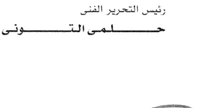

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر




تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
ابراهيم المعلم
رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى




محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- آلان جرينسبان.. رئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي السابق.
- بشير موسى نافع .. محاضر فى التاريخ الإسلامى وتاريخ الشرق الأوسط ـ لندن
- جميل حسن.. كاتب سورى
- جهاد فاضل .. كاتب وناقد لبنانى.
- رشدى سعيد.. أستاذ جيولوجيا مصرى مقيم فى الولايات المتحدة.
- رضوان السيد.. أستاذ الدراسات الإسلامية بالجامعة اللبنانية.
- صلاح الدين حافظ.. صحفى.
- عماد الغزالى.. صحفى.
- فضل مصطفى النقيب.. أستاذ فى جامعة واترلو ـ كندا.
- كرس شلنج.. أستاذ فى كلية السياسة الاجتماعية ـ جامعة كنت
- ماجدة بركة.. دبلوماسية وباحثة فى العلوم الاجتماعية
- محمود محيى الدين.. سياسى واقتصادى مصرى
- مريد البرغوثى .. شاعر فلسطينى يعيش فى القاهرة.

رسوم العدد للفنان
محمد حجى





المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

الشيعة والسنة

أحداث لبنان الأخيرة تدعونا إلى دراسة هادئة وعميقة لتاريخ العلاقة بين السنة

رضوان السيد

يسود التوتر العلاقات بين السنة والشيعة فى أرجاء مختلفة من العالم الإسلامى، ويبلغ فى قوته ومدياته حدود القول إنه الموجة التاريخية الثالثة فى هذا السياق. والذى أقصده أن التجربة التاريخية للعلاقة بين الفريقين مرت من قبل بحقبتى توتر كبيرتين، وهما الحقبة الواقعة بين القرنين الرابع والسابع للهجرة، والحقبة الواقعة بين القرنين الثامن والحادى عشر للهجرة.ونعيش خلال الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجرى، حقبة التوتر الثالثة والحاضرة.

فى الحقبة الأولى، كان الصراع تكوينياً ومتشابكاً إذا صح التعبير. فقد كان القرن الرابع قرناً شيعياً بامتياز ساد فيه الفاطميون بالمغرب ثم بمصر والشام، وسيطر فيه البويهيون الشيعة على شرق العالم الإسلامى وصولاً إلى بغداد مقر الخلافة العباسية. ومن الناحية الفكرية والفرقية: فقد كان الفرع الاثنا عشرى من التشيع فى طور التكوين إلى جانب وفى تجاذب مع الفريقين الشيعيين الآخرين البارزين آنذاك: الإسماعيلى، والزيدى. أما السنة فقد كانوا أيضاً فى حقبة تكون من الناحية الفكرية والدينية. وأقصد بالتكون التمايز العقدى بين الأشعرى والأشعرية من جهة، والحنبلية والسلفية وأهل الحديث من جهة ثانية. ولذلك فقد كان للصراع التاريخى ذاك بعدان: بعد داخلى فى قلب العالمين الشيعى والسنى بدار الإسلام. وبعد اشتباكى بين السنة والشيعة. تمثل البعد الداخلى للصراع بين الشيعة فى بروز تيار جديد تقوم عقيدته الخلاصية على انتظار ظهور الإمام المهدى بعد دخوله فى الغيبة الكبرى، والتفكير فى الآليات الضرورية والمؤقتة للقيام على مسألتين: إدارة شئون الجماعة، وانتظار عودة الإمام والتمهيد له. وقد كان طبيعياً والمذهبان الإسماعيلى والزيدى قائمان فى دولتين بأئمتهما ومتكلميهما وفقهائهما: أن يمثلا التحدى الأبرز للاثنى عشرية. أما الخصومة مع السنة فقد بدأت وقتها فى بلاط عضد الدولة البويهى، وقد كانت فكريةً وكلامية. كما ظهرت فى مناطق ومدن ظهور التشيع الاثنى عشرى حيث كانت هناك كثرة سنية أو شيعية مثل بغداد وحلب ونيسابور وبيهق. وما تطورت خصومةً فكريةً مع الاثنى عشرية فى القرن الخامس الهجرى حيث صعد الإحياء السنى، وتبلورت الأشعرية؛ بل ظل الصراع الفكرى والسياسى والعسكرى السنى مع الإسماعيلية التى سقطت دولتها فى خضم الصراع بين الدول السنية والصليبيين. وهكذا فطوال حوالى الثلاثة قرون بين الرابع والسابع للهجرة، تتحدث النصوص التاريخية، وتواريخ المدن عن صدامات فى الأحياء والنواحى بين السنة والشيعة(الاثنى عشرية): لكن الجدالات ضد فكرة «غيبة الإمام» وضد ربطها بالمهدى القائم فى آخر الزمان، ظلت تجىء فى الأساس من جانب الإسماعيلية والزيدية. وما تنبه لها الأشاعرة (والماتريدية) إلا بعد القرن السابع الهجرى.



ومع ذلك فقد كانت الحقبة الأولى للصراع هذه حاسمة لثلاث جهات: أنها المرة الأولى التى يقال فيها من جانب المؤرخين إن هناك صراعاً شيعياً/ سنياً، أو بين الخلافة والإمامة. وأنها المرة الأولى التى تعلن فيها الدولة العباسية عن نفسها باعتبارها دولة أهل السنة والجماعة (العقيدة القادرية)، وأخيراً لأن الإسماعيلية(والزيدية) شهدوا انحساراً كبيراً فى القرنين الخامس والسابع بحيث زالت الدول الإسماعيلية(بالمغرب ثم بمصر واليمن)، وظهر تيار مهدوى فى قلب الزيدية نفسها(= الشيعة الحسينية)، كما زالت دويلاتهم بالديلم وطبرستان، وتضاءلت باليمن. وبدا ذلك لأول وهلة باعتباره انتصاراً لأهل السنة (وليس للعباسيين الذين استمرت دولتهم فى التراجع بعد استفاقة قصيرة): لكن الظهور الاثنى عشرى أفاد من تراجع الزيدية بطبرستان وارتباكهم باليمن، كما أفاد أكثر من انحسار الإسماعيلية وانقسامهم. والواقع أن عقيدة «الغيبة» - وهى فكرة خلاصية قوية- وممارسة التقية أنقذتا التشيع كله، بعد أن بدا الفاطمى والزيدى باعتبارهما حاكمين عاديين لا يختلفان كثيراً ولا قليلاً عن الخليفة العباسى، ولا تتوافر فيهما- رغم تحدرهما من سلالة النبى(ص)- أية خصوصيات مهدوية. وزاد الطين بلة ظهور القرامطة ثم راديكاليى الإسماعيلية (=الحشاشين) الذين روعوا الأجزاء الشرقية من ديار الإسلام.

أما الحقبة التاريخية الثانية فى الصراع فقد بدأت فى القرن الثامن الهجرى. وكانت الخلافة العباسية قد سقطت على يد المغول، وقامت الدولة الإيلخانية/ المغولية شرق الفرات وعبر الهضبة الإيرانية، وصولاً لآسيا الصغرى من الناحية الثانية، كما قامت الدولة المملوكية فى غرب الفرات بالشام ومصر؛ وعملت كلاهما على ملء الفراغ الجيوسياسى (والأيديولوجى) الذى أحدثته الغزوات والحروب الصليبية والمغولية، والانحسارات والمتغيرات السالفة الذكر من الحقبة السابقة والتى انتهت فى القرن السابع الهجرى بسقوط الخلافة العباسية بغداد.

بادر المماليك على أثر سقوط خلافة بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م إلى استجلاب أحد أبناء الأسرة العباسية إلى القاهرة حيث أعلنوه أميراً للمؤمنين، وأكملوا زعامتهم للإسلام السنى بالاعتراف بالمذاهب السنية الأربعة مع تقديم للمذهب الحنفى؛ لأن المماليك (الأتراك) كانوا من الأحناف. أما الإيلخانيون الذين بدأ الإسلام يتسلل إلى صفوف أمرائهم (وعلى المذهب السنى) فقد وقعوا فى حيص بيص. إذ إنهم كانوا بين أحد خيارين: إما أن يزيلوا الدولة المملوكية ويحتضنوا العباسيين من أجل المشروعية، وإما أن يعترفوا بالخليفة العباسى بالقاهرة، فيصبحون فى المنزلة الثانية بعد المماليك فى مسألة حماية الإسلام السنى وخلافته. ولأنهم عجزوا عن إسقاط الدولة المملوكية بعد عدة حملات : فقد آثروا خياراً آخر تماماً وهو اعتناق المذهب الإمامى الاثنى عشرى، فأبدعوا بذلك تقليداً جديداً لاءم عدة سياقات: أظهروا إمكان إقامة دولة شيعية رغم استمرار غياب الإمام، وتوافق ذلك مع مصلحتهم إذ لن يخضعوا لمرجعية حاضرة، وتوافق ذلك مع مطامح الإداريين والمثقفين الإيرانيين شبه القومية (عاد اسم إيران زمين - أى بلاد إيران- إلى التداول فى سجلات الدولة) : وبخاصة أن المذهب الاثنى عشرى كان قد كسب وقتها نصف السكان بإيران والعراق. ثم إن الفقهاء الشيعة الذين كانت سلطتهم أو ولايتهم قد شملت إدارة الشأنين الدينى والاجتماعى للجماعات الشيعية فى غياب الإمام، رأوا إمكان الإسهام فى المهمة الأخرى دون الانغماس فيها بأنفسهم وهى إقامة دولة التمهيد (انتظاراً لعودة الإمام أو ظهوره). ومع أن سلاطين الإيلخانيين لم يثبتوا جميعاً على المذهب لأن عدداً منهم عادوا إلى التسنن (تحت وطأة إقبال أقربائهم بآسيا الوسطى وأفغانستان وشبه القارة الهندية على التأسلم والتسنن) ؛ فإنهم فتحوا الإمكانيات السالفة الذكر، فصار المسرح مهيئاً لأول مرة لصراع على مستويين: المستوى الجيوسياسى والجيواستراتيجى من جهة، والمستوى الدينى والاعتقادى من جهة ثانية. فى الحقبة الأولى التى استعرضناها ما كان الدين أو المذهب عنصراً أساسياً؛ إذ إن الفاطميين والزيدية إنما ظهروا على أرض عباسية. وكانت الدولة العباسية تصارع لاستعادة أراضيها من الدويلات التى تكاثرت، مستعينة بالأمم الإسلامية الأخرى التى أقبلت على الإسهام فى الصراع إلى جانب العرب والفرس والديلم. وكان أبرز تلك الأمم: الشعوب التركية التى اعتنقت بالإجمال المذهب السنى واتخذت من الخلافة العباسية (التى صارت سنية فعلاً بالمصلحة ثم بالانتماء) غطاء فى صراعها على السلطة فى دار الإسلام، مع الآخرين، وفيما بينها. وهكذا فقد جاء العامل الدينى فى الحقبة الأولى لاحقاً على العامل السلطوى والسياسى، وما كتب أبو حامد الغزالى كتابه: «المستظهرى فى الرد على الباطنية» (الإسماعيلية) إلا أواخر القرن الخامس الهجرى. أما فى الصراع الإيلخانى / المملوكى: فإن العاملين الجيوسياسى والدينى تساوقا وتوازيا، وإن ظل العامل الأول أظهر: لأن الصراع بدأ فى الواقع بين الإيلخانيين والمماليك قبل اكتشاف إمكانيات العامل الدينى، ولأن الفريقين السنى والشيعى، كانا لا يزالان على امتزاج شديد فى الشام وإيران والعراق، وأخيراً لأن الشيعة أنفسهم، ما كانوا قد اعتادوا على فكرة «دولة التمهيد» (السابقة على ظهور الإمام)، بعد أن أخلدوا لشىء من الهدوء على أثر عواصف الفاطميين والقرامطة والحشاشين، وإيثار المسالمة والتقية فى التعامل مع الجمهور، ومع السلطات.

وعلى أى حال، فقد كتب العلامة الحلى (فى مطالع القرن الثامن الهجرى) كتابه المشهور: منهاج الكرامة فى معرفة الإمامة، فرد عليه ابن تيمية من الشام ومصر بكتاب: منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية. يهتم الحلى بالتدليل بالعقل والنقل على الأصل النبوى للإمامة، وتسلسل الأئمة بالنص وليس بالتوريث، وعلى الغيبة باعتبارها حدثاً هائلاً يؤسس لخلاص الأمة والعالم

أو أنّ مصيرهما يرتبط بذلك. ومع أنّ الحلّي لا يقول شيئاً عن كيفية السلوك في عصر الغيبة؛ لكنّ المفهوم أنه يترك ذلك للفقيه، صاحب السلطة في دراسة كل حالة على حدة. وكان الشريف المرتضى (في القرن الخامس الهجري) قد رأى إمكانَ العمل مع السلطان العادل، واعتبر ذلك وقتها إذناً بالمسالمة والصبر على الجور واللا شرعية في عصر الغيبة والتقية. ومعروفةُ الطرفة المنسوبة إلى ابن طاووس أمام هولاكو حين آثر الكافرَ العادلَ على المؤمن أو المسلم الجائر. أمّا في السياق الذي كان الحلّي يكتب فيه؛ فإنّ السلطان الشيعيّ، يبقى طبعاً سلطاناً غير مكتمل الشرعية؛ لكنّ شرعيته أو نُصرته وليس طاعته فقط؛ لا تستندُ إلى عدله وحسب ؛ بل إلى إيمانه بحقّ أهل البيت، وانتظاره مثل الجماعة الشيعية تماماً صاحبَ الزمان لكي يسلّمه مقاليد الأمور، مكتسباً من الفقيه بهذا الاستعداد، شرعيةً إضافيةً باعتباره وكيلاً مؤتمناً على «دولة التمهيد». أمّا ابنُ تيمية، والذي كان عارفاً بعقيدة الغيبة، لكنه لم يكن واعياً لآثارها المحتملة على المستوى السياسي؛ فإنه آثر الردَّ والنقضَ على أمرين: عقيدة الإمامة أصولاً وفروعاً، وعقيدة الغيبة لدى الشيعة، والأمر الآخر: العقائد المعتزلية في التنزيه والصفات وخَلْق أفعال الإنسان مع أنّ المعتزلة (الذين من ضمن أصولهم نفي القدَر) كانوا قد انقرضوا تقريباً (وانتهى القدرية الأوائل في القرن الثاني) ؛ لإيمانه بأن الشيعة يعتنقون الآراء المعتزلية أو يستندون إليها في التدليل على أجزاء من مذهبهم في وجه أهل السنّة. أمّا الإيلخانيون أنفسهم فقد اختار لهم ابن تيمية مصيراً آخر، عندما اعتبر أنهم لا يزالون على كفرهم (كانوا شامانيين، أي بوذيين في الأصل)، مستدلاً على ذلك باستحلالهم للكثير من المحرمات، وبمحاربتهم الدائمة للمسلمين (المماليك وشعوب مصر والشام)؛ وهذا ما صرّح به الرجل في رسالته إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار[1].

وما اعتبرتُ خمودَ الصراع بين الإيلخانيين والمماليك نهاية لهذه الحقبة؛ لأنّ الانزياحات الشعبية والجغرافية/ السكانية بين الطرفين استمرت بإيران وبالعراق وبخراسان وأذربيجان ومناطق آسيا الوسطى الأخرى وشبه القارة الهندية. وكان يمكن للأمر أن ينحسم لصالح الشيعة في شرق العالم الإسلامي على الأقل، لولا ظهور العثمانيين، قبل ظهور الصفويين بإيران.

والصفويون هم الدولة الشيعيةُ الخالصةُ الأولى، التي خاضت حروباً دفاعيةً في مواجهة العثمانيين على مدى أكثر من قرن، وغُلبت مراراً، كما غلبَ القاجاريون من بعدهم، وما خمد الصراع وهدأ على دَخَنٍ إلاّ في مطلع القرن الثاني عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي. وخلال ذلك الصراع العسكري والاستراتيجي على المجالات والموارد والمنافذ، والبشر، والذي استمرّ زُهاء القرنين ونصف القرن، وخلف خراباً وانزياحات سكّانية لا تقلّ هولاً عن الحروب المغولية وحروب تيمورلنك، اكتملت الأدبياتُ المذهبيةُ الجدالية النابذةُ والناقضةُ بين الطرفين، والتي لم يُضف عليها السلفيون، من مريدي ظهورية ابن تيمية وتلامذة ابن عبد الوهاب، كثيراً في الأزمنة الحديثة والمعاصرة. وقد بلغ من هول الصدام وتأثيراته العقائدية والاجتماعية أنّ نادر شاه الأفغاني الذي حكم إيران لمدة قصيرة، لم يرَ حلاً للنزاع المستشري إلا بالتوحيد بين السنة والشيعة، ولذلك جمع- وهو السني بالوراثة - فقهاء الطرفين وناقشهم وضغط عليهم، دون أن يتوصل لشيء!

إن هذه الحقبة الطويلة من الصراع والمعارك العسكرية (بين القرنين الثامن والحادي عشر الهجري والرابع عشر والسابع عشر الميلادي) حدّدت في الحقيقة الخطوط الاستراتيجية للإسلام الشيعي، وليس للإسلام السني. فقد انحصر الإسلام الاثنا عشري بإيران وجوارها، مع صمود جيوب شيعية في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي باستثناء جنوب شرق آسيا. وما تغيّر المشهدُ كثيراً في عصر الاستعمار، ولا فيما تلاه، حتى كانت الثورةُ الإسلاميةُ في إيران، على أثر اندلاع إحياءٍ ديني شيعي وسني متوازيين ومتقاربين في البداية، طوال نصف القرن الماضي.



لا يصحُّ تجاهلُ التاريخيات والمذهبيات في التوتر الحاصل خلال العقدين الأخيرين بين السنة والشيعة. لكنّ من المؤكد أنه لا علاقة لما يجري اليوم بما كان عليه الأمر بين العثمانيين والصفويين، أو بين الحنابلة والشيعة ببغداد في القرن الخامس الهجري. بل إنّ هذين الأمرين (التاريخي والمذهبي) لا يمكن حسابهما في مجال الذاكرة، وإن أمكن احتسابُهما في مجال الوعي، أي بعد حصول التوتر. وهذا ما انتقدتُه على إدوارد سعيد (وعلى سائر القوميين والإسلاميين) الذين أعادوا أصولَ الصراع الحالي بين المسلمين والغرب إلى الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي. وقد دللوا على ذلك بأنّ الرئيس بوش ذكر «الحرب الصليبية» في مجال دفاعه عن تكتيكاته ضد «الإرهاب الإسلامي»، كما احتجوا بإشارات كثيرة في الإعلام العالمي. إدوارد سعيد (في كتابه: تغطية الإسلام) ما قال بالتواصل التاريخي أو بالذاكرة في ذلك: كما فعل القوميون والإسلاميون: بل قال به في مجال الوعي. أي أنّ الأميركيين العاديين أو بعضهم يعون الصراع الدائر باعتباره صراعاً بين الحق والباطل، وبين المسيحية والإسلام. والذي أراه أنّ هذا الوعي (إن كان) فهو مصطنعٌ أو مستجد بعد اندلاع

التوتّر ومداه ومصائره

أطلَت الأزمنة الحديثةُ على السنة والشيعة، ونُخَبُهُم على تواصُلٍ وتوادٍ، وكثيرٌ منهم يُتقنُ الفارسيةَ والتركيةَ والعربية

الشيعة والسّنة

الصراع، وهو الذي يستدعي الذاكرة والتاريخ صُوراً وأوهاماً.. وحقائق. والشأن كذلك في التوتر بين السنة والشيعة؛ فهناك من يُعيده إلى حياة النبي(ص)، والحساسية بين أم المؤمنين عائشة والإمام علي. وهناك من يعيده إلى «يوم السقيفة» حين اختير أبو بكر ولم يختر علي لرئاسة الدولة الجديدة، أو لخلافة النبي(ص). وقد سمعت قبل عام الشاعر العربي المعروف أدونيس (= علي أحمد سعيد) يُعيد الخلل في إدارة الشأن العام لدى العرب والمسلمين إلى «يوم السقيفة» ذاك بالذات! بينما يذهب باحثون عربٌ كثيرون إلى أن النمط الاستبدادي في القيادة إنما يعود إلى فكرة الخلافة ومؤسساتها بالذات! وكل ذلك ليس أكثر من جَلْدٍ للذات، وتجنٍ على التاريخ، وسوء فهم للواقع.

أطلّت الأزمنة الحديثة على المسلمين السنة والشيعة، ونُخَبُهم على تواصلٍ وتوادٍ كبيرين، وكثيرٌ منهم ثنائي اللغة أو ثلاثيها، أي أنه يتقن الفارسية والتركية والعربية. ونعرف اليوم أن إيرانيين تجديديين كثيرين في القرن التاسع عشر ومطالع العشرين، اعتمدوا في معارفهم عن الغرب على الترجمات من اللغات الأوروبية إلى التركية والعربية، وعلى ما كانت تنشره المجلات العربية الجديدة. ومعروفٌ التأثير الكبير الذي تركه جمال الدين الأفغاني الإيراني الأصل في سائر أنحاء العالم الإسلامي، دونما فرقٍ بين الأوساط السنية والأخرى الشيعية. وقد صدرت أبحاثٌ كثيرةٌ وما تزال عن العلاقة بين طبائع الاستبداد للكواكبي، وتنبيه الأمة للنائيني. وما نزال نقرأ عرباً وإيرانيين وأتراكاً كتب المسلمين الهنود الصادرة في القرنين التاسع عشر والعشرين، في الدفاع عن الإسلام، وفي التجديد، دون أن نستطيع التمييز بين السني والشيعي من المؤلفين، وما عرفتُ إلا قبل سنوات قليلة أن رحمة الله الهندي صاحب كتاب «إظهار الحق»، وسيد أمير علي صاحب «روح الإسلام» و«حياة محمد» شيعيان. أما شبلي النعماني ومحمد إقبال، فهما رائدان تجديديان لدى السنة والشيعة على حد سواء. ولو قرأنا اليوم تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب لوثروب ستودارد «حاضر العالم الإسلامي» عام ١٩٢٦، لوجدنا أنه يذكر المجددين من الفقهاء والمفكرين لدى الشيعة والسنة في آسيا الوسطى وإيران والهند، دونما تمييز لمذاهبهم أو أصولهم الدينية والعرقية. وكانت هناك فكرة عند الشيخ محمد عبده مؤداها أنه ينبغي الإفادة من تقاليد «الاجتهاد» عند الشيعة، لفتح «باب الاجتهاد» المُغلَق عند السنة. وفي ثورة العشرين على البريطانيين بالعراق، تعاون العلماء الشيعة والسنة، كما تعاونت العشائر السنية والشيعية لمواجهة المستعمرين. وعندما ذهبتُ للدراسة بالأزهر عام ١٩٦٥ م وجدتُ أن بين المقررات الفقهية والمنطقية في دروسنا بكلية أصول الدين ثلاثة كتب اثنان منها لزيديين، والثالث لاثني عشري.

ولا يعني ذلك أن الأمور كانت كلّها على ما يرام بين السنة والشيعة من الناحية الثقافية وحتى الاجتماعية. ففي مطالع الأزمنة الحديثة، كان هناك نهوضٌ سلفيٌ بنجد وباليمن وبالهند. وحدثت إغاراتٌ وهّابيةٌ كما هو معروفٌ على بعض المزارات الشيعية بالعراق، وظهرت أدبياتٌ سجاليةٌ متبادلةٌ وردودٌ ونقائض. بيد أن ردود أهل السنة من أتباع المذاهب الفقهية على الوهابية الأولى لا تقل عنفاً عن الردود الشيعية عليها. وما وصلت تلك المجادلات إلى السلفية الهندية؛ لكنها لعبت دوراً صغيراً لدى السلفيين المصريين في مطالع القرن العشرين. بيد أن أولئك كانوا يهاجمون الشيعة في المسائل نفسها التي يهاجمون فيها تقليديي السنة من أتباع المذاهب الفقهية الثلاثة: الشافعية والأحناف والمالكية، أي زيارة القبور والتصوف والاحتفالات والموالد التي لم ترِد بها النصوص. وقد بادر الشيعة والسنة، والشيعة قبل السنة، إلى تلافي تلك التباينات الطارئة بإنشاء جمعية التقريب بالقاهرة، والتي كان فيها علماء من الشيعة والسنة، عملوا لأكثر من ثلاثين عاماً في شتى المجالات، من أجل فهم متبادل، واعتبار التباينات اختلافاتٍ فروعية، وليس خلافاً يتسبّب في التفرقة بين المسلمين. وكان أستاذنا بالأزهر الشيخ محمد أبو زهرة يحدثنا عام ١٩٦٩/١٩٦٨ في دروس أصول الفقه عن اجتهادات المجتهدين الكبار بإيران والعراق، والتي استمع إليها، وعرف الكثير منها في جلساته معهم بالقاهرة إلى جانب الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر أواخر الخمسينيات من القرن الماضي. وقد اشتهر عن الشيخ شلتوت إقدامه عام ١٩٥٩ لأسبابٍ دينيةٍ وسياسيةٍ على اعتبار المذهب الجعفري مذهباً فقهياً خامساً إلى جانب المذاهب السنية الأربعة يمكن تدريسه بالأزهر. وكان من ضمن زملائنا بالمعهد الديني ببيروت (١٩٦٠-١٩٦٦) عددٌ من الشبان الشيعة، وذهب بعضهم معنا إلى الأزهر بمصر حيث اختاروا كلية اللغة العربية للتخصص العالي. وتزاملتُ بالأزهر (١٩٦٥-١٩٧٠) مع طلاب من الشيعة الإمامية من العراق وباكستان، وزيدية من اليمن، وعلويين من سورية وتركيا. وكانوا ينافسوننا على الولاء لمصر ولعبد الناصر. وكان واحدٌ منهم يحرص على التصريح بالانتماء للأشاعرة، في مواجهة السلفيين الذين بدأوا يظهرون بين الأساتذة والطلاب هناك في تلك الفترة.

إن هذا التواصل والامتزاج ما عاد ممكن الحدوث الآن. وقد رأيتُ في تسعينيات القرن الماضي بضعة طلاب من أصول زيدية وإمامية في معاهد دينية سنية، لكنهم كانوا قد اعتنقوا السلفية كما رأيت عشرات الطلاب من أصولٍ سنية في معاهد وكليات بإيران، لكنهم كانوا قد تحولوا إلى التشيع الإمامي. ويدرس بالحوزات في لبنان وسورية طلبةٌ من أصول سنية من لبنان وسورية ومصر وفلسطين والمغرب، لكنهم الآن شيعةٌ ملتزمون.



إن أبا الأعلى المودودي الذي أنشأ «الجماعة الإسلامية» بالهند عام ١٩٤١، حرص على أن يكون بين كوادرها سنةٌ وشيعةٌ





أما العوامل الأساسية للتأثير وللتغيير، ولدى الطرفين، في القرن العشرين فتمثلت في ثلاثة أمور: ظهور الدولة الوطنية أو القومية الحديثة، واندلاع حركة الإحياء الديني لدى الطرفين، والحرب الباردة والسياسات الدولية خلالها وبعدها. وقد ظهر الإحياء القومي قبل الديني، ثم ما لبثا أن تداخلا مع غلبة للثاني على الأول. لقد أكّدت حركتا الإحياء على الهوية الخاصّة والطبيعة الأصلية لكل من المذهبين.

وللوهلة الأولى ما بدا أن الإحيائية الإسلامية الجديدة سوف تفرّق بين السنة والشيعة. فنواب صفوي زعيم فدائيان إسلام، كان صديقاً كبيراً للإخوان المسلمين المصريين. وحزب الدعوة الذي أُنشئ بالعراق في الخمسينيات أفاد من أفكار وتنظيمات الإخوان المسلمين المصريين[1]. بل إن أبا الأعلى المودودي الذي أنشأ «الجماعة الإسلامية» بالهند عام ١٩٤١، حرص على أن يكون بين كوادرها سنةٌ وشيعةٌ؛ لكنه ما لبث أن تخلّى عن ذلك بالتدريج بعد قيام دولة باكستان وانتقاله إليها. كانت الإحيائيات الإسلامية الطهورية الطابع لدى الطرفين تتجه ضدّ الغريب والأجنبي، ثم ضد الأنظمة المحلية في الدولة الوطنية. ولذلك ما أحسّ أحدٌ بالتوجس من الآخر في البداية. لكن الذاتيات الخاصة بدأت بالظهور والتبلور. وقد تبين لي في بحث كتبتُه قبل عشر سنوات أن التطورات في القرن العشرين (وقبل بروز الإحياء الديني لدى الطرفين)، في كل من مصر وإيران، متوازية بل ومتشابهة[2].

والإحياء القومي لدى الإيرانيين والأتراك سابقٌ للإحياء القومي عند العرب (لأن الهياكل القومية كانت قائمةً في دولة لدى الطرفين). وعندما بدأ ذلك الإحياء لدى العرب، برز بين أعلامه المسيحيون من لبنان وسورية وفلسطين.. والعراق، والقوميون المتطرفون في إيران وتركيا. وقد اعتقد بعض هؤلاء (وساندتهم في اعتقادهم الدولة التي أقامها مصطفى كمال بتركيا) أن الدولة القومية العلمانية تؤمّن المساواة والعدالة والتقدم، شأن ما حصل في أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد أثار صعود العصرانيين قلقَ الإحيائيين الإسلاميين الشيعة بإيران (حسن تقي زاده، وكسروي، وآخرين عديدين) والسنة عند العرب (فرح أنطون وشبلي شميّل وإسماعيل مظهر، وتيار واسع صريح ومُضمر). بيد أن التوتر تبلور وتزايد وتمايز ليس بسبب ظهور المتغربين وقوة أطروحاتهم في بنية الدول الوطنية الجديدة، بل لأمرين آخرين تسببت بهما تنظيمات الدولة القومية البازغة، والسياسات الدولية بالمنطقة. فمن جهة ظهرت خلافاتٌ على الحدود غيّرت ما استقرت عليه الأمور تاريخياً منذ القرن السابع عشر. فقد تكوّنت دولةٌ وطنيةٌ في عراقٍ جرى تركيبُه من ولاياتٍ عثمانيةٍ ثلاث، لم تحظ برضا الأتراك والإيرانيين على حدٍ سواء. وقد شكا العرب من استيلاء تركيا على اسكندرون العربية، واستيلاء إيران على الأهواز العربية، واستيلاء اليهود على فلسطين. وشكا الأكراد من أنه ما حُسب لهم حسابٌ في دولةٍ رغم أعدادهم الكبيرة في مناطق

تزاملتُ بالأزهر مع طلاب من الشيعة من العراق وباكستان، وسوريا واليمن وتركيا. وكانوا ينافسوننا على الولاء لمصر ولعبد الناصر



متقاربة بتركيا والعراق وسورية.. وإيران. وهناك مشكلات البنغاليين والبنجابيين والمهاجرين الظاهرة بباكستان بعد الحرب الثانية، ومشكلات البلوش بين باكستان وإيران وأفغانستان، ومشكلات الهزارة والطاجيك والأوزبك بأفغانستان.. الخ. والأمر الآخَر الذى أحدثه ظهور الدولة الوطنية كان تسلل الإحساس إلى فئات وأقليات (منها المسيحيون والشيعة، ومنها الأكراد والبربر)، ورغم التغطية «القومية» أو بسببها، بالغُبن والانظلام ؛ وشأنهم فى ذلك شأن السنة فى الدول التى وجدوا أنفسهم أقليات فيها مثل الهند والفيلبين وتايلاند.. وحتى إيران. وصحيح أن «الحرب الباردة» بين الجبارين ضمن النظام العالمى بعد الحرب الثانية، تشبثت بالحدود الجديدة، وحاولت تجميد التوترات، وتثبيت الولاءات الوطنية الطالعة بحسب الانضواء فى أحد المعسكرين؛ لكنَّ الفئات ذات البُعد الأقلَوى ظلّت تلتمس تحسيناً لأوضاعها، إمّا من طريق المشاركة فى التغييرات الداخلية، أو من طريق التماس العون (ولو المعنوى) من الدول والمرجعيات التى تعتبرها الأقرب إليها. ولذلك فقد كان هناك تطلّعٌ من الأتراك بقبرص مثلاً إلى تركيا، ومن جانب الشيعة بباكستان والبحرين ولبنان والعراق وأفغانستان إلى إيران.. الخ. وإذا عُدنا إلى المسألة بين السنة والشيعة بعد هذا الاستطراد الطويل؛ نجد أنّ هناك «ذاتيةً» شيعية ظهرت فى الدول الجديدة، وغالباً من أجل المساواة والمشاركة، وليس من أجل الانفصال، وفى مناطق مثل العراق ولبنان والبحرين وباكستان وأفغانستان وتنزانيا ونيجيريا.. إلخ. وقد شكّل هذا الوعى مزيجاً من الإحيائيات القومية واليسارية والدينية يقوم على «استعادة الهوية» الخاصة، وتطلّب تبلورها سياسياً. وبالإجمال فقد غلبت القضايا الاثنية فى حقبة الدول الوطنية الأولى، والتوترات الأيديولوجية اليسارية فى زمن الحرب الباردة، والمشكلات الدينية فى حقبة الإحياء الإسلامى، دون أن يخمد البعد الاثنى والقومى الأول كلياً.

إن قيام الثورة الإسلامية فى إيران لا تنحصر أسبابه بذلك طبعاً. بيد أنّ الإحياءَ الإسلامى، وقد تعددت أسبابُه واجتياحاته، يحاول منذ عقود وعند السُنّة والشيعة جَرفَ الدولة الوطنية التى قامت بالمشرق قبل قُرابة القرن: وقد تمكّن من ذلك فى إيران عام ١٩٧٩ حين سقطت تلك الدولةُ فى خضمّ ثَوَرانٍ هائل، ولصالح المؤسسة الدينية التقليدية[٤]. ولأنه إحياءٌ إسلامىٌ شيعىٌ بالدرجة الأُولى - وليس إحياءً قومياً إيرانياً- فقد ترك آثاراً هائلةً على سائر الأقليات (والأكثريات) الشيعية فى العالمين العربى والإسلامى والتى كانت تتطلع إلى إيران، على نحوٍ ما، حتى أيام الشاه كما سبق ذكره.

فى الإسلام، كما فى الديانتين الإبراهيميتين الأُخريين، اتجاهان كلاميان(لاهوتيان): اتجاه التنزيه والعدل، واتجاه الرحمة والعناية والفضل. والمعتزلةُ هم قادةُ الاتجاه الأول (والذى يقال إنّ المؤسِّس واصل بن عطاء تأثر فيه بالإمام زيد بن على بن الحسين)، وقد تبعهم فى ذلك الزيدية والإمامية الاثنا عشرية. أما الاتجاه الآخَر، أعنى اتجاه الرحمة والعناية (الإلهية) فهو اتجاهُ أهل السنة والجماعة. ويذكر مؤرّخو علم الكلام لزوال المعتزلة أسباباً بينها ضغوطُ الأشعرية السنية؛ لكننى أحسبُ أنّ علّةَ ذلك افتقار المعتزلة للجاذبية بين العامة، بسبب انشغالهم بمسألة العدل الإلهى، فى تأكيدٍ على ما يشبه الصراعَ بين الله والإنسان، ثم عدم متابعتهم لأُصولهم الأولى، وبينها أصلُهُمُ الخامس فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. أما فى التشيّع فإنّ العدل اتخذ منحىً إنسانياً وسياسياً بالدفاع عن حقّ أهل البيت، إضافةً للبُعد الدينى العميق فى مبدأ أو أصل الحقّ الذى يُواجه الباطل، ثم العقيدة الخلاصية المتمثلةُ فى «الغيبة». والتى ترتبط ارتباطاً وثيقاً مرةً أُخرى بالحقّ الذى لا بد أن ينتصر على الباطل فى النزوع المهدوى، مهما طال الزمان - وبالعدل المطلَق الذى تُنجزُهُ عودةُ الإمام: «الذى يملأُ الأرضَ عدلاً كما مُلئت ظُلماً وجوراً». وكما لا يمكن تفسير التاريخ أو التجربة التاريخية للجماعات والأُمم بالعقائد وحدَها أو بالتبلورات القومية وحدها؛ فكذلك لا يصح اعتبارُ التجربة التاريخية أو العقيدة الشيعية لدى الإمامية مفتاحاً وحيداً لفهم السايكولوجيا الجماعية للشيعة (هل توجد سايكولوجيا جماعية؟!)، وإن لم يمكن تجاهلُها. فالمظلوميةُ الناجمةُ عن مقتل الأئمة، وعدم قدرة أوائلهم (باستثناء الإمام على) على الوصول إلى السلطة، ثم الاضطهاد الذى لاحق الجماعات الشيعية فى حقبة نشوئها الأولى؛ كلُّ ذلك استقرّ فى الذاكرة والوعى، وتمثّل شعائرياً فى طقوس التعزية الحسينية لدى الإمامية، التى هدفُها إيقاظُ ذاكرة المآسى، من طريق الوعى الواعى، حتى فى إيران التى أنجز الشيعةُ دولتَهم فيها قبل أكثر من أربعة قرون. وهكذا فقد أصبحت شعائر التعزية وطقوسها- بغضّ النظر عن وقائع الحياة السياسية والاجتماعية- ولدى العامة وسيلةً رئيسيةً (واعية أحياناً وغير واعية أحياناً أُخرى، لكنها عميقة المغزى فى كل الحالات) للحفاظ على خصوصية الجماعة وتمايُزها ووحدتها الشعورية واللاشعورية.

ولأنّ ذلك يقترن بيقينية عقيدة الحقّ (الذى يعلو على العدل أحياناً ويوازيه أحايين)، وعقيدة الغيبة المرتبطة به؛ فإنّ ذلك يُصيِّر الشيعة الإمامية والفرقَ الدينية فى سائر الأديان ذات الصبغة الخلاصية، وفى أزمنة التحولات الروحية الكبرى (والإحياء الإسلامى، والآخر البروتستانتى، هما الأكثر دلالةً وثوراناً فى العالم اليوم)، إلى ما يشبه الأحزاب الصلبة، وبخاصة إذا توافرتْ لها قيادةٌ كارزماتيةٌ قوية، وأحاطت بها حواجزُ وعوائقُ وموانعُ وعداواتٌ وتوجسات، كما حصل مع الثورة الإسلامية فى إيران. فالذاكرة الموقَظة الملتاعةُ والغاضبة لا تُحاسبُ نفسها بل الآخر، وهى لا تعتمدُ فى ذلك على الأحداث التاريخية التى تُستعادُ أبداً فقط؛ بل وتبحثُ عن الخصوم الحاضرين والظالمين القائمين، تثبيتاً ليقينها، ولكى يظلّ الشر متجسداً أو قريباً من التجسد فى الواقع كما هو فى الوعى. والمأساوى أنه فى لحظة الذروة لهذه التطورات بإيران(١٩٧٨-١٩٨٠)، والوعى الخصوصى والخلاصى الشيعى فى أقصى درجات توتره، وقد صارت الولاياتُ المتحدةُ الشيطان الأكبر، شنّ صدّام حسين حربهُ الصاعقةَ عليها. فأيقظ ذلك تحليلات حديثة الطابع(التآمُر مع الولايات المتحدة)، وأحاسيس ووعياً عميقاً فى الذاكرتين القومية (الفتح العربى لإيران، وكراهية الشعوبيين القُدامى للعرب والإسلام) والدينية (السنة ضد الشيعة) وكأنّ ذلك كلّه ما كان كافياً، إذ انصرفت الدعايةُ العراقية وغير العراقية والقومية والسلفية للتنديد بالفرس (المجوس)، وبالشيعة (العقائد السرية الباطنية، والقول بتحريف القرآن، وشتم الصحابة!). وليس المهمّ كم صدّق الجمهور العربى (السنى) ذلك : بل المهم الأثَرُ الذى خلّفته فى نفوس الإيرانيين (وبين مثقفيهم كثيرون يعرفون العربية) وفى نفوس الشيعة العرب، ومنهم الكثرة العراقيةُ التى استقرّ فى وعيها أنّ النظام يمارس فى حقّ عامتها تمييزاً مزدوجاً: باعتبارهم شيعة، وباعتبارهم عراقيين.

وما وقفت القيادةُ الثورية الإيرانية مكتوفةَ اليدين، أمام هذا التحدى الملحمى بينها وبين العرب، وبينها وبين الولايات المتحدة. ففى الوقت الذى هاجم صدّام حسين دولةَ الثورة الإسلامية، صدر الدستور الإيرانى الجديد، الذى يقيم نظام «ولاية الفقيه»؛ أى يُسبغ على الدولة البازغة طابعاً ثيوقراطياً مهدوياً، وظهرت تنظيمات الباسيج والباسدران والحرس الثورى للدفاع عن «دولة التمهيد» الحق، واحتجز طلبة «خطّ الإمام» الدبلوماسيين الأمريكيين فى السفارة الأمريكية (وكر الجواسيس) بطهران، وأقبل مئاتُ ألوف المتطوعين إلى الجبهة المستعرة مع العراق، وبينهم ألوف سيقضون أثناء اندفاعهم لاقتحام حقول الألغام العراقية، ليبلغ ضحايا الحرب من الطرفين حوالى المليون، أكثرهم من الشيعة- دون أن ينسى الإمامُ الخمينى اشتراعَ يومٍ للقدس، حطّاً على العرب الذين تركوا القدس وفلسطين لمصيرهما، ومضوا لمقاتلة إيران!

بيد أنّ الأبرزَ والأكثر لفتاً للانتباه (وهو أمرٌ ما جرى التنبهُ إليه إلاّ بعد سنوات طوال) طرائق إيران فى عصر ولاية الفقيه(بل طريقتها لأنها واحدة) فى التعامل مع الشيعة خارجها، فى ديار العرب والإسلام، وفى العالم الأوسع. فهى ما اكتفت بكسب تأييد هؤلاء وحماسهم (ومعهم كثيرون من شبان السنّة)، باعتبارها مرجعية شيعيةً وثورية. بل اقتضت دعوى القيادة الأوحد للشيعة فى العالم من خلال ولاية الفقيه (وليس باعتبار نظامها نظاماً شيعياً وحسب كما فى أيام الشاه)، إقامةَ تنظيمات داخل كلّ الجماعات الشيعية فى العالم، تتبع الولىَّ الفقيه فى المسائل الدينية والحياة الشخصية والعامة. وقد تحولت تلك التنظيمات فى البلدان التى تنتشر فيها الفوضى مثل لبنان وأفغانستان إلى تنظيمات مسلّحة؛ فى حين بقيت سريةً فى أكثر البلاد الإسلامية، مع التمايز فى أسلوب الحياة، وانتشار التذمر فى صفوفها، والمناكفات مع

باستثناء مصر؛ فإن علاقات إيران العربية الإسلامية تحسنت واستمرت في التحسن

الشيعة والسنة

الأنظمة القائمة؛ وبخاصة تلك التي ما كانت علاقتها بالنظام الجديد في إيران جيدة بسبب علاقتها بالولايات المتحدة، أو دعمها للعراق في الحرب عليها. كما أن النظام الثوري الإيراني أنشأ واستقبل أو دعم تنظيمات معارضة(ما كانت شيعية كلها) من البلدان العربية والإسلامية استخدمها فيما بعد في الجهات الأكثر إزعاجاً لخصومه ومناوئيه(من مثل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وحزب الدعوة بالعراق، والجهاد الإسلامي في فلسطين، وحزب الوحدة في أفغانستان، وفي العقد الأخير: حركة حماس).

وعندما انتهت الحرب العراقية-الإيرانية عام ١٩٨٨ وتوفي الإمام الخميني بعدها بقليل، بدا أن الأمور بين السنة والشيعة، وبين العرب والإيرانيين هدأت بعض الشيء. فالعراق تلقى ضربة قاسية جداً على أثر مهاجمته للكويت. والسيد الخامنئي(الذي خلف الخميني في منصب المرشد الأعلى للثورة، الولي الفقيه) والرئيسان رفسنجاني(٨ سنوات)، وخاتمي(٨ سنوات) اتجهوا جميعاً للعض على الجرح، وإعادة البناء، والانفتاح على دول الجوار، وعلى العالم. وبذلت جهود كبيرة من جانب العرب والمسلمين الآخرين، ومن إيران، لتجاوز آثار وعقابيل النزاع الذي اتخذ وجوهاً عدة. وباستثناء مصر؛ فإن العلاقات العربية - الإيرانية الرسمية، والعلاقات الإيرانية - الإسلامية الرسمية تحسنت واستمرت في التحسن بالفعل. لكن إلى جانب العلاقات الرسمية استمرت التنظيمات الشيعية والأخرى المدعومة من إيران في العمل والفعالية. وقد نبهت إلى استمرار التنازع والتوجس بعض الأحداث هنا وهناك وفي العالمين العربي والإسلامي. وتمثلت في التنافس بين إيران والسلفيين[٥] في المجال الجديد بجمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز، وهواجس وشائعات «تشييع» العوام السنة في بعض النواحي والمناطق أخيراً[٦]، وفي دورات العنف بين المتشددين السنة والشيعة في باكستان، وفي عودة التوتر بين السنة والشيعة على أثر صعود طالبان في أفغانستان، وحوادث متفرقة أخرى بين الجاليات الإسلامية ببلدان المهاجر، إذ انقسم هؤلاء إلى سنة وشيعة تصارعوا على المساجد، وعلى العلاقة بدول المهاجر. فالذاتية الشيعية التي بدأت قبل الثورة الإسلامية الإيرانية، وخارج إيران، بصورة تطلب هوية خاصة، تبلورت بعدها في انفصال وانقسام عامودي ما اقتصر على الفئات المتدينة على النمط الجديد من الفريقين، بفعل التشدد السلفي لدى بعض أهل السنة، والعلاقة الولائية بإيران لدى كثرة من الشيعة.

وكانت الإحيائية الإسلامية الأخرى، أعني السنية(المطعمة بالسلفية)، وفي الوعي وليس في الواقع، بين أسباب عودة التوتر إلى الاندلاع بين السنة والشيعة: وإن بشكل غير مباشر، بعد أن تهيأت أرضيته وأسبابه. فالإسلام السياسي السني الذي تبلورت إليه تلك الإحيائية، وبخلاف الإحياء الشيعي، ما استطاع الوصول إلى السلطة في دولة سنية رئيسية. بيد أن توقه لذلك ما توقف أو خبا. ويكون علينا أن لا ننسى أن الرئيس المصري أنور السادات سقط برصاص جهاديي الإحيائيين السنة عام ١٩٨١، أي بعد عامين على وصول الإحيائيين الشيعة للسلطة بإيران. ولخالد الإسلامبولي شارع باسمه في طهران حتى اليوم؛ لأن الإسلاميين الإيرانيين



علينا ألا ننسى أن السادات سقط برصاص الإحيائيين السنة عام ١٩٨١، أي بعد عامين على وصول الإحيائيين الشيعة للسلطة بإيران



ما نسوا إيواء الرئيس السادات للشاه محمد رضا بهلوي بعد مغادرته لإيران، وعدم إلجائه بالولايات المتحدة! وفيما عدا الاشتراك في الرؤية (ولاية الفقيه لدى الشيعة منهم والحاكمية لدى السنة)، والأهداف (الاستيلاء على السلطة)؛ ما تشابهت مصائر الأصوليتين.



فبالإضافة إلى عدم وصول الأصوليين السنة للسلطة في دولة رئيسية من خلال حركة شعبية زاخرة(وصلوا إلى السلطة بالسودان من طريق الانقلاب العسكري!)؛ اختلفوا عن نظرائهم الشيعة في الانقسام إلى تيار رئيس، ما عاد يقول بالعنف، ويريد المشاركة في الشأن العام سلماً ومن خلال المؤسسات القائمة - وتيار أقلوي متشدد سلك سبيل «الجهاد العالمي» أو الشامل، أي ضد القوى العظمى والغرب، وضد الأنظمة القائمة في البلدان العربية والإسلامية. وما اصطدم الإحياء السني بالآخر الشيعي حتى الآن بشكل ظاهر رغم الحساسيات العالية بينهما؛ إذ إن كلاً منهما لا يزال يناضل ضد خصومه الرئيسيين. لكن بعض المتشددين السنة، والذين يمثلون لقاء بين الجهاديين والسلفيين (ومن هنا تسمية القاعدة والتنظيمات المشابهة: السلفية الجهادية)، ورثوا سلبية أعلى تجاه الشيعة بشكل عام هي من مواريث السلفية (وقد ظهرت في السنوات القليلة الماضية بالعراق). والأمر الأخير الذي يستحق الذكر في اختلاف التطور بين الاتجاهين، أن الإحياء الشيعي استطاعت المؤسسة الدينية الشيعية استيعابه وقيادته من خلال تقليد ولاية الفقيه، وتمركز في إيران جامعاً المواريث الدينية والمؤسسية والقومية للبلاد؛ بينما اصطدم الإحياء الديني السني بالمؤسسة الدينية السنية، كما اصطدم بالدولة، وبالمجتمع الدولي والعالم.

وما أعنيه بذلك أنه بعد أن صادم الجهاديون السنة الاتحاد السوفيتي ثم روسيا الاتحادية في أفغانستان وفي آسيا الوسطى والقوقاز، والشيشان، شنوا حرباً على الولايات المتحدة والغرب بلغت ذروتها في ١١ أيلول(سبتمبر عام ٢٠٠١) بـ«غزوة» نيويورك (برج التجارة العالمي) وواشنطن، ووزارة الحرب الأمريكية، ومقر المخابرات المركزية). وردت الولايات المتحدة ومعها الغرب والشرق بإعلان الحرب عالمياً على «الإرهاب الإسلامي» السني بالتحديد، ومن ضمن وقائع تلك الحرب المستعرة حتى اليوم احتلال أفغانستان أواخر عام ٢٠٠١، واحتلال العراق عام ٢٠٠٣ . وقد أفادت إيران من تلك الحروب (التي تشاورت الولايات المتحدة معها بشأنها وربما أكثر) بزوال نظامين كريهين بالنسبة لها هما نظام طالبان بأفغانستان، ونظام صدام حسين بالعراق. ويسود اليوم في المناطق الشيعية بأفغانستان تنظيم شيعي موال لها، كما يحكم بالعراق اليوم أيضاً تنظيمان شيعيان كانا في المنفى بإيران، وعادا منها إلى العراق مع الغزاة الأمريكيين. والأمر كذلك مع حزب الله بلبنان، والذي أنشأه الحرس الثوري الإيراني أواخر العام ١٩٨٢، ودربه وسلحه لمقاتلة الاحتلال الإسرائيلي بجنوب لبنان، وهو يدين بالولاء لمرشد الثورة الإسلامية بإيران، كسائر التنظيمات الشيعية التي نشرتها إيران في البلدان العربية والإسلامية والمهاجر. وقد هدأت الجبهة بين حزب الله وإسرائيل بعض الشيء بعد الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠، وعلى أثر المهادنة العملية الحاصلة بين إيران والولايات المتحدة. لكن الفشل الأمريكي بالعراق، وزيادة نفوذ إيران في ذلك البلد، وبروز الاهتمامات النووية الإيرانية، وتغير السياسات الأمريكية بالمنطقة، ووصول المتشدد محمود أحمدي نجاد إلى رئاسة الجمهورية بإيران، وحملاته الشعواء على السياسة الأمريكية، وعلى إسرائيل؛ كل ذلك أعاد التوتر بين الدولتين. ولذلك فقد شن حزب الله غارة شعواء على إسرائيل في ١٢ تموز (يوليو) عام ٢٠٠٦، أجابت عليها إسرائيل بحرب مدمرة على لبنان أبعدت خلالها الحزب عن الحدود مع فلسطين المحتلة، لكنها ما استطاعت القضاء عليه. وقد أدت حرب تموز(يوليو) إلى توتر كبير وانقسام في لبنان، وبخاصة بعد تصريح السيد الخامنئي بأن إيران ستنزل هزيمة بالولايات المتحدة في لبنان. وبالفعل فقد ارتد الحزب إلى بيروت، وحاول إسقاط رئيس الحكومة(السني) وترافق ذلك مع خطابات نارية لزعيم الحزب السيد حسن نصر الله اعتبر فيها رئيس الحكومة اللبنانية ومشايعيه عملاء للولايات المتحدة وإسرائيل، وقال إنهم دفعوا إسرائيل لضرب حزب الله، وخططوا لتهجير الشيعة من طريق منعهم من العودة للجنوب! ولا يزال حزبيون من حزب الله، وبعض الفرقاء الموالين لسورية، يعتصمون أمام السراي الحكومي منذ أكثر من عام. وهكذا فبعد العراق وحروبه (التي تحولت في وجه ضمن وجوهها المتعددة إلى مذابح بين السنة والشيعة فيه)، كاد التوتر السياسي والاجتماعي والطائفي أن يتحول إلى نزاع مفتوح بين السنة والشيعة بلبنان أيضاً. وقد حدثت جرائم طائفية بين الطرفين بالفعل؛ أمكن تجاوزها بتدخل سعودي وإيراني، ولأن الطرفين السني والشيعي بلبنان، لا يملكان ذاكرة نزاعية شأن نواح أخرى في العالمين العربي والإسلامي. ولا يزال حزب الله (ومن ورائه جمهور شيعي زاخر) قائماً بسلاحه وأجهزته و«أمته»، فيما يشبه الكيان الذاتي المنفصل والمواجه للدولة اللبنانية (حسبما قاله كاتب لبناني من أصل شيعي: دولة حزب الله، ١٩٩٤).

وفي الخلاصة: بين السنة والشيعة

بعد العراق وحروبه، كاد التوتر السياسى والاجتماعى والطائفى أن يتحولَ إلى نزاعٍ مفتوح بين السنة والشيعة بلبنان أيضا



تمايُزاتٌ فى الاعتقاد والفقه ورؤية العالم. وقد أحدثت تلك التمايُزات التاريخية، والتى تبلورت اجتماعياً وسياسياً، احتكاكاتٍ ذات طابع مذهبى أحياناً. لكنها فى التاريخين القديم والحديث ما تحولت إلى فتَنٍ وحروبٍ إلاّ على مستوى الدول، أو بالأحرى: إنّ تلك العلاقات ما توتّرت حقاً إلاّ عندما كانت الحربُ تنشب بين إيران (الشيعية) وإحدى الدول السنية أو المدعية لذلك (العثمانيون قديماً وصدام حسين حديثاً)، ولأسبابٍ غير دينية أو مذهبية فى الأصل، أو عندما تفرض ذلك السياسات الدولية (كما فى حالةِ العراق وأفغانستان اليوم). بيد أنّ التوتُّر الكبير الحاصل بين الطرفين فى الزمن المعاصر هو نتاج ثلاثة عوامل: الإحياء القومى، والإحياء الدينى، والسياسات الدولية الفاعلة أو المؤثّرة فى حقبتى الإحياءين. ظهر الإحياء القومى فى العالم الإسلامى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وفى ظلّه تكونت الدولةُ الوطنيةُ / القوميةُ لدى العرب، وتطورت بحسبه لدى الأتراك والإيرانيين. وفى حقبة «الإحياء» الأول هذا تبلورت ذاتياتٌ، وانتعشت حساسياتٌ، بفعل متغيرات الحدود، وظهور مشكلات الأكثرية والأُقلية الاثنية والدينية والطائفية، والصراعات على السلطة، وفشل نظام الدولة الوطنية/ القومية فى إرضاء تطلّعات سائر الفئات: وبخاصةٍ أهل الخصوصيات الاثنية والدينية والمذهبية الذين شعروا بالاختناق للنزوع الطاغى للدمج القسرى المُلْغى للتمايزات. ومع اندلاع الإحياء الدينى لدى السنة والشيعة بعد الحرب العالمية الثانية، تصاعدت تلك الذاتيات وتبلورت دون أن يصطدم الإحيائيون الشيعةُ والسنةُ أحدهما بالآخر لانهماك كلٍ منهما فى استعادة «الهوية الذاتية» والخاصة، واتجاه كلٍ منهما لجرف الدولة الوطنية / القومية. فى الإحياء السنى بالوطن العربى لا يزال التصارعُ والتحدى قائماً وجارياً. أمّا الإحياء الإسلامى الشيعى فقد تمكّن من الاستيلاء على السلطة فى الدولة القومية الإيرانية، ومن طريق المرجعية الدينية التقليدية. وهناك أقام نظاماً ثيوقراطياً اعتبر نفسه القيادة الأكثر مشروعيةً للشعب الإيرانى منذ خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب، والزعامة الأوحديةَ للشيعة فى كلّ العالم. وفى ذروة الثوران الكبير للإحياء الشيعى بإيران وفى العالمين العربى والإسلامى، قام نظام صدام حسين بالعراق، وباسم العروبة تارةً، وباسم الإسلام(السنى) تارة أُخرى: بشن حربٍ شعواء على الجمهورية الجديدة، استمرت ثمانى سنوات. وقد أحدث الإحياء الدينى الشيعى، والحرب العراقية، والسياسات الدولية (الولايات المتحدة): كلُ ذلك شرخاً عميقاً بين العرب وإيران، وشرخاً بين الشيعة والسنة. وأقبلت إيران من جهتها على إقامة تنظيماتٍ حزبية شيعية موالية لها دينياً، وأُخرى غير شيعية موالية لها سياسياً، فى البلاد العربية والإسلامية. وقد هدأت الأمور بين العرب وإيران بعض الشىء بعد توقف الحرب العراقية- الإيرانية عام ١٩٨٨، لكنّ النشاط الدينى والسياسىّ الإيرانىّ فى العالمين العربى والإسلامى لم يتوقف فى التسعينيات. وتطورت المُهادنة بين إيران والولايات المتحدة بعد العام ٢٠٠٠ بسبب التصادم بين أمريكا والإحياء الإسلامى السنى(متمثّلاً بالقاعدة والسلفية الجهادية): فى الوقت الذى اشتدّ فيه التوجسُ الأمريكى (فى إدارة بوش الأولى التى سيطرت فيها رؤى وسياسات المحافظين الجدد) من الإسلام السنى، ومن العرب، فى الوقت نفسه. وهكذا أفادت إيران من الحرب الأمريكية على الإرهاب، وعلى الأنظمة الفاشلة، بالتخلص بواسطة الغزو الأمريكى من نظام طالبان بأفغانستان، ومن نظام صدام حسين بالعراق. لكنْ بسبب التجاذب مع الأمريكيين بعد العام ٢٠٠٥ على العراق، وعلى النووى، وعلى سياسات العزل والحصار، أيقظت إيران خلاياها وحلفاءها اليقظين والنائمين فى العالمين العربى والإسلامى، لصون مصالحها الوطنية من جهة، ولمشاركة الولايات المتحدة فى «الشرق الأوسط الجديد» من جهةٍ ثانية. فازداد الاضطرابُ الطائفى فى العراق، -والذى أحدثه الغزو الأمريكى- تفاقُماً واستعاراً، واصطدم حزب الله فى لبنان بإسرائيل ثم بالحكومة اللبنانية، وتفاقم الاصطفاف فى البحرين، ويكاد الشيعة ينفصلون فى أفغانستان.. وكذلك فى العراق. فالحزبان الحاكمان هناك، والعاملان مع الولايات المتحدة وإيران فى الوقت نفسه(!) لا يسعيان للسيطرة على العراق كلّه بل يحاولون تقليد الأكراد، بالانفراد بالسيطرة فى مناطق الكثرة الشيعية الغنية بالنفط، وفيها المزارات الشيعية المقدّسة(تسع محافظات).

وفى المحصّلة: هناك شرخٌ اليومَ بين الشيعة والسنة، وبين العرب وإيران، ولأنّ إيرانَ تستخدم تنظيماتِها وحلفاءَها فى الوطن العربى، فى تجاذُباتها مع الولايات المتحدة، ومنافراتِها مع هذا النظام العربى أو ذاك: فلا سبيل لتهدئة التوتُر فى المدى القريب إلاّ باستمرار التواصُل الرسمى العربى مع إيران. أمّا فى المدى المتوسِط، فقد يكونُ من المفيد متابعةُ وتقويةُ التواصُل الدينى والتواصُل الثقافى مع الجهات الدينية والثقافية بجمهورية إيران الإسلامية: وكذلك إجراء محاورة استراتيجية: بحيث نخرج من الاشتباك باتجاه التشابك، كما يوشك أن يحصل مع دولة الجوار العربى الكبرى الأخرى: تركيا. أما مع الشيعة العرب، وفى ديار العالم الإسلامى الأخرى، فلا بدّ من علاقاتٍ ووجوه تواصل أكثر حميميةً وتفهماً واستيعاباً ضمن المجتمعات الوطنية، وضمن المؤسسات الإسلامية الشاملة.

وتبقى المسألةُ الأساسُ والتى تفجرت وما عادِ تجاهُلُها ممكناً، وهى الفصاماتُ والتشقّقاتُ فى المجتمعات الوطنية على مدى الوطن العربى، والعالم الإسلامى، تارةً بسبب الأقليات والاثنيات، والأحاسيس والمشروعات المتناقضة، وتارةً بسبب الإحياء الدينى الأصولى أو المذهبى. فكما لم تحمنا الوحدةُ الاثنيةُ واللُغوية من بروز نوافر وراديكاليات ضمن الأقليات العرقية والثقافية: فإنّ الكثرة السنية الهائلة فى المدى العربى والإسلامى لا تُلغى الإدراكات الأخرى المذهبية أو السياسية: وبخاصةٍ فى عصر الإحياء الإسلامى (الشيعى والسنى)، والذى يؤكّد على التمايُزات، وعلى «العودة للذات»، بل ويعملُ ويفعلُ من خلالها، كما من خلال الإدراكات الوطنية والقومية.

إن الاجتماع التقليدى الإسلامى بترتيباته وتركيباته وتعدديته وآليات حركته، ما خلخلتْهُ السياسات الدوليةُ التدخليةُ وحسبُ: بل المتغيران الآخران اللذان أنتجتهما الحداثةُ ذاتُها: الإحياء القومى(الدولة الوطنية)، والإحياء الدينى(الأصوليةُ الإسلامية): وفى حين تلاقى الإحياءان بإيران من خلال قيام نظام ولاية الفقيه الشيعية فى تلك الدولة القومية الكبرى والعريقة، لا يزال الإحياء الدينى السنى، يتصارعُ مع الدولة الوطنية فى أكثر الكيانات ذات الأكثرية السنية. وفى كلّ الأحوال : فإن المخاض العميق لا يزالُ جارياً وشاسعاً ليس لدى الطرفين العربى والإيرانى، والسنى والشيعى فقط: بل ولدى الأطراف الصغرى الأُخرى فى العالم الإسلامى: ﴿والله غالبٌ على أمره، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾. ■

هوامش

(١) لابن تيمية فتوى دعم فيها غزو الجيش المملوكى لمنطقة كسروان بجبل لبنان، والتى كان سكّانها من الشيعة، بحجة تآمُرهم مع بقايا الصليبيين(بقبرص). لكننى أُرجحُ أنّ أولئك كانوا من الإسماعيلية، وليسوا من الإمامية الاثنى عشرية: لأنه يعتبرهم من الباطنية، وأنه ليس فى مناطقهم مساجد. وهاتان سِمتان لا تنطبقان على الإمامية.

(٢) علمتُ من الرئيس هاشمى رفسنجانى والسيد الخامننى أنهما انشغلا فى ستينيات القرن العشرين بترجمة كتب سيد قطب صاحب مقولة «الحاكمية»: إلى الفارسية. وقد اختار المرشد الأعلى للثورة الإسلامية بإيران السيد على الخامننى لكتابه ذى الأجزاء الثلاثة والمنشور بلبنان عام ٢٠٠٦ عنوان: حاكمية الإسلام بين النظرية والتطبيق.

(٣) رضوان السيد: العرب وإيران، الدولة والإسلام والمجتمع المدنى: فى كتابى: سياسات الإسلام المعاصر، بيروت ١٩٩٧، ص ص ١١٢-١٥٦ .

(٤) قمت قبل أعوام بترجمة كتاب رؤى متحدة: بردة النبى، الدين والسياسة فى إيران، ونشر للمرة الأولى بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة (٢٠٠٤)، وللمرة الثانية ببيروت عام ٢٠٠٧ . وهو مفيدٌ جداً فى فهم تركيبة الشخصية الإيرانية، وأسباب تمكّن رجل الدين الإيرانى من الوصول إلى السلطة.

(٥) يذكر ولى نصر فى كتابه(٢٠٠٦): Shia Revival (صحوة الشيعة) أن السلفية فى شبه القارة الهندية، وخارجها، هى السبب الرئيس للتوتر لدى الشيعة، وبالتالى لثورانهم هناك ثم فى كل مكان. وهذا لا دليل عليه لا فى الوطن العربى، ولا فى باكستان حيث فاز أخيراً فى الانتخابات حزب الشعب، الذى تدعمه الأقلية الشيعية هناك دعماً قوياً.

(٦) ظهر كلامٌ كثيرٌ فى الإعلام عن «التشيع» فى السودان وسورية ومصر وآسيا الوسطى وإندونيسيا ونيجيريا وتنزانيا.

"مغامرات فى عالم جديد"

آلان جرينسبان

■■ في مساء الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) عام ٢٠٠١ كنت في طريقي إلى واشنطن على متن رحلة سويس إير رقم ١٢٨ عائداً من اجتماع روتيني لرجال البنوك العالميين في سويسرا. كنت أسير بالقرب من الكابينة عندما أوقفني رئيس الأمن بوب أجنيو الذي يصاحبني في رحلاتي إلى الخارج في ممر الطائرة. وبوب رجل استخبارات سابق، وهو شخص ودود غير، أنه ليس ثرثاراً. في تلك اللحظة بدا متجهماً، ثم قال بصوت خفيض: «سيدي الرئيس، قائد الطائرة يرغب في رؤيتك في المقدمة. فقد اصطدمت طائرتان بمركز التجارة العالمي». ويبدو أنه بدت على وجهي نظرة استغراب وعدم تصديق لأنه أضاف قائلاً: «إنني لا أمزح».

داخل الكابينة، بدا القائد مضطرباً إلى حد كبير. قال لنا إن هناك هجوماً رهيباً ضد البلاد. فقد اختطفت عدة طائرات واصطدمت طائرتان بمركز التجارة العالمي وطائرة بالپنتاجون. وهناك طائرة مفقودة. وقال بإنجليزية ذات لكنة أجنبية بعض الشيء إن ذلك هو كل ما لديه من معلومات. كنا حينذاك عائدين إلى زيوريخ، ولم يكن يعتزم إعلان السبب للركاب الآخرين.

سألته: «هل نحن مضطرون للعودة؟ ألا يمكن أن نهبط في كندا؟» أجاب بالنفي، ذلك أن الأوامر صدرت له بالعودة إلى زيورخ.

عدت إلى مقعدي بينما كان القائد يعلن أن برج المراقبة وجهنا إلى زيورخ. وعلى الفور أصبح هناك تزاحم على التليفونات الموجودة على المقاعد ولم أتمكن من الاتصال بالأرض. وكان زملائي في بنك الاحتياط الفدرالي الذين كانوا معي في سويسرا في عطلة نهاية الأسبوع تلك على رحلات أخرى. وبما أنه لم يكن أمامي من سبيل لمعرفة كيفية تطور الأحداث، لم يكن لدي ما أفعله سوى التفكير طوال الثلاث ساعات ونصف الساعة التالية. كنت أنظر من النافذة، بينما العمل الذي أحضرته معي، وأكوام المذكرات، وأكوام التقارير الاقتصادية منسية في حقيبتي. هل كانت تلك الهجمات بداية مؤامرة أكثر اتساعاً؟

كان همي المباشر زوجتي. أندريه كبيرة مراسلي الشئون الخارجية بشبكة «إن بي سي» في واشنطن. لم تكن في نيويورك، وهو ما أراحني كثيراً، ولم تكن زيارة الپنتاجون ضمن أجندتها في ذلك اليوم. افترضت أنها قد تكون في مكتب «إن بي سي» في وسط المدينة، منشغلة إلى حد كبير في تغطية الأخبار. قلت لنفسي إنني لست شديد القلق لذلك... ولكن ماذا لو كانت قد ذهبت في آخر لحظة لزيارة أحد الجنرالات في الپنتاجون؟



كنت قلقاً على زملائي في بنك الاحتياط الفدرالي. هل هم في أمان؟ وماذا عن أسرهم؟ ربما يكون العاملون يتحركون بسرعة ليتجاوبوا مع الأزمة. فهذا الهجوم، وهو الأول على التراب الأمريكي منذ پيرل هاربر. سوف يُحدث اضطراباً في البلاد. وكانت المسألة التي أردت التركيز عليها هي ما إذا كان الاقتصاد سيُضار أم لا.

كانت الأزمات الاقتصادية المحتملة جميعها شديدة الوضوح. وكانت أسوأها انهيار النظام المالي، وهو ما ظننت أنه غير مرجح إلى حد كبير. فبنك الاحتياط الفدرالي مسئول عن نظام الدفع الإلكتروني الذي يحوّل أكثر من ٤ تريليونات دولار يومياً من النقود والأوراق المالية بين البنوك في أنحاء البلاد وجزء كبير من سائر بلدان العالم.

كنا نظن باستمرار أنه إذا أراد أحد إعاقة الاقتصاد الأمريكي فعليه بتدمير أنظمة الدفع. إذ سوف تُجبر البنوك على اللجوء إلى التحويلات المالية غير الكفء. وسوف تلجأ الأعمال التجارية إلى المقايضة وإقرارات الدين؛ سوف يهوي مستوى النشاط الاقتصادي في أنحاء البلاد كالحجر.

أثناء الحرب الباردة، وكإجراء احترازي ضد أي هجوم نووي، بنى بنك الاحتياط الفدرالي عدداً كبيراً من المكونات المتكررة داخل منشآت الاتصال والكمبيوتر التي يعتمد عليها النظام النقدي. وكان لدينا كل أنواع الاحترازات بحيث تُحفظ نسخ من ملفات بيانات أحد فروع بنك الاحتياط الفدرالي في فرع آخر للبنك على بعد مئات الأمتار أو في مكان ما بعيد. وفي حال وقوع هجوم نووي كنا سنعود بسرعة كبيرة للعمل من المناطق التي لم تتعرض للإشعاع. وكان هذا النظام هو ما يدعو إليه رودجر فيرجسون نائب رئيس بنك

عصر الإضطراب
مغامرات فى عالم جديد
آلان جرينسبان
ترجمة: أحمد محمود
مراجعة: سامر أبو هواش
كلمة: أبو ظبى
دار الشروق - القاهرة - ٢٠٠٨

وُلد آلان جرينسبان فى عام ١٩٢٦ فى نيويورك. وبعد دراسة الكلارينيت وعمله كعازف محترف حصل على البكالوريوس والماجستير والدكتوراه فى الاقتصاد من جامعة نيويورك. وفى عام ١٩٥٤ أسس شركة الاستشارات الاقتصادية «تاونسند وجرينسبان وشركاهما». وفى الفترة من ١٩٧٤ إلى ١٩٧٧ عمل رئيساً لمجلس المستشارين الاقتصاديين فى عهد فورد. وفى عام ١٩٨٧ عينه ريجان رئيساً لمجلس إدارة بنك الاحتياط الفيدرالى، وهو المنصب الذى ظل يشغله حتى تقاعده فى عام ٢٠٠٦.

الاحتياط الفدرالي الآن. وكنت واثقاً من أنه وزملاءنا سوف يتخذون الخطوات الضرورية للحفاظ على تدفق النظام الدولاري العالمي.

ومع ذلك فإنه حتى وأنا أفكر في هذا الأمر شككت في كون ما في ذهن الخاطفين هو إرباك النظام المالي مادياً. فالأرجح إلى حد كبير أن ما عنوه بذلك أن يكون عملاً رمزياً للعنف ضد أمريكا الرأسمالية. مثل القنبلة التي فُجرت في جراج مركز التجارة العالمي قبل ذلك بثماني سنوات. وما شغلني هو ذلك الخوف الذي سيخلقه ذلك الهجوم. وخاصة إذا كانت هناك هجمات ستتلوه. ففي اقتصاد بالقدر الذي عليه اقتصادنا من تعقيد يُضطر الناس إلى التفاعل وتبادل السلع والخدمات باستمرار، وتقسيم العمل على قدر دقيق من الوضوح بحيث تعتمد كل أسرة معيشية على التجارة كي تحيا فحسب. وإذا انسحب الناس من الحياة الاقتصادية اليومية. أي إذا تخلص المستثمرون من أسهمهم، أو ابتعد رجال الأعمال عن التعاملات، أو بقي المواطنون في بيوتهم خوفاً من الذهاب إلى المراكز التجارية والتعرض للانتحاريين. فسوف يكون هناك تأثير كرة الثلج. فهذه هي النفسية التي تؤدي إلى حالات الفزع والكساد. ويمكن لصدمة كتلك التي تعرضنا لها للتو أن تُحدث انسحاباً ضخماً من النشاط الاقتصادي وانكماشاً كبيراً فيه. ويمكن للبؤس أن يتضاعف.

قبل أن تهبط طائرتي بوقت طويل، استنتجت أن العالم على وشك التغير على نحو لم يكن بإمكاني تحديده بعد. لقد تحطم ذلك الرضا بالذات الذي تبنيناه نحن الأمريكان طوال عقد من الزمان بعد انتهاء الحرب الباردة.

أخيراً وصلنا زيورخ بعد الثامنة والنصف مساءً بالتوقيت المحلي. وكان الوقت لا يزال عصراً في الولايات المتحدة. قابلني مسئولو البنوك السويسريون عندما خرجت من الطائرة واندفعوا بي إلى غرفة خاصة في صالة المغادرة. وهناك اقترحوا عرض فيلم يصور انهيار البرجين التوأم وحريق البنتاجون ولكني رفضت. لقد عملت في المنطقة التي بها مركز التجارة العالمي جزءاً كبيراً من حياتي وكان لي أصدقاء ومعارف هناك. وافترضت أن أعداد الموتى ستكون مرعبة وسوف تشمل أشخاصاً أعرفهم. لم أكن أرغب في رؤية الدمار. كنت أريد تليفوناً يعمل فحسب.

أخيراً وصلت إلى أندريه على تليفونها المحمول قبل التاسعة بدقائق معدودة، وشعرت براحة كبيرة لسماع صوتها. وما إن طمأن كل منا الآخر بأنه على ما يرام، قالت لي إنها لابد أن تسرع؛ فقد كانت في موقع التصوير وتوشك على الظهور على الهواء مع آخر أخبار أحداث اليوم. قلت: «أخبريني فحسب ماذا يحدث هناك».

كانت تمسك التليفون على إحدى أذنيها بينما منتج الأحداث الخاصة في نيويورك على السماعة التي في أذنها الأخرى يصرخ تقريباً قائلاً: «أندريه، توم بروكاو قادم إليك. هل أنتِ مستعدة؟» لم يكف ما لديها من وقت إلا لقولها «أنصت». وهنا وضعت التليفون المحمول مفتوحاً في حجرها وواجهت الكاميرات. لقد سمعت بدقة ما كانت أمريكا تسمعه في تلك اللحظة. لقد سقطت طائرة يونايتد فلايت، الرحلة رقم ٩٣، في بنسلفانيا.



استطعت في ذلك الحين الاتصال برودجر فرجسون في بنك الاحتياط الفدرالي. راجعنا معنا قائمة أزمات الإدارة، وكان كما توقعت تماماً مسيطراً على الأمور بدرجة كبيرة. وبما أن كل الرحلات المدنية المتجهة إلى الولايات المتحدة قد جرى إعادتها إلى الأرض، فقد اتصلت بأندي كارد، كبير موظفي البيت الأبيض طالباً منه إعادتي إلى واشنطن. وأخيراً عدت إلى الفندق يصاحبني أفراد الأمن المكلفون بحراستي، كي أنام قليلاً وأنتظر التعليمات.

عندما طلع النهار كنت محمولاً جواً من جديد على متن طائرة لنقل الوقود تابعة للقوات الجوية الأمريكية من طراز KC-١٠. ربما كانت الطائرة الوحيدة المتاحة. كان الطاقم معتاداً على طلعات إعادة تموين الطائرات بالوقود في الجو فوق المحيط الأطلسي. كانت الحالة المزاجية داخل الكابينة تتسم بالكآبة. قال لي قائد الطائرة: «لن تصدق هذا. انصت». وضعت أذني على السماعة ولكني لم أسمع سوى السكون. أوضح لي قائد الطائرة الأمر قائلاً: «في العادة يكون شمال الأطلسي مُكتظاً بالاتصالات اللاسلكية. وهذا السكون غامض وغريب». يبدو أنه لم يكن هناك أحد سوانا في الجو.

عندما اقتربنا من الواجهة البحرية الشرقية ودخلنا المجال الجوي المحظور للولايات المتحدة، قابلتنا مقاتلتان من طراز F١٦ وبقيتا في صحبتنا. وحصل قائد الطائرة على إذن بالتحليق فوق ما كان موقع البرجين التوأم في الطرف الجنوبي من مانهاتن، وكان في ذلك الحين حطاماً يتصاعد منه الدخان. طوال عقود من الزمان كانت المكاتب التي أعمل بها لا تبعد سوى بضع مربعات سكنية عن المكان؛ وفي أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن العشرين كنت أراقب البرجين يوماً بعد آخر وهما يرتفعان. أما الآن فحطامهما الذي يتصاعد منه الدخان هو أوضح معالم نيويورك من على ارتفاع خمسة وثلاثين ألف قدم.

ذهبت مباشرة إلى بنك الاحتياط الفدرالي بعد ظهر ذلك اليوم تصحبني الشرطة عبر الشوارع التي أقيمت بها المتاريس. ثم بدأت العمل.

كان تدفق الأموال الإلكتروني يسير سيراً حسناً معظم الوقت. ولكن بما أن الخطوط الجوية المدنية قد أوقفت، فقد تأخر نقل ومقاصة الشيكات على النظام القديم (النظام الورقي). وكانت تلك مشكلة تقنية. وهي مشكلة كبيرة، غير أن العاملين في كل فرع من فروع بنك الاحتياط الفدرالي قادرون تماماً على معالجتها بمد البنوك التجارية بمزيد من القروض على نحو مؤقت.

أمضيت معظم وقتي في الأيام التالية أراقب وأتسمع علامات أي بطء اقتصادي مفجع. فطوال سبعة أشهر قبل الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) كان الاقتصاد يعاني من كساد ضئيل جداً، حيث كان لا يزال ينفض عن نفسه آثار انهيار شركات الدوت كوم (تكنولوجيا المعلومات) في عام ٢٠٠٠. ولكن الأمور بدأت تعود سيرتها الأولى. فقد خفضنا أسعار الفائدة، وبدأت الأسواق في الاستقرار. وفي أواخر أغسطس (آب) انتقل الاهتمام العام من الاقتصاد إلى جاري كونديت عضو الكونجرس عن كاليفورنيا الذي سيطرت تصريحاته، التي لا تتسم بالصراحة التامة بشأن فقدان إحدى الشابات، على نشرات الأخبار المسائية. ولم تستطع أندريه الظهور على الهواء بأي شيء ذي أهمية عالمية، وأتذكر التفكير في النحو الذي بدا عليه ذلك غير معقول. إذ لابد أن يكون العالم في حالة جيدة إلى حد كبير إذا كانت أخبار التليفزيون تركز بشكل أساسي على فضيحة محلية. وداخل بنك الاحتياط الفدرالي كانت أكبر مشكلة نواجهها هي مقدار تخفيض أسعار الفائدة.

بعد الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) كانت التقارير والإحصاءات المتدفقة من فروع بنك الاحتياط الفدرالي تحكي قصة مختلفة إلى حد كبير. فمنظومة بنك الاحتياط الفدرالي تضم اثني عشر فرعاً موزعة على مواقع استراتيجية في أنحاء البلاد. وكان كل منها يقرض الأموال وينظم البنوك في منطقته. كما كانت فروع بنك الاحتياط الفدرالي كذلك نافذة على الاقتصاد الأمريكي. إذ كان الموظفون والعاملون على اتصال مستمر مع رجال البنوك ورجال الأعمال في مناطقهم، وكانت المعلومات التي يجمعونها بشأن أوامر الشراء وصفقات المبيعات تسبق البيانات الرسمية المنشورة بشهر على الأقل.



ما يخبروننا به الآن هو أن الناس في أنحاء البلاد توقفوا عن إنفاق أموالهم على كل شيء ما عدا الأصناف التي تُشترى استعداداً لهجمات أخرى محتملة: مبيعات البقالة، وأجهزة السلامة، وزجاجات المياه، كما زاد الإقبال على شراء وثائق التأمين، بينما انخفض ما يُنفق على السفر والترفيه والفنادق والسياحة وصناعة المؤتمرات. وعلمنا أن شحن الخضروات الطازجة من الساحل الغربي إلى الساحل الشرقي سيوقفه تعليق الشحن الجوي، ولكننا دُهشنا إلى حد ما من الطريقة السريعة التي أُضيرت بها أعمال أخرى. فعلى سبيل المثال، تباطأ بشدة تدفق أجزاء السيارات من وندسور وأونتاريو إلى مصانع دترويت من خلال المعابر النهرية التي تربط المدينتين. فكان ذلك أحد العوامل وراء قرار شركة فورد موتور إغلاق خمسة من مصانعها بشكل مؤقت. وقبل ذلك بسنوات تحول الكثير من المصانع إلى الإنتاج «أولا بأول» بدلاً من تخزين الأجزاء واللوازم في المصنع، وكانت تعتمد على الشحن الجوي في تسليم المكونات المهمة عند احتياجها. وأدى إغلاق المجال الجوي وتقييد حركة النقل على الحدود إلى حدوث النقص والاختناقات وإلغاء نوبات العمل.

في الوقت نفسه كانت الحكومة الأمريكية قد زادت من حركتها. ففي يوم الجمعة الرابع عشر من سبتمبر (أيلول) وافق

الكونجرس على تخصيص مبلغ مبدئي للطوارئ مقداره ٤٠ مليار دولار وخول الرئيس سلطة استخدام القوة ضد «الدول أو المنظمات أو الأشخاص» الذين هاجمونا. وحشد الرئيس بوش البلاد بما يرجح أن يكون أكثر خطبه فاعلية خلال فترة رئاسته. فقد قال «إن الهجوم يستهدف أمريكا لأننا ألمع علامات الحرية وفرص التقدم في العالم. ولن يمنع أحد هذا الضياء من أن يسطع». وازدادت معدلات شعبيته لتصل إلى ٨٦ بالمائة، وأصبحت السياسة مشاركة بين الحزبين، ولو لفترة قصيرة. وكانت أفكار كثيرة تتدفق على الكابيتول هيل «الكونجرس» من أجل مساعدة البلاد على العودة إلى ما كانت عليه. وكانت هناك خطط شملت ضخ أموال إلى شركات الطيران والسياحة والترويح. كما كانت هناك مجموعة كبيرة من المقترحات لتخفيض الضرائب عن الأعمال التجارية لتشجيع الاستثمار الرأسمالي. ونوقش التأمين ضد الإرهاب كثيراً. كيف نؤمن ضد تلك الأحداث المفجعة، وما هو دور الحكومة في ذلك، إن كان لها دور في ذلك؟

ظننت أنه من الملح عودة الطيران التجاري للتحليق كي نجهض كل الآثار السلبية المنتشرة. (وافق الكونجرس بسرعة على مشروع قانون لإنقاذ النقل بمبلغ ١٥ مليار دولار). ولكن فيما عدا ذلك كنت أعير قدراً أقل من الاهتمام لمعظم تلك المناقشات، لأنني كنت عازماً على رؤية الصورة الأكبر. وهي التي لم تكن واضحة لي بعد. كنت مقتنعاً بأن الحل لا يكمن في الخطوات الكبيرة المتعجلة باهظة التكاليف. فالعادة هي أن أوقات الطوارئ القومية الكبيرة هي التي يشعر فيه كل عضو من أعضاء الكونجرس أن عليه التقدم بمشروع قانون؛ ويشعر الرؤساء بالضغط كي يعملوا كذلك. وفي ظل تلك الظروف يمكن أن تحصل على سياسات قصيرة النظر وغير فعالة، بل وذات أثر عكسي كذلك، مثل تقنين البنزين الذي فرضه الرئيس نيكسون أثناء صدمة بترول أوبك الأولى في عام ١٩٧٣. (أدت تلك السياسة إلى ظهور طوابير الحصول على البنزين في بعض أنحاء البلاد في ذلك الخريف). ولكن من خلال خبرة أربعة عشر عاماً من عملي كرئيس لبنك الاحتياط الفدرالي رأيت فيها الاقتصاد وهو يخرج سالماً من أزمات كثيرة. بما في ذلك أكبر انهيار ليوم واحد في تاريخ سوق الأوراق المالية، وهو ما حدث بعد خمسة أسابيع من تولية منصبي. وخرجنا سالمين من الانتعاش والكساد العقاريين في ثمانينيات القرن العشرين، وأزمة المدخرات والقروض، والاضطرابات المالية الآسيوية، ناهيك عن كساد ١٩٩٠. لقد تمتعنا بأطول فترة انتعاش لسوق الأوراق المالية في التاريخ ثم خرجنا سالمين من انهيار شركات تكنولوجيا المعلومات الذي أعقب ذلك. وأخذت شيئاً فشيئاً أعتقد أن أعظم قوى الاقتصاد الأمريكي تكمن في قدرته على التعافي. أي قدرته على استيعاب التمزقات والشفاء منها، وهو ما يكون غالباً على نحو وبسرعة لا يمكن التكهن بهما، ناهيك عن كون ذلك أمراً لابد منه. ومع ذلك ففي هذا الظرف المرعب لم يكن هناك من سبيل لمعرفة ما سوف يحدث.



ظننت أن أفضل استراتيجية هي المراقبة والانتظار إلى أن نفهم على وجه الدقة ما سوف تكون عليه النتائج اللاحقة للحادي عشر من سبتمبر (أيلول). وهذا هو ما قلته لقيادات الكونجرس في اجتماع عقد بمكتب رئيس المجلس بعد يوم التاسع عشر من سبتمبر (أيلول). فقد اجتمع كل من رئيس المجلس دينيس هاسترت، وزعيم الأقلية بمجلس النواب ديك جيفارت، وزعيم الأغلبية بمجلس الشيوخ ترينت لوت، وزعيم الأقلية بمجلس الشيوخ توم داشل، بالإضافة إلى بوب روبين وزير الخزانة السابق في حكومة كلينتون، والمستشار الاقتصادي بالبيت الأبيض لاري ليندسي في غرفة اجتماعات عادية ملحقة بمكتب هاسترت في الجزء الخاص بمجلس النواب بالكابيتول هيل. وكان أعضاء الكونجرس يرغبون في سماع تقديرات الأثر الاقتصادي للهجمات من ليندسي، وروبين، ومني. وكانت هناك جدية كبيرة في متابعة النقاش. فلم يكن هناك استعراض. (أذكر أنني قلت لنفسي إن هذه هي الطريقة التي ينبغي أن تعمل بها الحكومة.)



عرض ليندسي الفكرة التي تقول إنه بما أن الإرهابيين وجهوا ضربة للثقة الأمريكية فإن أفضل طريقة للرد هي خفض الضرائب. وأبدى هو وآخرون تأييدهم لضخ حوالي ١٠٠ مليار دولار في الاقتصاد بأسرع ما يمكن. ولم يفزعني الرقم. فهو يساوي واحد بالمائة من المخرج السنوي الإجمالي للبلاد. ولكني قلت لهم إنه ليست لدينا طريقة بعد لمعرفة ما إذا كان مبلغ المائة مليار أكثر من اللازم أو أقل من اللازم. ومع ذلك فقد تأثر مجالا الخطوط الجوية والسياحة تأثراً شديداً، وامتلأت الصحف بأخبار عن كل أنواع الاستغناء عن العاملين. إلا أن ما يدعو للدهشة أنه في يوم السابع عشر من سبتمبر (أيلول) نجحت سوق نيويورك للأوراق المالية (البورصة) في إعادة فتح أبوابها، وهي الواقعة على بعد ثلاثة مربعات سكنية من المنطقة صفر (موقع مركز التجارة العالمي). وكانت تلك خطوة مهمة لأنها أعادت الإحساس بالطبيعية إلى النظام. فقد كانت تلك بقعة مضيئة في الصورة التي كنا لا نزال نعيد تجميع أجزائها في بنك الاحتياط الفدرالي. وفي الوقت نفسه استرد نظام الدفع بالشيكات عافيته، ولم تتداع البورصة؛ إذ انخفضت الأسعار فحسب ثم استقرت، وهو مؤشر على أن معظم الشركات لم يكن يتعرض لمشاكل خطيرة. قلت لهم إن المسار الحكيم هو الاستمرار في وضع الخيارات على أن نلتقي مرة أخرى بعد أسبوعين، حيث نكون قد عرفنا المزيد.

أبلغت الرسالة نفسها في صباح اليوم التالي في جلسة استماع عامة بلجنة البنوك بمجلس الشيوخ، ناصحاً بالصبر: «ليس لدى أحد القدرة على أن يحدد بشكل تام ما سوف تسفر عنه مأساة الحادي عشر من سبتمبر (أيلول). إلا أنه في الأسابيع المقبلة، عندما تخف الصدمة، سوف نكون قادرين على أن نحدد بشكل أفضل الطريقة التي تشكل بها الديناميكيات المستمرة لهذه الأحداث النظرة الاقتصادية المباشرة». كما قلت مؤكداً: «على مدى العقدين الماضيين أصبح الاقتصاد الأمريكي قادراً إلى حد كبير على تحمل الصدمات. فقد حسنت الأسواق المالية المحررة من القيود، وأسواق العمل الأكثر مرونة، ومؤخراً ذلك التقدم الذي شهدته تكنولوجيا المعلومات، قدرتنا على استيعاب التمزقات والتعافي منها».

الواقع أنني كنت أحاول تجميل الوضع أكثر من خوفي مما قد يكون عليه الحال. فكشأن معظم من هم في الحكومة، كنت أتوقع إلى حد كبير المزيد من الهجمات. ولكن هذا الشعور مسكوت عنه في العلن، ولكن يمكنك رؤيته في أغلبية تصويت مجلس الشيوخ: ٩٨-٠ لمصلحة تخويل سلطة استخدام القوة ضد الإرهابيين، و١٠٠-٠ لمشروع قانون سلامة الطيران. وقد كنت مهموماً بشكل خاص بشأن سلاح الدمار الشامل، الذي قد يكون جهازاً نووياً استولي عليه من الترسانة السوفيتية أثناء فوضى انهيار اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. فكرت كذلك في تلويث مستودعاتنا. ومع ذلك فقد اتخذت في أحاديثي المذاعة أو المنشورة موقفاً أقل تشاؤماً، لأنني إذا عبرت بشكل تام عما أظنها الاحتمالات فسوف أخيف الأسواق بشدة. ومع ذلك كنت أدرك أنني ربما لا أخدع أحداً؛ فسوف يسمعني الناس في الأسواق ويقول الواحد منهم «أمل بكل تأكيد أن يكون على حق».



في أواخر سبتمبر (أيلول) جاءت أصعب المعلومات. إذ من العادة أن يكون أول مؤشر واضح لما يحدث للاقتصاد هو عدد المطالبات الجديدة بإعانة البطالة، وهي الإحصاءات التي تجمعها وزارة العمل كل أسبوع. وبالنسبة للأسبوع الثالث من الشهر بلغت المطالبات ٤٥٠ ألفاً بزيادة قدرها حوالي ١٣ بالمائة عن مستواها في أواخر أغسطس (آب). وأكد الرقم مدى خطورة المصاعب التي نراها في التقارير الإخبارية بشأن الأشخاص الذين فقدوا وظائفهم. وقد تخيلت هؤلاء الآلاف من عمال الفنادق والمنتجعات وغيرهم في حالة لا يعرفون فيها كيف سيعيلون أنفسهم وأسرهم. وكنت على وشك الوصول إلى رأي مفاده أن الاقتصاد لن يعود سيرته الأولى بسرعة. ذلك أن الصدمة كانت من الشدة بحيث يجد حتى أكثر الاقتصادات مرونة صعوبة في التعامل معها.

كشأن غيرهم من المحللين، كان الخبراء الاقتصاديون في بنك الاحتياط

ظننت أن أفضل استراتيجية هي المراقبة والانتظار إلى أن نفهم على وجه الدقة ما سوف تكون عليه النتائج اللاحقة للحادي عشر من سبتمبر



الفدرالي يتطلعون إلى حزم الإنفاق وتخفيضات الضرائب المقترحة، والأعداد المرتبطة بها. وقد حاولنا في كل حالة التعامل مع التفاصيل لرصد ترتيب الحجم. ومن اللافت للانتباه أنها جميعاً داخل إطار المائة مليار دولار، وهو اقتراح لاري ليندسي المبدئي.

اجتمعنا مرة أخرى في غرفة اجتماعات هاسترت يوم الأربعاء الثالث من أكتوبر (تشرين الأول) كي نتحدث من جديد عن الاقتصاد. وكان أسبوع آخر قد مر وازداد عدد مطالبات إعانة البطالة الأولية سوءاً. إذ تقدم ٥١٧ ألف شخص آخر للحصول على إعانة البطالة. وفي ذلك الوقت كنت قد اتخذت قراري. فبينما كنت لا أزال أتوقع المزيد من الهجمات، لم تكن هناك طريقة لمعرفة مقدار ما قد تسببه من دمار أو كيفية حماية الاقتصاد مقدماً. أخبرت المجموعة أن الوقت قد حان بالفعل لأن يكون هناك محفز مصطنع. وما بدا صحيحاً تقريباً هو حزمة إجراءات بناءً على المائة مليار دولار. وهو مبلغ كاف، إلا أنه ليس كبيراً بحيث يحفز الاقتصاد على نحو بالغ التأثير ويجعل أسعار الفائدة ترتفع. وبدا أن المشرعين موافقون.

عدت إلى بيتي في تلك الليلة وأنا أظن أن كل ما فعلته كان واضحاً ويعزز الإجماع: فقد صدر رقم المائة مليار دولار من لاري أولاً. وهكذا أدهشني أن أقرأ الرواية الإعلامية للاجتماع، حيث جعلت الأمر يبدو تقريباً كأنني كنت أدير المسألة كلها. وبينما كان من المشجع سماع أن الكونجرس والإدارة ينصتان لي، فقد وجدت أن تلك التقارير الصحفية مثيرة للقلق. إذ لم أكن في يوم من الأيام مستريحاً بالكامل لأن يعطي لي دور الشخص الذي يحدد السياسة. فمنذ سنوات حياتي المبكرة كنت أنظر إلى نفسي على أني خبير يعمل من وراء الكواليس، ومنفذ للأوامر وليس قائداً. وقد تطلب الأمر حدوث أزمة سوق الأوراق المالية في عام ١٩٨٧ كي أشعر بالراحة وأنا أتخذ قرارات سياسية مهمة. ولكنني لا أشعر حتى يومنا هذا بالراحة عندما أكون في دائرة الضوء. فأنا لست منبسط الشخصية.

كانت المفارقة بالطبع هي أنه بالرغم من قدرتي الإقناعية المفترضة فلم يتحقق شيء في الأسابيع التالية للحادي عشر من سبتمبر (أيلول) على النحو الذي توقعته. وربما كان توقع حدوث هجوم إرهابي آخر هو أسوأ ما تكهنت به. كما أن «المحفز المصطنع» المفترض أنني أعطيته الضوء الأخضر لم يحدث. إذ غاص في وحل السياسة ولم يقو على الحركة. والحزمة التي ظهرت في نهاية الأمر في مارس (آذار) من عام ٢٠٠٢ لم تكن متأخرة شهوراً عن موعدها فحسب، بل لم يكن بإمكانها عمل الكثير من أجل الرفاه العام. لقد كانت فوضى مربكة من المشروعات التي تفيد دوائر بعينها.

ومع ذلك فقد صحح الاقتصاد نفسه. إذ استعاد الإنتاج الصناعي عافيته في نوفمبر (تشرين الثاني)، بعد شهر واحد فحسب من الانخفاض البسيط. وبحلول ديسمبر (كانون الأول) كان الاقتصاد ينمو من جديد، وتراجع عدد مطالبات إعانة البطالة ليستقر عند معدله قبل الحادي عشر من سبتمبر (أيلول). وكان لبنك الاحتياط الفدرالي يد في هذا، غير أن ذلك لم يتم إلا من خلال زيادة ما كنا نقوم به قبل الحادي عشر من سبتمبر (أيلول)، حيث خفض البنك أسعار الفائدة كي ييسر على الناس الاقتراض والإنفاق.

لم يكن يهمني رؤية توقعاتي لم تتحقق، لأن استجابة الاقتصاد الملحوظة لما بعد الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) كانت دليلاً على حقيقة مهمة إلى حد بعيد: وهي أن اقتصادنا أصبح على قدر كبير من مقاومة الصدمات. فما قلته بقدر كبير من التفاؤل للجنة البنوك بمجلس الشيوخ تحقق. وبعد تلك الأسابيع الأولى الرهيبة، استعادت الأسر المعيشية والأعمال التجارية الأمريكية عافيتها. فما الذي ولد تلك الدرجة غير المسبوقة من المرونة الاقتصادية؟ كان هذا هو السؤال الذي سألته لنفسي.



يحاول الاقتصاديون منذ أيام آدم سميث الإجابة عن أسئلة كهذا السؤال. فنحن نظن أننا مشغولون اليوم بمحاولة فهم اقتصادنا المعولم. ولكن سميث كان عليه أن يخترع الاقتصاد من الصفر تقريباً كطريقة يحسب بها حساب تطور اقتصادات السوق المعقدة في القرن الثامن عشر. وأنا لست آدم سميث، غير أني لي الفضول نفسه بشأن فهم القوى العريضة التي تحدد عصرنا.

هذا الكتاب إلى حد ما قصة بوليسية. فقد عرفت بعد الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) أننا نعيش في عالم جديد: هذا إن كنت بحاجة إلى المزيد لتعزيز هذه المعلومة. فذلك هو العالم ذو الاقتصاد الرأسمالي العالمي الذي يتسم بقدر من المرونة ومقاومة الصدمات والانفتاح وتصحيح نفسه وسرعة التغير، يزيد عما كان عليه الحال قبل ربع قرن من الآن. وهو أيضاً ذلك العالم الذي يتيح لنا إمكانيات جديدة ضخمة بينما يفرض علينا في الوقت ذاته تحديات جسام. إن «عصر الاضطراب» هو محاولتي لفهم طبيعة هذا العالم الجديد: كيف وصلنا إلى ما نحن عليه، وما الذي نعيشه، وما الذي يوجد هناك وراء الأفق، خيراً كان أم شراً. وحينما يسمح الحال، فإنني أنقل فهمي في سياق تجربتي. وأنا أفعل ذلك من باب الإحساس بالمسئولية تجاه السجل التاريخي، لكي يعرف القراء من أين



أتيت. ولهذا السبب ينقسم الكتاب إلى نصفين: النصف الأول هو سعيي لتتبع قوس منحنى تعلمي، والنصف الثاني جهد أكثر موضوعية لاستخدام ذلك كأساس أقيم عليه إطاراً مفاهيمياً لفهم الاقتصاد العالمي الجديد. وفي الطريق أستكشف العناصر النقدية للبيئة العالمية الناشئة: أي مبادئ حكمها التي نشأت عن عصر التنوير في القرن الثامن عشر، وبنية الطاقة التحتية الشاسعة التي تشغلها، والاختلالات المالية العالمية والتغيرات الضخمة في الديموجرافيا العالمية التي تهددها، والانشغال المزمن بشأن عدالة توزيع مكافآتها بالرغم من نجاحها الذي لا يشك فيه أحد. وأخيراً فإنني أجمع ما يمكن أن نفترضه على نحو معقول بشأن تركيبة الاقتصاد العالمي في عام ٢٠٣٠.

وأنا لا أدعي معرفة الحلول كلها. إلا أنه كانت لي من موقعي الإشرافي في بنك الاحتياط الفدرالي ميزة الوصول إلى أفضل ما كان يظن ويقال فيما يتعلق بقدر شاسع من الموضوعات. ذلك أنه كان بإمكاني الوصول إلى مجال الأدبيات العريض الذي يعالج الكثير من المشاكل التي كان علي وعلى زملائي في البنك أن نتصارع معها كل يوم. وبدون العاملين في بنك الاحتياط الفدرالي ما كان لي أن أتعامل بحال من الأحوال مع ذلك الكم الهائل من الإنتاج الأكاديمي، الذي كان البعض منه متميزاً والبعض الآخر يبعث على الملل. كما كانت لي ميزة استدعاء واحد أو أكثر من الاختصاصيين الاقتصاديين في مجلس إدارة بنك الاحتياط الفدرالي وسؤاله عن العمل الأكاديمي الخاص بالاهتمام الحالي أو القديم. وكنت أتلقى بعد قليل تقييمات مفصلة للآراء المؤيدة والمعارضة بشأن أي موضوع بالفعل، من أحدث ما وضع من النماذج الرياضية لتقييم تجاهل المخاطر إلى ظهور كليات منح الأراضي في الغرب الأوسط الأمريكي. ولم يمنعني شيء وأنا أحاول الوصول إلى الافتراضات الشاملة بعض الشيء.

غير عدد من القوى العالمية العالم كما نعرفه، شيئاً فشيئاً وعلى نحو خفي تقريباً. وكان الأكثر وضوحاً لمعظمنا هو التحول المتزايد للحياة اليومية بواسطة التليفون المحمول، وأجهزة الكمبيوتر الشخصي، والبريد الإلكتروني، وأجهزة البلاكبيري، وشبكة الإنترنت. وأدى استكشاف صفات السيليكون الإلكترونية بعد الحرب العالمية الثانية إلى صنع المعالج متناهي الصغر، وعندما اتحدت الألياف البصرية مع أشعة الليزر وأحدثت الأقمار الصناعية ثورة في قدرات الاتصالات، رأى الناس من پكين في ولاية إلينوي إلى بكين في الصين حياتهم تتغير. وأصبح بإمكان نسبة كبيرة من سكان العالم الحصول على التكنولوجيات التي لم يكن تخيلها ممكناً في بداية حياتي العملية الطويلة في عام ١٩٤٨ إلا في سياق الخيال العلمي. ولم تفتح هذه التكنولوجيات الجديدة أفقاً جديداً تماماً من الاتصالات منخفضة التكلفة فحسب، بل يسرت كذلك حدوث تقدم كبير في التمويل وحسنت إلى حد بعيد قدرتنا على توجيه المدخرات النادرة إلى الاستثمارات الرأسمالية الإنتاجية، التي تعد ممكناً مهماً للعولمة والازدهار اللذين يتسعان بسرعة.

قلت الحواجز الجمركية في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية نتيجة لاعتراف عام بأن النزعة الحمائية قبل الحرب أدت

إلى هبوط سريع للتجارة. وكان ذلك تصحيحًا لتقسيم العمل الدولي الذي أسهم في الانهيار الفعلي للنشاط الاقتصادي العالمي. فقد ساعد تحرير التجارة بعد الحرب العالمية على إتاحة موارد تمويل جديدة؛ واقترن ذلك بإنشاء مؤسسات ومنتجات مالية جديدة (جعلتها التكنولوجيات القائمة على السليكون إلى حد ما ممكنة)، ويسَّر الانطلاق نحو رأسمالية السوق العالمية حتى خلال سنوات الحرب الباردة. وفي ربع القرن التالي ساعد تبني رأسمالية السوق الحرة على تثبيت التضخم وجعل أسعار الفائدة في أنحاء العالم من عدد واحد.

كانت اللحظة الحاسمة في اقتصادات العالم هي سقوط سور برلين في عام ١٩٨٩، مما كشف عن حالة من الخراب الاقتصادي وراء الستار الحديدي تزيد كثيرًا على توقعات أكثر الاقتصاديين الغربيين معرفةً. فقد انكشف التخطيط المركزي باعتباره فشلاً لا يمكن إصلاحه؛ وقد اقترن به ودعمه الوهم المتزايد بشأن السياسات الاقتصادية التدخلية الخاصة بالديمقراطيات الغربية، وبدأت رأسمالية السوق استبدال تلك السياسات بهدوء في جزء كبير من العالم. ولم يعد التخطيط المركزي موضع جدل ونقاش. ولم يعد هناك وجود لتلك الخطب التي تكيل له الثناء والمديح. فقد سقط من أجندة العالم الاقتصادية، ما عدا في كوريا الشمالية وكوبا.

لم يحدث فحسب أن تبنت اقتصادات الكتلة السوفيتية السابقة أساليب رأسمالية السوق، بعد فترة من الفوضى، بل تبناها كذلك ما كان يُعرف من قبل بالعالم الثالث. وهو تلك الدول التي التزمت بالحياد في الحرب الباردة ولكنها مارست التخطيط المركزي أو كانت على قدر من التنظيم جعلها تصل إلى الشيء نفسه. أما الصين التي كانت قد مالت إلى رأسمالية السوق في عام ١٩٧٨، فقد سرَّعت تحرك قوتها العاملة الضخمة شديدة التنظيم، وكان عددها في ذلك الحين ٥٠٠ مليون شخص، نحو مناطق التجارة الحرة في دلتا نهر اللؤلؤ.

كان تحول الصين في اتجاه حماية حقوق ملكية الأجانب، بما اتسم به من براعة، من الضخامة بحيث أحدث انفجارًا حقيقيًا في الاستثمار الأجنبي المباشر في الصين بعد عام ١٩٩١. ومن مستوى ٥٧ مليون دولار في عام ١٩٨٠، ارتفع الاستثمار الخارجي المباشر ارتفاعًا كبيرًا ليصل إلى ٤ مليارات دولار في عام ١٩٩١، ثم تسارع الارتفاع بمعدل زيادة مقداره ٢١ بالمائة حيث بلغ ٧٠ مليار دولار في عام ٢٠٠٦. وأسفر الاستثمار مقرونًا بوفرة العمالة الرخيصة عن توليفة قوية مارست ضغطًا لأسفل على الأجور والأسعار في أنحاء العالم المتقدم. وفي وقت سابق كانت ما تسمى النمور الآسيوية الأصغر حجمًا بكثير، وخاصةً كوريا الجنوبية وهونج كونج وسنغافورة وتايوان، قد تقدمت المسيرة باستغلالها تكنولوجيات البلدان المتقدمة في رفع مستويات المعيشة بها ارتفاعًا حادًا من خلال الصادرات إلى الغرب.



فاق معدل النمو الاقتصادي لتلك البلدان ولكثير غيرها من الدول النامية معدل النمو في أي مكان آخر. وكانت النتيجة تحويل حصة كبيرة من إجمالي الناتج المحلي في العالم إلى العالم النامي، وهو الاتجاه الذي تفشت آثاره على نحو ضخم. وكان لدى الدول النامية في العادة معدلات ادخار أعلى بكثير مما لدى الدول الصناعية. وهو ما يعود إلى حد ما إلى أن شبكات السلامة الاجتماعية في الدول النامية أضعف، ولذلك كان من الطبيعي أن توفر الأسر المعيشية أموالاً أكثر لأوقات الحاجة والتقاعد. (كان لعوامل أخرى دور كذلك. ففي غياب الثقافات الاستهلاكية الراسخة، على سبيل المثال، كان لدى الأسر المعيشية ميل أقل نحو الإنفاق). وكان تحول حصص العالم من إجمالي الناتج المحلي منذ عام ٢٠٠١ من الدول المتقدمة منخفضة الادخار إلى الدول النامية مرتفعة الادخار قد زاد الادخار العالمي بشكل كبير بحيث تجاوز النمو الكلي للمدخرات في أنحاء العالم الاستثمارات المخططة إلى حد كبير. ولابد أن نفترض أن عملية السوق قد دفعت أسعار الفائدة (أسعار الفائدة الاسمية والحقيقية) على نحو بارز إلى الانخفاض. أو بعبارة أخرى، زاد عرض الأموال الباحثة عن عائد على الاستثمار بسرعة تفوق سرعة طلب المستثمرين.

ساعدت الزيادة الواضحة في المدخرات، مقرونة بالعولمة والزيادة التي تحركها التكنولوجيا في الإنتاجية وانتقال القوى العاملة من الاقتصادات المخططة مركزيًا إلى الأسواق التنافسية، على كبح جماح أسعار الفائدة الحقيقية والاسمية ومعدلات التضخم بالنسبة للدول المتطورة والدول النامية كلها في واقع الأمر. وهذا هو السبب في أن معدلات التضخم السنوية في كل مكان تقريبًا (باستثناء واضح لكل من فنزويلا وزيمبابوي وإيران) من عدد واحد في الوقت الراهن. وهذه واحدة من المرات القليلة، وربما المرة الوحيدة، التي حدث فيها ذلك منذ التخلي عن قاعدة الذهب وتبني العملات الورقية في ثلاثينيات القرن العشرين. والأمر المُذهل إلى حد كبير بشأن هذه المجموعة من القوى هو أنها تجمعت كلها في بداية القرن الحادي والعشرين. ولم تكن سياسات البنوك المركزية النقدية المسبب الأساسي للانخفاض المستمر للتضخم وأسعار الفائدة طويلة المدى، غير أننا معشر رجال البنوك المركزية اخترنا تعديل سياساتنا لتحقيق أكبر قدر ممكن من الفوائد طويلة المدى لتلك التحولات التكتونية في التمويل العالمي. إلا أنه لأسباب سوف أعرض خطوطها العامة فيما بعد ليس من المرجح أن يدوم أي من تلك القوى. ومن الصعب كبح جماح التضخم في عالم العملات الورقية.

ارتبط انخفاض أسعار الفائدة الحقيقية طويلة المدى الذي حدث في العقدين الماضيين بنسب السعر إلى الأرباح الخاصة بالأوراق المالية والعقارات، بل وكل الأصول التي تحقق أرباحًا. وقد ارتفعت القيمة السوقية للأصول في أنحاء العالم فيما بين ١٩٨٥ و٢٠٠٦ بسرعة تزيد على إجمالي الناتج المحلي الاسمي (كانت الفترة ٢٠٠١-٢٠٠٢ استثناءً ملحوظًا). وخلق ذلك زيادة كبيرة في السيولة العالمية. وانضم إلى الانتعاش أسعار الأسهم والسندات، والمنازل، والعقارات التجارية، واللوحات الزيتية، ومعظم الأشياء الأخرى. واستطاع أصحاب المنازل في كثير من الدول المتطورة الحصول على أموال من أرباح منازلهم المتزايدة لتمويل مشتريات تعدت ما يمكن لدخولهم أن تموله. وامتص إنفاق الأسر المعيشية المتزايد، وخاصةً في الولايات المتحدة، جزءًا كبيرًا من موجة الصادرات من العالم النامي المتوسع بسرعة. وجاء في مجلة «إيكونوميست» في نهاية عام ٢٠٠٦: «بما أن الاقتصاد العالمي يزيد بمعدل سنوي مقداره ٢,٣٪ للفرد منذ عام ٢٠٠٠، فقد قطع الاقتصاد العالمي ما يزيد على نصف الطريق نحو إنجاز أفضل عقوده. وإذا ما استمر على تقدمه في هذه الفترة فسوف يتقدم على عقدي الخمسينيات والستينيات المفترض أنهما ممتازان من كل الأوجه. ويبدو أن رأسمالية السوق، وهي المحرك الذي يدير معظم الاقتصاد العالمي، تؤدي وظيفتها على نحو جيد». وهذه التطورات في مجملها موسعة وإيجابية. إذ انتشل رد الاعتبار للأسواق المفتوحة والتجارة الحرة خلال ربع القرن المنصرم مئات كثيرة من ملايين سكان العالم من الفقر. ولابد من الاعتراف بأن كثيرين غيرهم في أنحاء العالم لا يزالون يعانون من الحاجة، غير أن شرائح كبيرة من سكان الدول النامية باتت تنعم بقدر من الثراء، الذي ظل زمنًا طويلاً حكرًا على البلدان المتقدمة.



إذا كان لقصة ربع القرن المنقضي حبكة أحادية الخط فهي اكتشاف قوة رأسمالية السوق. فبعد إجبار رأسمالية السوق على التراجع نتيجة لهزيمتها في ثلاثينيات القرن العشرين وما أعقب ذلك من توسع في تدخل الدولة خلال الستينيات، عادت للظهور من جديد ببطء كقوة فعالة، حيث بدأت بداية حثيثة في السبعينيات إلى أن باتت تنتشر الآن في كل أنحاء العالم تقريبًا بدرجة تزيد أو تقل من مكان لآخر. وعزز انتشار حكم القانون التجاري، وخاصةً حماية حقوق الملكية، النشاط الاستثماري العالمي. وأدى هذا بدوره إلى خلق المؤسسات التي ترشد حاليًا في الخفاء قسمًا يتزايد باستمرار من النشاط البشري. وتلك هي النسخة الدولية من «اليد الخفية» عند آدم سميث.

قلَّت نتيجة لذلك سيطرة الحكومات على حياة مواطنيها اليومية؛ وشيئًا فشيئًا حلَّتْ قوى السوق محل بعض سلطات الدولة المهمة. كما تم القضاء على جزء كبير من التنظيم الذي يدعو إلى فرض قيود على الحياة التجارية. وخلال السنوات الأولى التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، كانت تدفقات رأس المال تخضع للمراقبة، وكانت أسعار صرف العملات تخضع لتقديرات وزراء الخزانة. وكان التخطيط المركزي منتشرًا في كل من العالمين النامي والمتقدم، بما في ذلك بقايا التخطيط الموجَّه الذي لا يزال بارزًا في أوروبا. وكان الشيء المُسلَّم به هو أن

لا يمكن للاقتصاديين تحاشي كونهم دارسين للطبيعة البشرية، وخاصة الحماسة الفياضة والخوف. والحماسة الفياضة احتفاء بالحياة



الأسواق تحتاج إلى إرشاد حكومي كي تعمل بكفاءة.

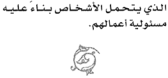
في اجتماعات منتصف سبعينيات القرن العشرين للجنة السياسة الاقتصادية التابعة لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية التي تضم واضعي السياسات من أربعة وعشرين بلداً، كان هانز تيتماير من ألمانيا الغربية وأنا فقط هما من يضغطان من أجل وضع سياسة تقوم على السوق. وكنا أقلية ضئيلة جداً في لجنة كبيرة جداً. وكانت آراء جون مينارد كينز الاقتصادي البريطاني العظيم، التي حلت محل آراء آدم سميث واقتصاده الكلاسيكي عندما لم يتبع الكساد العظيم في ثلاثينيات القرن العشرين نموذج سميث الخاص بالطريقة التي كان من المفترض أن تتصرف بها الاقتصادات. وقدم كينز إجابة رائعة من الناحية الرياضية للسؤال الخاص بسبب ركود الاقتصاد العالمي وكيفية إحداث الإنفاق للإنعاش الفوري للعجز الحكومي. وكانت النزعة التدخلية الخاصة بكينز نموذجاً مهيمناً بصورة ساحقة في منتصف السبعينيات، مع أنه كان من الواضح أنها على حافة الانهيار. وكان الإجماع داخل لجنة السياسات الاقتصادية هو أن السماح للسوق بتحديد الأجور أمر غير مناسب ولا يعول عليه ولابد من إلحاقه بـ«سياسات الدخل». وكانت تلك السياسات تختلف من بلد لآخر، ولكنها كانت تحدد القواعد الإرشادية للمفاوضات الخاصة بالأجور بين النقابات، التي كانت أكثر انتشاراً وأشد قوةً مما هي عليه الآن بكثير، وبين الإدارة. وكانت سياسات الدخول دون مستوى قيود الأجور والأسعار المكتملة بحيث بدت اختيارية على نحو واضح. ومع ذلك فقد كانت القواعد الإرشادية تدعمها بصورة عامة أدوات الحكومة التنظيمية التي كانت تُستخدم لـ«إقناع» من يخالفون الأوامر. وعندما كانت تلك السياسات تفشل، غالباً ما يصبح الحل هو القيود الرسمية المفروضة على الأجور والأسعار. وكانت القيود المفروضة على الأجور والأسعار المشئومة، رغم تمتعها بشعبية ضخمة في البداية في عهد الرئيس نيكسون عام ١٩٧١، من بين آخر آثار النزعة التدخلية العامة الخاصة بالأجور والأسعار في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية في العالم المتقدم.

في سنوات دراستي المبكرة تعلمت تقدير البراعة النظرية للأسواق التنافسية. وبعد ستة عقود تعلمت تقدير كيف تنجح النظريات (ولا تنجح أحياناً) في عالم الواقع. فقد أُتيحت لي بشكل خاص فرصة التفاعل مع كل واضعي السياسات الاقتصادية المهمين في الجيل السابق، والحصول بطريقة لا مثيل لها على معلومات تقيس اتجاهات العالم، من الناحية العددية ومن ناحية الملاحظات. وكان من المحتم أن أطلق أحكاماً عامة على تجاربي. وقد قادني هذا إلى تقييم أعمق للأسواق الحرة التنافسية باعتبارها قوة تحقق المصلحة. والواقع أنه باستثناء بعض الوقائع الغامضة القليلة لا أظن أن هناك ظروفاً فشل فيها حكم القانون الموسع وحقوق الملكية المعززة في زيادة الرخاء المادي.

وبالرغم من ذلك فإن هناك شكاً مستمراً على نطاق واسع في عدالة الطريقة التي توزع بها المنافسة غير المقيدة مكافآتها. وأشير على امتداد هذا الكتاب إلى تناقض الناس الظاهري مع قوى السوق. وهناك تشديد على المنافسة لأن الأسواق التنافسية تخلق الفائزين والخاسرين. وسوف يحاول هذا الكتاب بحث تبعات التصادم بين الاقتصاد المعولم الذي يتغير بسرعة والطبيعة البشرية التي لا تتغير. وكان النجاح الاقتصادي الذي تحقق في ربع الألفية الماضي نتيجة لهذا الصراع؛ وكذلك القلق الذي خلقه ذلك التغير السريع.

نادراً ما نمعن النظر في تلك الوحدة العاملة الرئيسية في النشاط الاقتصادي، وهي الكائن البشري. من نحن؟ ما هو ذلك الشيء الثابت في طبيعتنا ولا يخضع للتغيير. وما مقدار ما لدينا من فطنة وإرادة حرة كي نعمل ونتعلم؟ إني في صراع مع هذا السؤال منذ أول مرة عرفت فيها كيف أطرحه.

بما أنني تجولت في العالم على مدى ستين عاماً تقريباً، فقد وجدت أنه تبدو على الناس تشابهات ملحوظة يمكن وصفها بدون حاجة إلى قدر كبير من الخيال بأنها ناتجة عن الثقافة أو التاريخ أو اللغة أو المصادفة. إذ يبدو أن الناس جميعاً يحركهم سعي متأصل من أجل الاعتداد بالذات الذي يعززه إقرار الآخرين له. ويحدد هذا السعي جزءاً كبيراً مما تنفق عليه الأسرة المعيشية مالها. وسوف يظل كذلك يحفز الناس على أن يعملوا في المصانع والمكاتب جنباً إلى جنب، حتى وإن صارت لديهم عما قريب القدرة على الإسهام في العمل منعزلين من خلال الفضاء الإلكتروني. فالبشر لديهم حاجة متأصلة إلى التفاعل مع غيرهم من البشر. وهذا ضروري إن كان علينا الحصول على إقرارهم الذي هو ما نسعى إليه. فالناسك الحقيقي شذوذ يندر وجوده. ويتوقف ما يسهم في الاعتداد بالذات على تلك المجموعة الكبيرة من القيم المتعلَّمة أو المختارة بوعي، التي يعتقد الناس، صواباً أو خطأً، أنها تُحسِّن حياتهم. ولا يمكننا العمل بدون نسق من القيم التي ترشدنا إلى اختيارات متعددة نقوم بها كل يوم. والحاجة إلى القيم أمر متأصل فينا. أما مضمونها فليس كذلك. ذلك أن الحاجة يحركها إحساس أخلاقي فطري داخل كل منا، وهو الأساس الذي تنشد بناءً عليه الأغلبية عن إرشاد الديانات المتعددة التي اعتنقتها البشرية على مر آلاف السنين. وجزء من هذا القانون الأخلاقي الفطري هو الإحساس بما هو عدل وصحيح. فجميعنا لدينا رؤى مختلفة لما هو عدل، ولكن لا يمكن لأحد تحاشي الضرورة المدمجة فينا الخاصة بإصدار تلك الأحكام. وهذه الضرورة المدمجة هي أساس القوانين التي تحكم كل مجتمع. إنها الأساس الذي يتحمل الأشخاص بناءً عليه مسئولية أعمالهم.



لا يمكن للاقتصاديين تحاشي كونهم دارسين للطبيعة البشرية، وخاصة الحماسة الفياضة والخوف. والحماسة الفياضة احتفاء بالحياة. فلابد من فهم الحياة على أنه من الممتع أن نسعى للحفاظ عليها. ومما يؤسف له أن موجة الحماسة الفياضة تجعل الناس في بعض الأحيان يتجاوزون ما هو ممكن؛ فعندما يلمس الواقع وتراً حساساً تتحول الحماسة الفياضة إلى خوف. والخوف رد فعل آلي فينا جميعاً تجاه الأخطار التي تهدد أعمق ميولنا الفطرية جميعاً، وهو إرادة الحياة. كما أنه أساس الكثير من ردود أفعالنا الاقتصادية، وهو ذلك العزوف عن المخاطرة الذي يحد من رغبتنا في الاستثمار والتجارة، وخاصةً بعيداً عن الوطن، ويحثنا هذا في الحالات المتطرفة إلى الانفصال عن الأسواق، مما يسفر عن حدوث انهيار حاد في النشاط الاقتصادي.

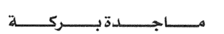
هناك جانب مهم في الطبيعة البشرية. وهو مستوى الذكاء البشري. له علاقة كبيرة بمقدار نجاحنا في كسبنا لوسائل العيش اللازمة للبقاء. وكما أوضح في نهاية هذا الكتاب، فإن الناس في الاقتصادات التي بها أحدث التكنولوجيات يبدون عاجزين عن زيادة مُخْرَجهم في الساعة بما يتجاوز ٣ بالمائة سنوياً على امتداد فترة مطولة. ومن الواضح أن هذا هو أقصى معدل يمكن فيه للإبداع البشري تحريك مستويات الحياة قدماً. ومن الواضح أننا لسنا على قدر كافٍ من الذكاء لتحقيق ما هو أفضل من ذلك.

إن العالم الجديد الذي نعيش فيه الآن يعطي مواطنين عديدين الكثير مما يخافون منه، بما في ذلك اقتلاع الكثير من مصادر الهوية والأمن التي كانت مستقرة من قبل. وحيثما كان التغير أسرع ما يكون، تكون التفاوتات المتزايدة في توزيع الدخل هماً أساسياً. إنه بحق عصر الاضطراب، وسوف يكون من الحكمة والأخلاق أن نحد من التكلفة البشرية لتمزقاته. وفي مواجهة اندماج الاقتصاد العالمي المتزايد يواجه مواطنو العالم اختياراً شاملاً، وهو قبول الفوائد العالمية للأسواق المفتوحة والمجتمعات المفتوحة التي تنتشل الناس من الفقر وترفعهم على سُلَّم المهارات إلى حياة أفضل وأكثر أهميةً بينما يعون في أذهانهم قضايا العدالة الأساسية، أو رفض تلك الفرصة وقبول نزعة إحياء الثقافة المحلية والنزعة القبلية والنزعة الشعبوية، وكل «نزعة» تلجأ إليها المجتمعات عندما تتعرض هوياتها للحصار ولا يمكنها إدراك خيارات أفضل. وهناك عوائق ضخمة تواجهنا في العقود المقبلة، ويعود الأمر إلينا في التغلب أو عدم التغلب عليها. وبالنسبة للأمريكيين، لابد أن يحتل فتح حدودنا أمام القوى العاملة الماهرة في العالم وإصلاح التعليم مكانةً متقدمة على أجندة سياساتنا. ولابد كذلك من إيجاد حل لأزمتنا الخاصة بالرعاية الصحية. وهناك موضوعات سوف أعود إليها في نهاية الكتاب. وأنتهي في الفصل الأخير إلى أنه بالرغم من العيوب الكثيرة التي في البشر، فليس من قبيل المصادفة أننا نتسم بالدأب والتقدم في مواجهة الشدائد. فهذا أمر من طبعنا. وهذه حقيقة تدعم تفاؤلي بشأن مستقبلنا على مر العقود. ■

مــــول... جلبــــاب... خـــادمة آســيوية

ترسم لنا المؤلفة مشهدا يختلط فيه «التمصير» أو التعريب أو «إحياء التراث» إلى مستويات ربما فاقت الماضي، بعولمة شرسة تختلف عن الكوزموبوليتانية الأوروبية القديمة





■ بكتابها الأخير «الثقافات الاستهلاكية المتغيرة لمصر الحديثة، إعادة التشكل العمراني لمدينة القاهرة» الصادر عن دار نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة، تدخل د.منى أباظة رئيس قسم الاجتماع بالجامعة مجالا جديدا على الكتابة السوسيولوجية في مصر هو مجال دراسة «الثقافة الاستهلاكية» الذي أصبح موضوعا لكتابات كثيرة في العالم تحفل قائمة مراجع الكتاب بالكثير منها. وهي إذ تدرس الاستهلاك في دلالاته الاجتماعية وليس في حد ذاته، ينطوي رصدها لتطور أنماط الاستهلاك وحتى التسعينيات على رصد للتطورات الاجتماعية بشكل عام.

تقوم الباحثة برصد هذه الدلالات والتحولات من خلال مزج الدراسة الميدانية لظاهرة حديثة هي ظاهرة انتشار المولات التجارية من ناحية بدراسة أخرى تنطوي بدورها على عنصر «المراقبة ـ المشاركة» الـparticipant-observation هو نوع من السيرة الذاتية يذكرنا بمقال شائق في نفس الاتجاه للمؤرخة عفاف لطفي السيد مارسو بعنوان The revolutionary gentlewomen in Egypt. فإذ تنحدر منى أباظة من أسرة كان فيها والد الجدة للأم أحد أبرز سياسيي العشرينيات، فإنها تستعيد ذكرياتها حول أنماط استهلاك وأساليب معيشة أسرتها خلال تلك الحقب بالعودة مستعينة ببعض المراجع من تلك المرحلة وبلقاءات أجرتها مع أفراد من العائلة وأصدقائها.

الهوية وتغير أنماط الاستهلاك:

في دراسة د. منى أباظة لأنماط الاستهلاك المتغيرة يلفتنا بوجه خاص دلالات تلك الأنماط في تحديد وتعريف الهوية وخصوصا الهويتين الطبقية والجيلية. ومن أهم ما تفصله د. منى أباظة في هذا السياق، الدلالات المتنوعة لظاهرة الحجاب الحديث. فهي تبرز لنا على سبيل المثال كيف استبدلت بنات الريف المتعلمات الجلباب الريفي القديم («بسفرته» التقليدية المستديرة على الصدر وكرانيشه في الذيل) ومنديل الرأس بالحجاب التقليدي لإبراز تفوقهم على جيل أمهاتهم من خلال تبني رمز «مديني».

كما تبرز تخفيف وتهذيب ورفع المستوى الاجتماعي «gentrification» وتغيير المدلول «السياسي» لبعض أشكال الحجاب من الحجاب المتقشف الفضفاض القاتم رمز الرفض الصريح وربما التطرف المرتبط «بالجماعات» الإسلامية في فترة السبعينيات المقترنة باندلاع وانتصار الثورة الإيرانية، إلى أن يصبح رمزا أقرب للإسلام السعودي (اللاثوري) في ظل ما شهدته العقود الثلاثة الأخيرة- التي تم فيها هذا التحول في مظهر الحجاب ودلالته- من تزايد للهجرة المصرية إلى بلدان الخليج. وفي ذات السياق، ظهر الحجاب «الشبابي» بهيج الألوان الذي يختلف عن حجاب الأجيال الأكبر سنا ويعكس رغبة الشابات في إبراز جمالهن.

وبصفة أكثر عمومية، تذهب الكاتبة إلى أن وجود صناعة ملابس محلية معقولة التكاليف أدى الى مقرطة للذوق democratization of taste على نحو خفف من حدة التمييز الطبقي داخل مراتب الطبقة الوسطى وبينها وبين من يعلونها في السلم الاجتماعي، في الوقت الذي بقي فيه الجلباب الأسود ومنديل الرأس عنوانا طبقيا واضحا لمن يلبسنه من نساء الطبقات الشعبية.

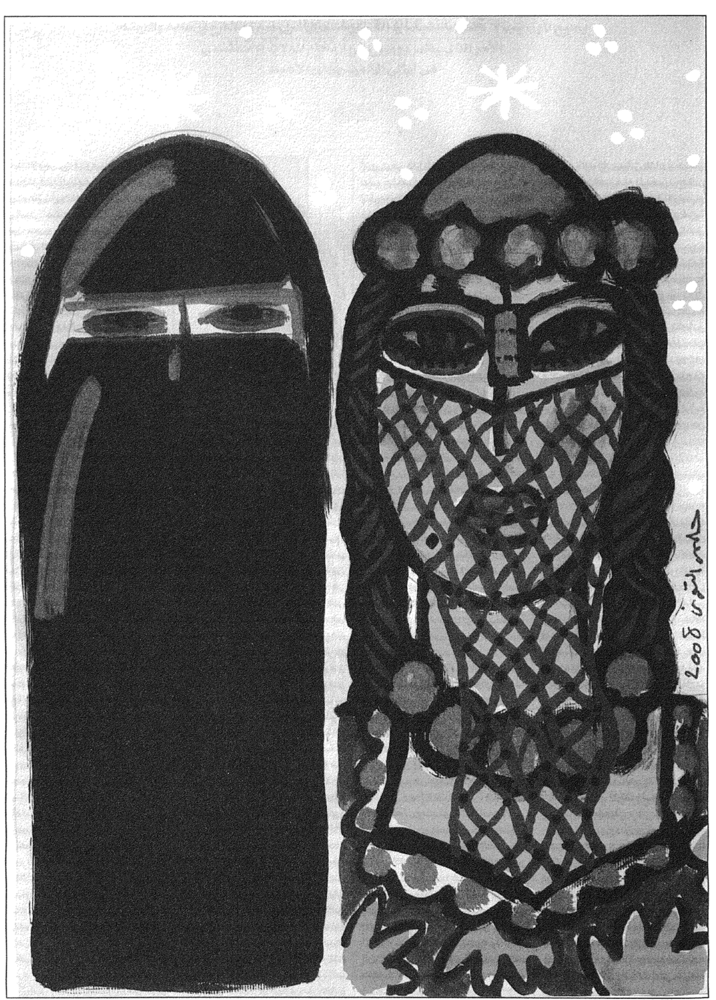
وفي تناولها لمراتب الطبقة المتوسطة العليا، ترصد الباحثة تغيرا في أنماط الاستهلاك من الرغبة الملحوظة في اقتناء صالون الأوبيسون خلال النصف الأول من القرن العشرين إلى ظهور رغبة نزعة إلى العودة إلى صالون الأرابيسك خصوصا في سبعينيات القرن، كما ترصد تحولا بين أفراد تلك الطبقة من النزوع إلى اقتناء أعمال مشاهير التصوير الزيتي في الغرب إلى اقتناء أعمال الفنانين المصريين في الوقت الحالي.

ولكنها وفي الاتجاه المعاكس أيضا، ترصد تحولا من استخدام الفصحى في الأدب المصري المكتوب باللغة العربية، إلى لغة أمثال أحمد العايدي في رواية «أن تكون عباس العبد» وهي لغة متعددة المستويات تخلط الإغراق في العامية بدرجاتها التي تصل إلى السوقية في أقصى حالاتها مع مستويات عدة من اللغة العربية الفصحى وأيضا مع كلمات أجنبية أغلبها يتعلق بالوسائط التكنولوجية والإنترنت مثل «كت» و«بيست» والتي دخلت لغة التعبير اليومي.

كما تلحظ تحول استخدام كلمات أجنبية في ثنايا الحديث اليومي من سمة للطبقة الكوزموبوليتانية القديمة المحصورة عدديا إلى ظاهرة في الخطاب اليومي لعموم المصريين - ولو بنطق خاطئ - وظهور عناصر غربية جديدة في الاستهلاك الغذائي للمصريين مثل الكابوتشينو ووجبات الهمبرجر والبيتزا السريعة وإن لم تنجح هذه في القضاء على القهوة التركية وسندوتشات الفول والفلافل لرخص أثمانها.

وتربط الكاتبة ما بين إعادة تقدير التراث وإحيائه - في العمارة والأثاث وبدرجة أقل في الملابس- وبين حقبة السبعينيات التي تلت هزيمة حرب يونيو ٦٧ وما ارتبط بها من العودة للبحث عن الجذور وطلب

The Changing Consumer Cultures of Modern Egypt
Cairo's Urban Reshaping
(الثقافات الاستهلاكية المتغيرة لمصر الحديثة، إعادة التشكل العمراني لمدينة القاهرة)
Mona Abaza
The American University in Cairo Press, 2006


حلمي التوني 2008



الأصالة وحدوث قدر من الارتداد عن «تحديث» فترة الستينيات الناصرية الذى رأى البعض فيه سلبا للهوية. فلم يكن من قبيل الصدفة كما تؤكد الباحثة أن تكون مشروعات أسعد نديم للأثاث، والمسيرى للتلى، وعزة فهمى للحلى، ونجادة ومحرز للملابس، قد بدأت جميعا مع نهاية السبعينيات، كما أن تواكب هذه الفترة مع تدشين سياسة «الانفتاح» وفتح البلاد للسياحة يؤكد أن هذا الإحياء بقدر ما كان فى تناظر مع الغرب إن لم يكن فى مواجهته، بقدر ما تم من خلال عدسته التى ترفع من شأن الفن الإثنى(الغرائبى) وبمساعدته كسوق مستهلك.

تبرز التناقضات فى خطاب الهوية فى مجال الزى فالمقصود بالخطاب هنا لا يقتصر على اللغة المنطوقة، حيث «الملبس لغة» كما يقول الغربيون (fashion is a statement). ونحن نلحظ تناقضا بين ملحوظة مدرسة ألمانية للأزياء فى جامعة حلوان من أن «ثقافة الطبقة الوسطى لطالباتها تمنعهن من أن يكن مرنات وكوزموبوليتانيات»(ص٢٠١ من الكتاب) وبين الأسماء الغربية لبعض سلاسل المحجبات الشبابية مثل Suzzana و Pour Elle .

هنا ترسم لنا المؤلفة مشهدا يختلط فيه «التمصير» أو «التعريب» أو «إحياء التراث» إلى مستويات ربما فاقت الماضى، بعولمة شرسة تختلف عن الكوزموبوليتانية الأوروبية القديمة، إذ تتسم العولمة بمزيجها الذى تختلط فيه «الأمركة» «بالخلجنة». ومع أنها ترى فى انتشار بطاقات سحب النقود ATMs والموبايل والإنترنت والإيميل والمدن والقرى السكنية والمصايف والمشاتى المسورة ومحلات المكدونالدز وانتشار ظاهرة طلب المأكولات الجاهزة علامة أكيدة على دخول مصر عصر العولمة فهى تنتقد التبسيط المخل فى بعض من ينزعون إلى الربط التلقائى بين العولمة والتنميط فهناك ما يطلق عليه البعض تعبير الـ glocalisation ، حيث يتأثر ما هو عالمى بالبيئة المحلية والعكس مثل تقديم محلات السلاسل الغذائية الغربية أغذية آسيوية الطابع وأكل اليابانيين بأيديهم للمرة الأولى وظهور سلاسل «مؤمن» للسندوتشات فى مصر والتى تحاكى السلاسل العالمية مثل ماكدونالدز وغيرها. ويرتبط ما سبق بدوره بمفهوم «التهجين» hybridization فى أذواق



الملبس والغذاء وغيرها والذى تشير إليه الأدبيات السوسيولوجية الغربية وتستعين به الكاتبة حيث نعلم من ثنايا الكتاب على سبيل المثال لا الحصر أن هناك أصولا «نابوليونية» للسفرة المستديرة للجلباب الفلاحى التقليدى!

وإذ يظهر النزوع إلى تبنى الأغنياء الحاليين لما هو «محلى» فى بعض المجالات مثل اقتناء لوحات الفنانين المصريين بأكثر مما كان عليه الوضع فى الماضى، أو بنائهم لقصورهم فى المنصورية ومشاتيهم ومصايفهم فى الجونة على سبيل المثال لا الحصر وفق قباب وأقواس وأقبية عمارة حسن فتحى التى قصدها أصلا للفقراء، فإن من اللافت أن هذه الطبقة فشلت فى الحفاظ على الأزياء التقليدية كلباس يومى مقارنة بنظيرتها فى الخليج (الجلباب الرجالى السعودى الشفاف والجلابيب النسائية) أو حتى كلباس تقليدى احتفالى يعاقب اجتماعيا من يخرج عليه كما هو الحال فى الأفراح والاحتفالات التقليدية فى المغرب. وفى حين تبدى الطبقات المغربية الميسورة استعدادها للإنفاق على ما تتطلبه تلك الملابس من تطريز يدوى مرتفع التكلفة فإن نزوع الطبقة العليا المصرية هو لبذل هذه النفقات المرتفعة فى سبيل الملابس المستوردة بحيث يكون ارتداء الملابس «الفولكلورية» التقليدية المشتراة من المحلات الغالية لبعض مشاهير المصممات مثل شهيرة محرز على سبيل الاستثناء ومن خلال العين الغربية التى تبدى إعجابها بهذه الملابس فى الغالب «لغرابتها» exotism ، أى أنه يمكن للمرء أن يرى فى هذا التبنى «استشراقا» يغلب على عنصر «الاعتزاز القومى» الذى ينفيه احتقار «المحلى» الذى يوصف بأنه «بلدى»..

قد يمكن لنا أن نعزو غياب الاعتزاز القومى باللباس المحلى مقارنة بالمغرب أو الخليج العربى بل وربما غياب وجود لباس قومى مصرى جامع إلى ما تشير إليه الكاتبة (عرضا) من أن مصر قد حكمها الأجانب قرونا طويلة فكانت هناك ثقافتان مختلفتان على الدوام حيث كان لاعتقاد الطبقات الحاكمة بتفوق الذوق الغربى أثره دون شك على أخلاق المصريين وأساليب حياتهم(ص١٩٨).

فى كل ما سبق يشعر من درس الطبقة العليا المصرية فى مراحل سابقة أنها كلاحقتها - لو صح التعبير- «تلفيقية» فى الذوق (eclectic) فهى لم تبتكر نمطا أو حتى مزيجا خاصا بها تكون له شخصيته الخاصة مثلما مثلت فكرة طراز «الآر نوفو» Art Nouveau نمطا مستقلا له شخصيته الخاصة رغم تألفه من مزيج من عناصر مختلفة كونت مذاقا جديدا، ويمكن قول نفس الشىء عن الشخصية المستقلة للفن الإسلامى رغم ما استمده من عناصر معمارية من مراحل زمنية سابقة.



فيما تناولته قد لا تكون د. منى أباظة قد قصدت إثارة موضوع دور المثقف فى التأثير على ثقافة بلده لكن ذلك بالتحديد هو ما أثاره فى نفسى ما تذكره حول دور مثقفين أو «فاعلين ثقافيين» مثل حسن فتحى فى مجال العمارة وأسعد نديم فى مجال الأثاث وشهيرة محرز فى مجال الملابس وعزة فهمى فى مجال الحلى ومجموعة الكتاب والأدباء التى بنت لها «جماعة متصورة» وموئلا فى قرية تونس بالفيوم. فهؤلاء - رغم ارتباط أنشطتهم بإحياء التراث المحلى والتركيز عليه - بقوا غرباء عن التيار العام لمجتمعاتهم، زبائنهم هم من الأجانب أو أثرياء الخليج وبعض المصريين الأغنياء المقدرين «للفن الإثنى» بعيون غربية استشراقية. وفى قرية تونس بقى هناك مجتمع هؤلاء منفصلا ومتمايزا تماما عن مجتمع فلاحى قرية تونس الأصلى.

ومع ذلك فلا يمكن إلا أن يحتفى المرء بدور «المجتمع المدنى» -على محدوديته- فى محاولة الارتفاع بمستوى معيشة الفلاحين فى قرية تونس من خلال مشروع تشكيل الفخاريات فى تلك القرية(السويسرية ايفلين)، أو من خلال إقامة صناعة للسجاد اليدوى فى قرية الحرانية (رمسيس ويصا واصف)، أو دور نوال المسيرى وأسعد النديم فى تدريب العمالة على النجارة العربية وتسويق حرفة التلى اليدوية لرفع المستوى المعيشى لأصحاب هذه الحرف. ويتساءل المرء عما إذا كان هناك ثمة ارتباط ارتفاع أسعار منتجات أمثال محرز والنديم وبين ما يقومون به من أدوار اجتماعية كنوع من إعادة توزيع للدخل بين محدوديه وبين الميسورين من داخل البلاد وخارجها.

«المول ـ كعالم جديد» :

يصعب تحديد طبيعة المول باعتباره مجالا تجاريا بحتا، إذ تعبر فكرة المول فى ذاتها عن محاولة لخلق «عالم كامل» يمزج ما بين المجالات أو الحقول المكانية الثلاثة السكنية (شقق سكنية كما فى مولات العقاد ومركز التجارة العالمى وسيتى ستارز) والترفيهية (سينمات، قاعات ديسكو، مراكز رياضية للياقة البدنية، قاعات بيلياردو وألعاب الكترونية، مطاعم ومقاهى والتجارية).

بل إنه إذا كان يمكن القول أن أول ما يتبادر إلى الذهن هو أن المول هو مجال تجارى، فإن تحليل د. منى أباظة يظهر علاقة أقوى للمول بالترفيه منه بالتجارة حتى أن الكاتبة تذهب فى موضع ما إلى مقارنة المول «بالنادى» باعتبار المول تعويضا عن عدم عضوية الكثير من الشباب للنوادى لارتفاع أسعار الحصول على تلك العضوية.

هكذا يصبح المول مجالا لالتقاء «الشباب» و«التسكع» بمعزل عن حرارة الشارع وزحامه وأتربته، الأمر الذى يظهر بوضوح فى ازدحام المولات الاستثنائى فى ليالى الخميس وفى الأعياد وهنا يصبح مول العقاد هو الاستثناء الذى يؤكد القاعدة إذ استبعدت إدارته بالتحديد عن قصد أية مراكز ترفيهية واقتصرت على البعد «التجارى» بغية استبعاد «الشباب» من المول والتأكيد على طبيعته كمول «أسرى» للعائلات.

يصبح المول مجالا لالتقاء الشباب و«التسكع» بمعزل عن حرارة الشارع وزحامه وأتربته، الأمر الذى يظهر بوضوح فى ازدحام المولات الاستثنائى فى ليالى الخميس وفى الأعياد



وقد بات المول يقترن بما يمكن أن نطلق عليه تعبير«العبور الطبقى المؤقت» حيث تتحدث الباحثة عن « أعداد كبيرة من الشباب قادمة من العشوائيات والأحياء الفقيرة تسير فى مجموعات ذكورية كبيرة». وإذ لم يعد بمثل ما كان عليه الأمر سابقا من سهولة تمييز الطبقات عن طريق الملبس، فإن ما يتم تقديمه للشباب داخل تلك الأماكن (المولات) المعزولة عما خارجها والمتميزة exclusive هو نوع من «المحاكاة» simulation، وهم يستشعرون نوعا من الارتقاء (من خلال الملبس) وشعروا بأنه بإمكانهم المشاركة فى عالم أفضل (منى أباظة ص٢٤١).

من الطريف أن هذا الإحساس بالارتقاء يتجاوز رواد المول إلى العاملين فيه من بائعات لا تتجاوز أجورهن نصف ما تتقاضاه الخادمات المستوردات لكنهن يشعرن بأنهن أفضل فيه مما لو كن يعملن فى «محلات الشارع»، بل إن «حارس الأمن» وهى الفئة التى بات المئات منها تعمل داخل المولات (والمبانى السكنية أيضا) يعتبر نفسه على الأغلب بزيه الخاص وقميصه وبنطاله أرقى من «حارس العقار» التقليدى أى «البواب» بجلبابه ودكته الخشبية.

ينتمى ما سبق ربما إلى الجانب الأكثر إيجابية للمول، لكن الكاتبة تبرز أيضا الجانب الأكثر إظلاما للمول أو ما يمكن أن نطلق عليه تعبير«أمراض المول» ما بين شيوع المضايقات الجنسية للنساء بين الشباب، وشيوع السرقات من المحلات التجارية shoplifting خاصة بين النساء بحيث أصبح الأمران الهم الأساسى لأفراد الأمن المنتشرين فى تلك المراكز التجارية المسورة متعددة الطوابق.

ورغم ما يميز المول بشكل عام من انتشار المراقبة بالكاميرات واعتباره -مقارنة بالشارع- مجالا يخضع لدرجة أعلى من السيطرة والتنظيم، لم تستمر ظاهرتا المضايقات الجنسية والسرقات الصغيرة بإصرار فحسب بل لم تسلم المولات أحيانا من امتداد «الاقتصاد الاسود»- إذا جاز لنا التعبير- إلى داخلها، كما يظهر فى اقتباس د. منى أباظة من رواية أحمد العايدى «أن تكون عباس العبد»، حيث تقوم هند وهى مومس من طبقة شعبية بطباعة رقم هاتفها بأحمر الشفاه على الأبواب الداخلية للمرحاض العمومى بعدة مولات وتثبيته بحيث يصعب مسحه عن طريق تمرير ورقة كلينكس مشبعة بماء الصودا عليه، وكما يظهر أيضا فى الاتهامات التى عزت خروج أصحاب المحلات التجارية والعيادات من أحد المولات إلى انتشار بيع وتعاطى المخدرات فى أحد أدواره.

بين تناولها «لإيجابيات» المول وسلبياته، تنعى الكاتبة غياب أى حس نقدى فى توصيفه سواء من جانب مرتاديه أو القائمين عليه وشبه الاستسلام التام لما يمثله من غلبة للثقافة الاستهلاكية وما يرتبط بها من «تخدير» إزاء السياسات السياسية الأوتوقراطية. وتشير الكاتبة - فى ظل اختلاف ظروفنا عما هو سائد فى الغرب- إلى الحدود التى تقيد إمكان تطبيق النقد الغربى للاستهلاك فى السياق المصرى باعتباره «تعويضا نفسيا» عن ضعف الترابط الأسرى وافتقاد روابط عاطفية ومهنية طويلة الأمد. ورغم ما تشير إليه من وجود ظاهرة معاناة الفرد من الوحدة أينما وجد، فإن ارتفاع الكثافة السكانية لدينا وارتباطه بلغة إشارات جسدية نشطة فى الشوارع والأماكن العامة ارتباطا بضرورات ضيق المكان تلون مفهوم الوحدة لدينا بلون مختلف. تشير الباحثة كذلك إلى غياب النقد الأكاديمى لدينا فى تناول تلك الظاهرة أسوة ببعض الكتابات الهندية على سبيل المثال والتى تربط المول بما يواكب التحديث من إحساس «بالافتقاد» لجذور وتقاليد قديمة، ولا يمكن هنا الحديث عن الشعور بافتقاد الجذور ببساطة أيضا لأن «عقدة الخواجة» والتقليد لما هو غربى لدينا ترتبط - حتى فى تحليل د. منى أباظة «بالأسلمة» واستمرار دور الأسرة، والإحياء للتراث والتقاليد الفنية ولو لم يكن ذلك بمعزل عما يعجب به السواح والغرب لدينا فى هذا المجال.

«مدن الأشباح»، المولات المحتضرة:

قدر أحد رجال الأعمال فى الكتاب «دورة حياة المول» بما بين ١٨ و٢٤شهرا فى المتوسط (ص٨٥). ورغم التحفظ الذى يثور حول دقة التقدير الزمنى فى هذا الخصوص، فإن ظاهرة احتضار المولات تحتاج إلى نظر متعمق وهى تثير التساؤل حول مصير كل ما ضخ فى تلك المولات المحتضرة من رؤوس أموال، هل أفلس أصحابها؟ (لا يبدو الأمر كذلك)، هل كان استثمارهم نسبة ضئيلة من ثروتهم؟(تعود ملكية مول اليمامة إلى الأمير بندر، فماذا عن مركز التجارة العالمى، لا يوضح السياق ما إذا كانت مجموعة أوراسكوم ضمن joint ventureالملاك أم قامت فقط ببناء المشروع (ص١٧٥-١٧٦)، أم كان جزءا من الخسارة قد تم ترحيله إلى البنوك (آلت إلى البنك الأهلى ملكية مول الأمير وقد تؤول إليه ملكية أركاديا مول) وإلى الذين «اشتروا» محلات ولم يكتفوا بالتأجير؟ هل يعالج الملاك الموقف بانتظار أن يرتفع ثمن الأرض فيبيعونها أرضا بالإضافة إلى التفكير فى تغيير النشاط؟ وما جدوى «دراسات الجدوى» التى أجريت لتلك المشاريع؟



لم تقدم لنا الباحثة إجابة محددة حول سبب احتضار المولات وقدمت محاولتها للإجابة فى صورة تساؤلات حول الأزمة الاقتصادية والموقع الخ، لكننا لا نفهم مثلا لماذا يعيش «مول طلعت حرب» ويموت «مول البستان»، أو يعيش«أركاديا مول» ويموت مركز التجارة العالمى وهم فى مواقع متجاورة أو متقاربة جدا ويقومون فى ظل نفس الظروف الاقتصادية العامة. ولأفعل كما فعلت الكاتبة فأتساءل بدورى هل لصعود المول أو سقوطه «عنصر نفسى» كذلك الذى تشهده أسهم البورصات بحيث ينشىء شروع واحد أو أكثر فى الهرب حالة من الهروب الجماعى؟

أشارت الكاتبة إلى أن مول الأمير فى حى شبرا لم يستطع أن ينافس «اقتصاد الرصيف» الأرخص بكثير فى الشوارع المجاورة فى ذلك الحى الشعبى، بحيث قد يفسر الموقع من حيث غلاء أسعار المولات أو معقوليتها مقارنة بالأحياء التى توجد فيها جانبا من النجاح أو الفشل. ففشل مول الأمير فى منافسة «اقتصاد الرصيف»، يقابله -حتى الآن- النجاح النسبى«للفرست مول» بأسعاره المرتفعة لوجوده فى منطقة غير شعبية (عزت الباحثة فشل مول اليمامة الموجود فى الزمالك إلى الذوق الذى لا يناسب معظم سكان هذا الحى)، وتنجح مولات مدينة نصر أكثر من غيرها للقوة الشرائية المرتفعة لغالبية سكان هذا الحى الذى يتميز بكثرة العائدين من سكانه من العمل فى بلاد النفط.

مدينة، مدينتان، أم مدن؟

إذا كان Robert FISHMAN قد تنبأ باتجاه عام لمستقبل المدن الحديثة تتميز المناطق الحضرية فيه باللامركزية(الكتاب ص٢٨)، فإن هذا بالفعل ما نلحظه فى المشهد الجديد لتحول حضرى مختلف عن ماض كانت فيه للمدينة أحياؤها السكنية الراقية يخدمها «وسط واضح للمدينة» تجاريا وترفيهيا centre ville خلق ثنائية مع المدينة التقليدية القديمة بأحيائها ومتاجرها. فلم يعد هناك الآن «واسطة عقد» تجارية للمدينة فلكل حى على نحو ما «مركزه التجارى» الخاص به ومولاته فى المعادى ومدينة نصر وغيرها، كما لم يعد هناك «مدينة قديمة تقليدية» واحدة بل عدة عشوائيات «حضرية» تختلف حتى عما كان يوصف«بريف المدينة»القديم الواقع على تخومها، بحيث يتلاصق الفقر والعشوائيات ويتجاوران مع آخر صيحات المولات البراقة والواجهات الزجاجية والمعدنية والطرق الالتفافية.

فى هذا السياق تلاحظ الباحثة تركز أكبر عدد من المولات فى اثنين من أحياء مدينة القاهرة هما بولاق- كورنيش النيل (شمال القاهرة) ومدينة نصر (شرقيها) وتلاحظ فى الوقت نفسه ملاصقة هذين الحيين لبعض أكبر تجمعات العشوائيات (الأحياء غير المخططة عمرانيا بشكل رسمى) فى



العاصمة وهى عزبة العرب وعزبة الهجانة وعزبة نصار ومنشية ناصر فى حالة مدينة نصر، والإسكان العشوائى فى تخوم حى بولاق المتداعى ذى التاريخ العريق.

هنا تبرز الكاتبة كيف أن لفظ «العزبة» (كعنوان على الفقر) قد تغير مدلوله الريفى القديم إلى مدلول مدينى، وإذا كان فيلم «حين ميسرة» قد لاقى نجاحا كبيرا (وإن جاء صادما لكثرة من رواد السينما ممن هم فى عداد الطبقة الوسطى)، فقد سبقت الكاتبة الفيلم إلى الإشارة إلى ما أصبحت كلمة «العشوائيات» تدل عليه فى الخطاب الرسمى من «فوضى السلوك والعلاقات و«لا تحضرها»(ص٢٤٤)».

وتقارن الدراسة بين حيين بنى كلاهما على تخوم الصحراء فى عهدين مختلفين: هليوبوليس باعتبارها نموذجا للخيال الكولونيالى الكوزموبوليتانى فى مرحلة أوائل القرن العشرين، «مدينة» نصر باعتبارها فخر إنجاز الحقبة الناصرية. وعلى حين انتشرت مع هليوبوليس الطرز المعمارية المتنوعة من بوذية إلى تنويعات على الطرز الإسلامية إلى طراز الأرديكو الغربى، فقد جاء طراز مدينة نصر كتنويعة رخيصة على طراز «البوهاوس» Bauhaus بما فيه من تجريد ونبذ لمختلف الإضافات المعمارية التجميلية.

وهنا تلاحظ المؤلفة أن «أحياء» مدينة نصر التى نشأت الواحدة تلو الأخرى تتميز بغياب مركز أو «قلب» لهذه المدينة الأمر الذى لا يبدو وكأنه يضايق سكانها الذين تعود الكثير منهم على هذا النمط «الشبكى» شبه الصحراوى من الشوارع الطويلة جدا والواسعة(العقاد، النحاس،الطيران).

أحياء ومهن:

استلفت الباحثة فى حالة مينة نصر تركز المبانى المرتبطة بالجيش فى هذا الحى سواء كانت تلك المبانى مشروعات سكنية مدعمة سكنتها عائلات لأفراد من الجيش أو أعادت بيعها أو كانت تلك المبانى مؤسسية عائدة لأجهزة الجيش المختلفة مثل «القيادة المركزية للجيش والفنية العسكرية ووزارة الدفاع وأندية الضباط من مختلف الأفرع مثل المدرعات والمدفعية، ومباحث أمن الدولة



التى انتقلت من ميدان لاظوغلى (اعتبرته الكاتبة مبنى «عسكرى»)، والمصانع الحربية، والمتحف العسكرى ومستشفى عسكرى.. وبعض الفنادق»(ص٢٦٣).

وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى أن تركز أفراد الجيش فى حى سكنى معين من أحياء القاهرة ليس بالظاهرة الجديدة تماما، فقد أظهرت دراسات سابقة ما شهده حى «العباسية» - حتى ثلاثينيات القرن العشرين حين بدأ قدر من الخروج من هذا الحى- من تركز سكنى لفئة الضباط إلى جانب تجار خان الخليلى والجمالية والحسين وملاك الأراضى الزراعية الذين تركوا سكنى الريف، وربما كان الجديد حاليا هو ما يشهده حى مدينة نصر من تركز للمبانى المؤسسية العسكرية وليست المبانى السكنية فحسب.



ويمكن تفسير هذا بأن الكثير من الأراضى التى تمتد من طريق صلاح سالم حتى مدينة نصر كانت فى السابق معسكرات للجيش قبل الامتداد السكانى لمدينة القاهرة وعندما انتقلت المعسكرات إلى خارج القاهرة تم استخدام هذه الأراضى على الوجه الذى سبق بيانه كما أن انتقال عدد من ضباط الجيش إلى حى العباسية حتى ثلاثينيات القرن الماضى كان بسبب قرب الحى من المعسكرات فى ذلك الوقت.

ولم يكن حى مدينة نصر وحده الذى شهد تركزا لفئة مهنية بعينها،«فمدينة المهندسين» التى خطط لها فى الخمسينيات وشرع فى بنائها فى أوائل الستينيات لإسكان المهندسين الذين نيط بهم بناء السد العالى وتوفير الكهرباء وإعطاء دفعة للصناعة والرى، تضمنت أقساما حملت أسماء مدينة الضباط، ومدينة الإعلاميين، والصحفيين،والأطباء وإن كانت فيلاته الصغيرة الأكثر تواضعا من فيلات العصر السابق قد مثلت تنويعا أكثر جمالا من طراز البوهاوس العملى الذى ميز عمارة الحقبة الناصرية.

٣-«تعقيم» بعض المناطق وتحويلها إلى أغراض سياحية وتجارية مع محاولة تغيير أو رفع مستواها الاجتماعى: فهنالك العملية التى تطلق عليها الكاتبة تعبير الـ gentrification (رفع مستوى) بعض الأحياء القديمة موردة مثال الجزء المطل على النيل من حى بولاق القديم لكن ذلك يأتى على حساب السكان الذين أخلى بعضهم من مساكنه كما أعيد توطين «ورش» الحى الصغيرة فى مناطق أخرى، وبيعت الأرض إلى المستثمرين بأسعار منخفضة كونها تقع «فى حى شعبى» حيث تم تجميل الأحياء القديمة بدهانها مع الإبقاء على سوء حالة مرافقها (٢٤٧) الأمر الذى يذكرنى بمقولة للاقتصادى د. محمود عبد الفضيل حول «الفقر الملون». وتبرز الدراسة معاناة سكان بعض هذه المناطق من عدم الأمان لتخوفهم من الإخلاء قسرا ومن شح فى المياه والكهرباء أحيانا والتى تستأثر المولات والمنشآت السياحية والتجارية بنصيب ضخم منها، حيث شهد نيل بولاق على سبيل المثال إنشاء فندق الكونراد وبرجى التجارة ومولات أركاديا ومركز التجارة ونايل ستارز، حيث ارتبط إقامة المولات بالأسماء الكبيرة فى عالم رجال الأعمال: عائلة صبور: أركاديا مول، عائلة سويرس: مركز التجارة العالمى وبرجى النيل، (عائلة عزمى المالكة لـ٩٠ بالمائة من المعادى جراند مول أقل شهرة)، بالإضافة إلى رأس المال السعودى فى حالات مولات اليمامة (الأمير بندر بن سلطان) وسيتى ستارز (الشربتلى والشبوكشى) ورأس المال الإماراتى فى حالة كارفور(ماجد الفطيم).

كما يمكن لنا رصد عدد آخر من التحولات:

من الداخل إلى الخارج وبالعكس:

أود أن أشير هنا إلى ما نوهت إليه د.منى أباظة من تحول «المحبين» من اللقاء فى الحدائق العامة كحديقة الحيوانات وحديقة الأسماك وغيرها مما كنا نراه فى أفلام الخمسينيات وأوائل الستينيات إلى التجول فى المولات، فقد ذكرنى ذلك بما أوردته فى دراستى للطبقة العليا المصرية فى أساليب حياتها وتطوراتها الطبقية، بشأن عصر «ازدهار الفاراندا» منذ بواكير القرن العشرين وما حدث من تغير اجتماعى تبدى فى إطلال «الفاراندا» على الخارج بعد أن كانت شرفات البيوت الإسلامية تطل على صحنها الداخلى بشجيراته وزروع زينته القليلة، ثم كيف توارى عصر الفاراندا بعد ذلك خلف ستار الزحام والتلوث والضوضاء فانتشر «إغلاق» الفارندات بالألومينيوم لعزلها عن الشارع وربما لكسب بضعة أمتار إضافية إلى مساحة البيت «الداخلية».

أى أن الاتجاه فى الواقع يتمثل الآن فى العودة من الخارج إلى الداخل مجددا ولكن بشكل مغاير وربما عكسى. فبينما كان «الداخل» قديما يرمز إلى الخصوصية فإن ما يرمز إليه الداخل- الخاص بالمولات على سبيل المثال- فهو تحويل «الخارج» أو المجال العام المشترك «public space» إلى «داخل» بما يسبغه عليه رفع الأسوار حوله من درجة من درجات الخصوصية.

٥- المزيد من المقرطة المكانية؟ وفى مجال المقارنة التاريخية فقد رصدت دراستى خلال النصف الأول من القرن العشرين نوعا من الفصل الطبقى المتزايد فى داخل أنواع ثلاثة من «المجالات المكانية» spaces المتميزة هى السكنية، والتجارية والترفيهية leisure، ويتباين بوضوح ما رصدته فى المجال التجارى من تبضع الطبقات الموسرة فى المحلات الكبرى les grand magazines أو department stores وبقاء الطبقات الشعبية فى أسواقها ودكاكينها مع ما تظهره نتائج دراسة د. منى أباظة خلال النصف الثانى من القرن من كون المول نقطة للتقاطع الطبقى، رغم ما هنالك من تفاوت فى مستويات المولات ومرتاديها.

فعلى الرغم من الجهد المبذول فى اجتذاب المتبضعين الميسورين وإبعاد

«الدهماء» عنها، تلفت الباحثة إلى ما هنالك من مفارقة فى ارتباط نجاة المولات من الموت بكونها مطروقة من جانب الطبقات الشعبية ولو «للفرجة» والأكل فيما قد يوجد فيها من مطاعم رخيصة مما يشير إلى ارتباط المول بدرجة أعلى من «المقرطة» مقارنة «باقتصار الثقافة الكولونيالية الكوزموبوليتانية على القلة السعيدة، واقتصار النزعة الاستهلاكية فى العهد الناصرى على خدمة الطبقات الوسطى الصاعدة وعدم مشاركة الفلاحين.. فى الثقافة الاستهلاكية إلا فى عصر الانفتاح من خلال الهجرة» (ص٢٨٨).

وفى حين تشير الكاتبة أن دخول منطقة وسط البلد قديما كان فى حد ذاته مقصورا فى السابق على حد رواية أحد مصادرها على غير الحفاة مما منع أعدادا غفيرة من الطبقات الشعبية من ارتياد محالها، فإن اختفاء ظاهرة الحفاء (حتى بين الفقراء) والتغير العام فى نمط الملبس موه إلى حد كبير من حدة تلك التمايزات.

وأسارع فأقول أنه إذا كانت تلك التمايزات قد موهت فى المجال التجارى، فإن المجالين السكنى والترفيهى قد شهدا تفاقما فى حدة تلك التمايزات تبدى فى «رفع الأسوار» الفعلية المادية بين الطبقات فى الكومباوندات السكنية والتصييفية التى تستحق تناولا مستقلا.



وفى نفس السياق، فإزاء ما يشير إليه الكتاب من أنه - وعبر عملية «الكوزموبوليتانية - تميز أسلوب حياة الطبقة العليا بوجود الفيلات سكنيا، و«بيوت الأقسام» أو department stores تجاريا، ومدارس الإرساليات (خصوصا للبنات) تعليميا، والنوادى الرياضية ورياضات البولو والكريكيت وسباق الخيل ترفيهيا، يثور التساؤل عما أتت به العولمة لهذه الطبقة من جديد؟ يحتاج الأمر إلى دراسة مستقلة ويمكننا إلى ذلك الحين الإشارة فى عجالة إلى ملاعب الجولف (قلة من هذه الطبقة يبدو أنها تستخدمها بالفعل)، والمدارس «الدولية» والجامعات الخاصة والأجنبية و«الكومباوند» أو الـgated communities والخادمات الآسيويات والأفريقيات، والنوادى الاجتماعية الجديدة كنادى العاصمة نادى جاردن سيتى (سميح ساويرس وعمر مهنى).

وفى الخلاصة، فإنه من حيث ربط الجزئى بالكلى والعام بالخاص وأساليب حياة الأفراد والمجتمعات بالتطورات السياسية العريضة للمجتمع تخلص الدراسة إلى ارتباط التحديث الناصرى بأسلوب البوهاوس فى العمارة والأثاث، واستمرار أساليب حياة الطبقات العليا أو المتوسطة العليا السابقة على قيام الثورة تقريبا على ما كانت عليه إلى ما بعد التأميمات الاشتراكية فى عام ١٩٦٢، حيث لم تر الباحثة فى التحول من رأسمالية الدولة إلى سياسة الانفتاح الاقتصادى فى حقبة السبعينيات انقطاعا بل تغيرا فى نمط استمرار ما سبقه من تحالفات خلال الستينيات بين البرجوازية القديمة والبرجوازية الصغيرة الصاعدة فى العهد الناصرى وإن جاءت تلك الحقبة رمزا على استبدال المشروع العام لبناء الدولة بعد الهزيمة بالمشروع الخاص للخلاص الدينى والهجرة للخليج والتى حرمت الطبقة العليا القديمة مما استمرت فى السابق تتمتع به من عمالة رخيصة. وفى مقابل استراتيجيات البقاء للطبقات القديمة وحليفتها البيروقراطية الصاعدة، جاء التغيير عبر القادمين الجدد الذين ارتبط صعودهم بما تبلور خلال التسعينيات سياسات نيوليبرالية حديثة كانوا هم سادتها tycoons تميز عهدهم بالمضاربات المالية و«تصقيع» الأراضى وتطويرها(وهم شخصيات جديدة غير «القطط السمان» للعهد الساداتى..) تجد الكاتبة أن مفهومهم «للتنمية» هو المزيد والمزيد من الاستهلاك(بناء مولات، فنادق، منتجعات سياحية) مع عدم إيلاء أى اهتمام سواء منهم أو من الدولة للقطاعات الإنتاجية(ص٢٥).

وختاما، أستعيد هنا ما أوردته الكاتبة نقلا عن Zygmunt BAUMAN حول التفرقة بين أسلوبين للحياة أحدهما «معيارى» normative مبنى على الإنتاج، وآخر ظرفى سائل fluid مبنى على الاستهلاك كل شىء فيه يتم التخلص منه بعد استخدام قصير (diposable) بدءا من السلع مرورا بالعلاقات الإنسانية وانتهاء بقوة العمل (ص١٠) وهو أسلوب حياة تخشى المؤلفة أن يكون قد أصبح له اليد العليا فى مجتمعات من العالم الثالث منها مجتمعنا. ■



كتاب الزاوية

محمود محمد شاكر

رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا

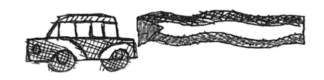
هو شيخ العربية وإمام المحققين، عاش حياته مدافعًا وحارسًا لثقافة الأمة من خلال فك رموز وقراءة طلاسم كتب التراث التى حققها والمؤلفات الأخرى التى وضعها والتى استندت إلى ثقافة واسعة وعلم غزير.

ولد العلامة الشيخ محمود محمد شاكر «أبو فهر» عام ١٩٠٩ لأسرة من أشراف جرجا بصعيد مصر. وكان أبوه من علماء الإسكندرية وتولى منصب وكيل الأزهر لمدة ٥ سنوات وأخوه العلامة أحمد شاكر أحد كبار محدثى العصر. التحق بكلية الآداب لدراسة اللغة العربية عام ١٩٢٦ لكنه حين استمع لمحاضرات الدكتور طه حسين عن الشعر الجاهلى والتى قال فيها إن غالبية الشعر الجاهلى منتحل وإنما ابتدعه الرواة فى العصر الإسلامى، قرر أن يترك الجامعة وسافر إلى الحجاز عام ١٩٢٨ حيث أنشأ مدرسة ابتدائية إلا أنه عاد بعد عام واحد ثم قرر الرد على طه حسين فأصدر كتاب «المتنبى» عام ١٩٣٦ وكان فتحًا جديدًا وتحديًا لأدباء عصره. وواصل محمود شاكر دراساته وعزلته ورسخت مكانته وعقد ندواته الفكرية فى بيته وكان يحضرها أجيال من الدارسين من العالم الإسلامى، ودخل أبو فهر فى الستينيات معركة ثقافية حادة مع الدكتور لويس عوض حول المعرى أظهر خلالها ثقافته الموسوعية ونتج عنها كتابه الشهير «أباطيل وأسمار» وهو من كبار محققى التراث ومن أشهرها تفسير الطبرى وطبقات فحول الشعراء وتهذيب الآثار للطبرى. ولبى نداء ربه فى ٦ أغسطس ١٩٩٧. واختارت «وجهات نظر» مقتطفات من كتابه «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» من إصدار مكتبة الخانجى بالقاهرة. الطبعة الثانية ٢٠٠٦.





الســـائق محمـــود!!



مـــريـــــــد البـرغـــوثى

■■ ها نحن نصل سالمين إلى أريحا كما وعد. ما زلت لا أستوعب كيف تمكنا من ذلك. ربما هو الحظ، أو الهواتف النقالة أو دهاء القرويين والرعاة، أو ربما، وهذا هو الأرجح، أن القدر لم يسمح بعد للفلسطينيين أن يموتوا بسبب حوادث الطرق، لكن ما يشغل بالى فى الحقيقة هو السائق محمود.

أقف بانتظاره تحت مظلة باب الفندق فى رام الله. يصل فى موعده تقريباً. هذا ليس غريباً على «سفريات درويش» المعروفة بالدقة، يترك محرك التاكسى دائراً وينزل تحت المطر الخفيف باتجاهى:

- السيد برغوثى؟

يتناول حقيبة السفر الصغيرة عن الأرض (حقيبتى دائماً صغيرة هنا بسبب الحواجز) يسرع ليخترع لها مكاناً فى صندوق السيارة. جيد أنه لم يحملها على ظهر السيارة كالحقائب الأخرى، وجيد أنه جمع ركابه الستة أولاً، لن نضيع وقتاً آخر فى البحث عن عناوينهم فى تلال رام الله ومنخفضاتها، أجلس فى السيارة الصفراء. أقول لنفسى هذه بداية طيبة لليوم.

ينطلق بنا إلى أريحا دون أن ينطق بكلمة، كأنه يخفى سراً ويبحث عن توقيت مناسب لإفشائه. واضح أنه قرر تجنب «حاجز قلنديا». ماسحات الزجاج لا تجدى نفعاً فى إزاحة وطأة الضباب الذى اتخذ لون التوتياء، وتخسر سباقها مع المطر الآخذ فى الاشتداد. السيارات قليلة فى الشارع والمارة أقل.

نخرج من حدود رام الله.

يبدو كل شىء عادياً إلى أن يتلقى مكالمة على هاتفه النقال، ينهيها فى ثوان، ثم يزيد سرعته بشكل ملحوظ. بعد بضعة كيلومترات يخرج عن الطريق العام. يدخل قرية أراها للمرة الأولى، لا أعرف اسمها، وأخجل أن أسأل، ينحنى شارعها الوحيد الضيق ثم يتعرج بين البيوت قبل أن نخرج منه ثانية إلى الشارع الرئيسى المرصوف.

- صباح الخير عليكم جميعاً، اسمى محمود، هذه آخر سيارة إلى الجسر اليوم، إسرائيل أبلغت الدبلوماسيين الأجانب أن الاجتياح سيتم الليلة أو غداً وطلبت منهم أن يدبروا أنفسهم. أولاد الحرام، المهم عندهم الأجانب، كأننا لسنا بشراً. الجيش مستنفر، الطرق أغلقت دون إنذار، الحواجز الطيارة فى كل مكان. الطقس سيئ كما ترون، لكن لابد أن نصل الجسر بعون الله. قهوة؟ صب للجميع يا حاج، كبير القوم خادمهم.

لا يبدو على الركاب اضطراب استثنائى من خبر الاجتياح الإسرائيلى الوشيك الذى أعلنه محمود، بل إن الراكب البدين الجالس أمامى فى المقعد الأوسط علق متهكماً:

- كأن الفيلم ناقصه «أكشن»! يقتلوننا «بالفرد» يومياً، وبين فترة وأخرى يشتاقون لقتلنا «بالجملة»، المهم أنهم اجتاحونا مائة مرة بلا فائدة، أفلسوا. و«اللى بيجرب المجرب عقله مخرب». ما عندهم إلا الطخ والقتل.

وقال جاره:

- مسخرة! من يرا اجتياحاتهم لقرانا ومخيماتنا يحسبهم خارجين لغزو الصين! مع أنه بإمكانهم اعتقال أى واحد منا أو ترحيله خارج البلاد أو حبسه أو قتله بلا دبابات وبلا مدرعات وبلا إف ١٦ حتى ياسر عرفات ذاته. مين بده يمنعهم؟

سكت لحظة ثم قال:

- تعودنا على قلة هداه البال يا عمى، يالله... ما الذى سيصيبنا أكثر مما نحن فيه؟

أنا الذى ابتعدت ثلاثين سنة عن هؤلاء الناس من أبناء بلدى وعن تفاصيل حياتهم اليومية لا أستطيع أن أستخف بخطط شخص مرعب كشارون لاجتياح مدننا وقرانا بينما هم أنفسهم، أبناء هذه المدن والقرى الذين لم تقصهم المنافى، يحولون الأمر إلى مادة للتندر. هل هو التعود؟ أم هى المكابرة؟ أم هى الثقة التى تراكمها ثقافة الإقامة فى التفاصيل؟ أم هو فعل المقاومة الذى يجسدونه بمجرد بقائهم المادى فى المكان؟

قررت أنا الآخر أن أقنع نفسى أن الأمر عادى. لم أتبرع بإبداء قلقى وجزعى مما سيفعله مهندس مجزرة صبرا وشاتيلا عندما يطلق دباباته فى شوارعنا غداً أو بعد غد.

يتناول السائق من تحت قدميه ترمس قهوة، يعطيه للشيخ الراكب بجواره ويزوده بعامود من أكواب من البلاستيك الصغيرة.

مع سكب الكوب الأول تتسابق رائحة القهوة مع رائحة الهال سباقاً ماكراً، يصل الهال أولاً بالطبع.

- الله يهدها على شارون يا رب، تفضل يا بنى، انتبه، سخنة جداً، أعط الحاجة، تفضلوا.

يصلنى الكوب من يد الفتاة الجالسة أمامى فى المقعد الأوسط، ألمسه بحرص، أنظر إليه، أرفعه إلى شفتى وأرشف رشفة أولى. هذه قهوة. ربما ينقصها فنجان أنيق لتغدو قهوة أخرى، لكنها قهوة فى وقتها تماماً. يختلف الناس فى سر القهوة وتختلف آراؤهم: الرائحة، اللون، المذاق، القوام، الخلطة، الهال، شكل الفنجان، وغير ذلك من الصفات. أما أنا فأرى أنه «التوقيت». أعظم ما فى القهوة «التوقيت»، أن تجدها فى يدك فور أن تتمناها. فمن أجمل أناقات العيش تلك اللحظة التى يتحول فيها «ترف» صغير إلى «ضرورة».

والقهوة يجب أن يقدمها لك شخص ما. القهوة كالورد، فالورد يقدمه لك سواك، ولا أحد يقدم ورداً لنفسه. وإن أعددتها لنفسك فأنت لحظتها فى عزلة حرة بلا عاشق أو عزيز، غريب فى مكانك. وإن كان هذا اختياراً فأنت تدفع ثمن حريتك، وإن كان اضطراراً فأنت فى حاجة إلى جرس الباب.

والقهوة ألوانها مذاقات وأذواق، الشقراء والغامقة والمحروقة والوسط، ومن ملامح من يقدمها لك وظروف تقديمها تكتسب معانيها المختلفة. فقهوة التعارف الأول غير قهوة الصلح بعد الخصومة وغير قهوة يرفض الضيف احتساءها قبل تلبية طلبه، وقهوة العرس غير قهوة العزاء، وقهوة المنهمك فى الكتابة غير قهوة المستغرق فى القراءة، وهى فى السفر غيرها فى الإقامة، وفى الفندق غيرها فى البيت، وقهوة الموقد

النص الكامل يصدر قريبا فى كتاب



غير قهوة الآلة. وهى من وَجْه مَرح مليح فى المقهى غيرها من وجه متجهم منكود. وإن قال لك زائر الفجر وهو ينتزعك من عائلتك ويقتادك بلطف مصطنع وابتسامة مسلحة، نريدك على فنجان قهوة «عندنا» فهذا أحد أنواع الخطف أو القتل.

يجىء عرض محمود بتقديم القهوة فى وقته، فيُشيع فىّ، مع المطر النشيط فى الخارج، بهجةً تتنافى مع الأخبار السيئة.

– لكن بلاش التدخين الله يرضى عليكم، كلها ساعة ونصل.

– أى ساعة يا حاج؟ قل ساعتين، ثلاث ساعات، أربع ساعات، يقول لك الأخ قد نصل وقد لا نصل.

ابتسم محمود وهو يصحح العبارة واثقاً:

– أنا قلت لا بد أن نصل.



وُلدٌ فى العشرينيات الأولى من عمره، عيناه الصغيرتان تجمعان السواد والبريق معاً، واثق كمصباح جديد، متحفز كمحام باغتته فكرة. حاسم الصوت بلا غلظة، نحيل حتى فى ملابسه الشتائية، ملامحه جادة لكنها مرتاحة ومريحة، مطمَئنةٌ ومُطَمْئِنَة، ورغم صغر سنه يقود السيارة باكترات المحترفين القدامى، الذى يشبه عدم الاكتراث.

بينى وبين السيدة المنقبة فى المقعد الخلفى يجلس فتى حزين، أقول لنفسى لا بد أن وراءه قصة. كل واحد فى هذه الدنيا وراءه قصة، وأنا الذى لا أحب لأحد أن يسألنى «مالك؟» لا أسأله، لكنى فى التفاتة عابرة نحوه، أجده يبتسم ابتسامة خبيثة فتقودنى عيناه إلى منظر عجيب، السيدة المنقبة ترفع بيدها اليسرى طرف برقعها وتمطه إلى الأمام، مكونة بحركتها خرطوماً طويلاً من القماش الأسود السميك، تحته نفق سرىّ يتيح ليدها اليمنى أن تدس كوب القهوة من خلاله إلى فمها بسرعة مدروسة تنم عن خبرة فى هذا المجال، ثم تسدل القماش ثانية لتغلق النفق الغذائى، بنفس السرعة، قبل أن يتمكن أحد من رؤية ما تخفى.

أتشاغل عن المنظر رغم جدته بالنسبة لى، فلم يسبق لى فى الغربة أن رأيت منقبة تتناول مشروباً أو طعاماً فى مكان عام. لكنى أسرق نظرة ثانية، فأجدها تعيد فتح نفقها الإجبارى، تدس فيه كوب القهوة بالحذر المدروس ذاته، وتتناول رشفة أخرى. يبدو الأمر روتينياً بالنسبة لها.

فى المقاعد الثلاثة الوسطى تجلس البنت الشابة ولا أرى منها إلا شعرها المعقود كذيل حصان وأذنيها الصغيرتين بلا أقراط، ورجُلان لا بد أن أحدهما قصير القامة جداً، لأن حطته وعقاله غائصان فى المقعد، أتخيله ولا أراه، والثانى هو الرجل البدين المرح. قبل أن يقدم القهوة لجاره الغائص يقول لمحمود مداعباً:

– صاحبنا «خليلى». أعطيه قهوة؟

كلنا نضحك، حتى السيدة ذات النقاب فقد ضحكت عيناها بصوت عال.

أقول لنفسى إذا فتح باب النكت على الخلايلة لن يغلق. يبدو أن محمود يريد التحريض على المزيد منها فقال:

– ما لهم الخلايلة؟

ثم أضاف مقلداً اللهجة المصرية:

– الخلايلة أجدع ناس، والخليل بلد الرجال والله

– انت خليلى يا أخ محمود؟

– كنت، وتعاليت.

يضحك الخليلى بصوت عال ونحن نضحك معه مرة أخرى،

أضاف محمود جاداً هذه المرة:

جدى مثلاً كان يروى عن الخليلى الذى وقع من الطابق السابع وقام صحيحاً معافى. قال له أحدهم «أعطيك مائة دينار واعملها مرة ثانية»، فرفض قائلاً: «ومن يضمن لى أن أسقط على رأسى مرة ثانية»؟

– أنا من مخيم الأمعرى

– والنِعم. أجدع ناس

يتندر المصريون على أهل الصعيد، والسوريون على أهل حمص، والأردنيون على أهل الطفيلة، واللبنانيون على «أبو العبد»، والعنوان الدائم للتندر هو السذاجة أو القشر. الفلسطينيون يتندرون على أهل الخليل، والعنوان الدائم للتندر هو «يباس الرأس».

يسأل الناس عادة عن آخر نكتة، لكن محمود سأل الراكب الخليلى سؤالاً غريباً فعلاً عن أول نكتة أطلقت ضد الخلايلة.

قال الخليلى الغائص فى مقعده:

– والله لا أعرف لكن جدى مثلاً كان يروى عن الخليلى الذى وقع من الطابق السابع ولم يمت وقام صحيحاً معافى. قال له أحدهم «أعطيك مائة دينار واعملها مرة ثانية»، فرفض الخليلى قائلاً: «ومن يضمن لى أن أسقط على رأسى مرة ثانية»؟

سأل محمود:

– وما هى أقسى أو أسوأ نكتة بالنسبة لأهل الخليل، أقصد النكتة التى لم تستطيعوا تقبلها؟

– لما المستوطن باروخ جولدشتاين أطلق النار على المصلين فى الحرم الابراهيمى فى الخليل وقتل ٢٩ خليلياً قال واحد بعد عدة أيام من المجزرة، «كان من الممكن أن يكون عدد الضحايا أكثر بكثير لو أن باروخ لم يصوب على رؤوسهم».

لم أكن قد سمعت بهذه النكتة من قبل رغم أن مجزرة الحرم الابراهيمى وقعت عام ١٩٩٤، لم أضحك. المجازر لفرط ما تكررت أصبحت موضع تندر ضحاياها. الضحية تسخر من ألمها تسامياً عليه واحتمالاً له. وفى هذا الصراع غير المتكافئ بين الفلسطينى الأعزل وجبروت الاحتلال المسلح بأحدث أسلحة العصر، يكره الفلسطينى أن يبدو مثيراً للشفقة. يتسلح بالضحك، والسخرية حتى من الذات، والتهكم على مأساته المتكررة دون ضوء فى آخر الاحتلال. لم تعد السجون وأوامر منع التجول والإغلاقات المتكررة والاجتياحات مادة للشكوى المأساوية بين الناس. وأنا أحار فيما إذا كان التعود ضعفاً أم قوة. فإذا كان تعود الظلم والقهر ملمحاً من ملامح العبودية واليأس، فإنه فى حالة وثوق صاحب الحق من حقه، يصبح كظماً للغيظ ومراكمة لعناصر قوة خفية. من علامات قوة المقهور السخرية من الأقوى، والاستعداد الصامت للرد فى وقت ما، حتى وإن طال. أثناء هذا الصبر يمارس المقهور شهوة الحياة بكل الحواس. ولا أكذب ممن يقول لك إن المقهور لا يفعل شيئاً بحياته وفى حياته إلا مقاومة القهر. المقهور يتشبث بأصغر المباهج المتاحة ولا يترك فرصة للحب والمرح واللعب ولهو الجسد ولهو الروح والظفر بالشهوات الغامضة والواضحة مهما عز عليه منالها ومهما صعب إليها السبيل. المحتل والسجين والمظلوم والمقموع والمغلوب على أمره يفكر أولاً بالمقاومة ويفكر أولاً أيضاً بالراحة والمسرة.

طربتُ لحكاية جميلة فعلاً رواها لى فى زيارة سابقة شاعر شاب التقيته فى مكتبة الشروق فى رام الله، عن فرحه العظيم عندما أعلنت مكبرات الصوت فجأة أمراً من الجيش الإسرائيلى بإغلاق بلدته إغلاقاً تاماً ومنع الدخول إليها أو الخروج منها، وأنه كان، فى سره، ممتناً أعظم الامتنان للجيش ويكاد يرقص فرحاً تلك الليلة، لأن الفتاة التى يحبها كانت فى زيارة لأسرته وهى ستضطر لقضاء الليل كله عندهم بسبب الإغلاق ومنع التجول، دون أن تخشى اللوم من والديها. وعندما رفع منع التجول وفتحت الحواجز فى اليوم التالى ابتهجت القرية وابتأس صديقى العاشق.

رغم ذلك أتمنى أن لا يستمر الخليلى فى رواية النكت. تضحكنى الطرفة التى تولد تلقائياً فى سياق الحديث لأنها تدل على خفة الدم وسرعة البديهة أكثر من النكت المحفوظة. على أى حال ها هو يتوقف لحسن الحظ، ويسكت طوال الطريق.

تتسلق السيارة مرتفعاً خفيفاً ثم تستوى على الشارع المعبد. أفكر فى تبادل الحديث مع الشاب الحزين بجوارى وأعدل عن الفكرة بسرعة.

السائق محمود يبدو مرتاحاً الآن على الشارع السلس، يبحث فى أزرار راديو السيارة، فجأة، يغلق الراديو ويلتقط هاتفه النقال:

– طيب طيب شكراً

يخفف السرعة دون أن يشرح لنا شيئاً. ينظر يميناً ويساراً قبل أن يهبط عن الشارع إلى حقل مجاور ثم يستدير إلى الخلف. لم تدم متعة الأسفلت أكثر من بضع دقائق. يقطع مسافة قصيرة أخرى، ويشرح لنا الأمر.

– أفلتنا من حاجز طيار. لماذا تعبس يا حاج؟ تفاءلوا بالخير تجدوه. لكل شىء حل.

– كله على الله يا ولدى.

– هل سترجعنا إلى رام الله؟ أنا طيارتى الليلة وإذا ضاعت على سأفقد المنحة وتضيع علىّ الجامعة.

يقول الفتى الجالس بجوارى بصوت مهذب، كأنه

"الســــائق محمــــود"

يحدث نفسه رغم انه يضع يده على كتف السائق ويستعد لسماع ما يطمئنه.

السائق يجيبه بصوت أبوي رغم تقاربهما في العمر:

- أنا عمري ما رجعت راكب مهما صار. بس ساعدوني إذا لزم الأمر. هذا كل ما أريده منكم. لا تخافوا. اضحك يا عمي وهون عليك. بدهم ايانا مشلولين ومرعوبين. هم مش عارفين إنا تعودنا. وانت يا صاحبي طيارتك لن تطير بدونك. أنا عمري ما رجعت راكب. اتكلوا على الله وعلي. إن شالله كله خير.

بعد دقائق يخرج مرة أخرى إلى طريق ترابي.

صمته مستمر.



لا أعرف هذه الطرق التي يسلكها، ليس فقط لشحوب ذاكرتي الجغرافية في سنوات المنفى فالحقيقة الحزينة المؤكدة في كهولتي الآن هي أنني لم أعد أعرف جغرافية بلادي، لكن السيارة في الحقيقة تخوض في الخلاء ولا علامة لوجود شوارع معبدة أو إشارات مرور أو بشر على مرمى العين. إنها تسير في الحقول، ولا أدري كيف سيقودنا هذا إلى أريحا. رقع مائية وحصى ونباتات برية متناثرة في ضباب أخذ يخف تدريجياً.

على مرمى البصر أشجار زيتون ضخمة مقتلعة من قراميها، ملقاة كجثث مهانة في العراء. أقول هذه الأشجار قتلى، وهذه البرية قبرها الجماعي المفتوح. وراء كل شجرة زيتون تقتلعها الجرافات الإسرائيلية ثمة شجرة أنساب رمزية لعائلات من الفلاحين الفلسطينيين تسقط عن الحائط. الزيتون في فلسطين ليس مجرد ملكية زراعية، إنه كرامة الناس، هو نشرة أخبارهم الشفهية، حديث مضافاتهم في ليالي السمر، بنكهم المركزي ساعة حساب الربح والخسارة، نجم موائدهم، ورفيق لقمتهم وهو بطاقة الهوية التي لا تحتاج أختاما ولا صوراً ولا تنتهي صلاحيتها بموت صاحبها، تظل تدل عليه، تحفظ اسمه وتباركه مع كل حفيد جديد وكل موسم جديد.

الزيتون هو الثمرة نفسها، الحبة الخضراء بكل درجات الأخضر، أو السوداء بكل درجات الأسود، أو ذات اللون العنابي المصقول، لوزية أو مستطيلة أو بيضاوية أو كروية، هو وصفات وفنون ومذاقات، الرصيص والمملوح والمكمور والمشطب والمحشو باللوز أو بالجزر أو بالفلفل الأحمر الحلو. الزيتون هو المونة المطمئنة، هو سداد الدين من موسم إلى موسم، وهو مهر العروس، وهو المكانة بين الناس. موسم قطافه في الخريف الساحر يحول رجال القرية ونساءها وأطفالها إلى شعراء ومغنين وزجالين يرفعون بإيقاعاتهم العمل المرهق إلى مصاف النزهات البرية والفرح الجماعي. هو الزيت المعصور في القفف الهائلة الحجم، سائلاً حائر اللون بين الأخضر البراق والذهبي الغامق، من قطفة عصيره البكر يتبادلون الهدايا، وفي جراره المصطفة في أحواش الدور، يخزنون هدوء بالهم، والأساس الذي لا غنى عنه لقوتهم كفاف يومهم، وإن اعتل أحدهم فالزيت دواؤه أيضاً يدهنون به مواضع الألم فيسكن، (أو لا يسكن لكنهم هكذا يظنون). ومن أواخره وبقاياه يصنعون الصابون في أحواش البيوت، أو يوزعونه على الدكاكين: «صابون الشكعة»، «صابون طوقان»، صابون «نابلسي حسن شاهين» وغيرها. من أخشاب فروعه الناتجة عن التقليم الموسمي ينحتون التحف والمجسمات الخشبية البديعة للمساجد والكنائس والصلبان وينحتون بكل إتقان لوحة العشاء الأخير والمذود ومشهد ميلاد المسيح، والسيدة مريم العذراء، وعلب الأرابيسك بأحجامها المختلفة المكسوة بأصداف البحر الميت، والعقود والمسابح، والخيول وقوافل الجمال. ينحتونها في ملاسة العاج ولمعانه وصلابته المدهشة. ومن نوى الزيتون المجروش يستخرجون «الجفت» الناعم وقوداً لمواقدهم إلى جانب الفحم أو بدلاً منه، يشوون على ناره المطمئنة حبات الكستناء في مربعانية الشتاء، ويتركون بكرج القهوة يغلي على مهله هادئاً، رائقاً، وسط انهيار جبال الرعد في الخارج ثم تكونها لتنهار من جديد يسبقها البرق المتردد تارة والحاسم تارة أخرى، بين مكر دعاباتهم وتندرهم على أحوالهم القاسية، والتفنن في النميمة على الغائبين، ونظرات الغزل التي تمتزج فيها الجرأة بالحياء إذا ضمت السهرة ولداً وبنتاً في زيارات الأقارب أو الجيران. من لا يفضل القهوة منهم له إبريق الشاي الأزرق وأوراق الميرمية بعطرها الجبلي المدوخ.

أقول هذه الأشجار قتلى. وهناك، في مكانين مختلفين، في اللحظة ذاتها، فلاح فارغ الكفين وجندي ممتلئ زهواً.

هناك، في اللحظة ذاتها، فلاح يحدق في السقف، وجندي يحتفل.

الرذاذ يتواصل والطريق يزداد وعورة.

أكتافنا تتلامس مع كل اهتزاز. السيدة المنقبة تلتصق أكثر فأكثر بباب السيارة وقد جعلت حقيبة يدها عازلاً إضافياً بينها وبين جارها الشاب لتزداد اطمئناناً.

لم يتحدث أي منا في أي موضوع. الكل مشغول بسلامة الوصول دون أن يبدو على أحد أنه مشغول بسلامة الوصول.

الأمر هكذا دائماً: كما يبرهن السكران سكره بإنكاره تماماً فإن إنكار الجماعة لخوفها هو برهان عليه.

فجأة يتوقف كل شيء.

الآن وقد غرزت السيارة في الطين، يوقف محمود المحرك على الفور لئلا يغوص الإطار أكثر فتتعقد الأمور.

ننزل لمعرفة ما الذي حدث.

يبدو الأمر بسيطاً والمشكلة يمكن حلها.

- دفعة صغيرة يا جماعة

نتجمع متراصين خلف السيارة، ندفعها معاً في محاولات متلاحقة قبل أن ننجح في زحزحتها، يدهشني عدم تقاعس الشيخ وعزم الشابة وتحمسها، الرجل البدين يبدو أكثرنا تفانياً، أما الريفي الغائص في مقعده فيثبت بالدليل القاطع أنه قصير جداً بالفعل. أكتم ضحكتي إذ أتذكر «صبحي الفار» ذلك الفلاح من دير غسانة، الذي عاد من بيادر القرية ليبشر رجال المضافة بوفرة محصول القمح تلك السنة وصاح بفرح زائد:

- القمح السنة ما شا الله عليه، مشيت في البيادر قبل يومين وجدته طولي بالضبط.

فقال له أبو عودة صاحب اللسان الفصيح وملك النوادر في المضافة، ملمحاً إلى قصر قامة الرجل:

- الله يرمل مرتك يا صبحي يا ابن الفار، يعني متنا من الجوع السنة!

ينطلق محمود أمتاراً بالسيارة ويتوقف بانتظارنا. ننادي على السيدة المنقبة لتلحق بنا فقد كانت انتحت جانباً أثناء عملية الإنقاذ.

الطين عالق بملابسنا وأيدينا وأحذيتنا، محمود يحضر من صندوق السيارة جالوناً صغيراً من الماء

- تفضلوا بالدور، تفضلي يا اختي، اتفضل يا حاج، اتفضل يا أستاذ.

يسكب الماء بحساب ونحن واحداً بعد الآخر نغسل أيدينا. يقدم لنا قطعة قماش من داخل السيارة نستخدمها في محاولة لإزالة بعض ما علق بملابسنا من بقع طينية ونستهلك علبة مناديل ورقية في تجفيف وجوهنا.

ما زلنا في النهار لكن الحقيقة أن المشهد ليلي إلى حد ما، بسبب كثافة الضباب في الوادي. لا بد أن نظر محمود أفضل من ٦/٦ ولا شك أن التزامه بقلة الكلام يساعده على تركيز قوته البصرية إلى حدها الأقصى. ها هو يهمس أنه لمح دبابة مختبئة وأن علينا التوقف قليلاً حتى نرى إن كانت ستمضي في سبيلها، نتوقف فعلاً ويقرر بعد دقائق أن الخطر زال ونواصل طريقنا.

أقول لنفسي: يمكن للماشي أن يقطع هذا الوادي على قدميه، يمكن للخيول والبغال أن تتدبر أمرها لاجتياز هذه التعريجات الوعرة، لكن كيف تستطيع ذلك سيارة تاكسي قديمة تحمل سبعة ركاب بحقائب سفرهم، يلاحقها الضباب والمطر وجيش «الدفاع» الإسرائيلي بكمائنه السرية خلف الأشجار؟

أقول هذا الشاب الفلسطيني يحاول صنع معجزة صغيرة دون أن يدري، يمارس بطولة لا يعي أنها بطولة. هو سائق موظف، يريد أن يتقن عمله الروتيني الذي يتقاضى منه مرتبه الشهري. الآن هو قائد هذه الرحلة ولا يريد أن يخذلنا. نحن الآن شعبه الكامل العدد المكون من شيخ وامرأتين، سافرة ومنقبة ورجل قصير القامة وآخر بدين

> "الزيتون هو نشرة أخبارهم الشفهية، حديث مضافاتهم في ليالي السمر، بنكهم المركزي ساعة حساب الربح والخسارة، نجم موائدهم، ورفيق لقمتهم."



وطالب جامعى وشاعر يدهشه ما يرى ولا يريد خدشه بالكلام.

سألت نفسى ماذا لو كنت مكانه؟ هل أستطيع أن أكون قائداً لهذه الرحلة؟

أغلب الظن أننى لن أستطيع.

أنا كاتب. يعنى أنا لا «أفعل» شيئاً. أليس هذا بائساً؟ أم أننى أسارع بلوم نفسى كعادتى كلما ساءت الأمور من حولى؟ كم مرة تمنيت لو أننى تعلمت صنعة ما، مهنة يدوية، أليس جميلاً أن يكون المرء ميكانيكياً، حداداً، مزارعاً، نجاراً، أو حتى عامل بناء يرتقى مع كل طابق إضافى إلى مرتبة أعلى ويطل فى النهاية على كسل المدينة من أعلى أسطحها، دون أى فضل من أحد، فهو الذى رفع قدميه بعَرَق يديه، ورأى ما يراه الصقر، حتى وإن غادر مجده وطار منسياً بعد ليلة الافتتاح؟

رأتنى أمى ذات يوم بعيد، وعمرى اثنا عشر عاماً ومعى أخى الأصغر علاء نحمل فأسين نحاول أن ننكش حوض بصل أخضر فى حاكورة البيت ونحن نلهث، فقالت بابتسامة وهى تقف فوق درجات البيت:

- ليس لكم والله يا أولادى إلا المدرسة، ستموتون جوعاً إذا حكم عليكم الزمان بأن تشتغلوا بأيديكم.

ثم هبطت الدرجات القليلة وأخذت منى الفأس وتتالت ضرباتها فى الحاكورة ونحن نتفرج عليها ولا أدرى بماذا أحس علاء، وأنا أحسست بالغيرة والخجل. كنت فى طفولتى أظن أنى ضعيف العضلات لأنى نحيف الجسم. سمعت أحدهم يقول إن البطاطا «بتنصّح» فأخذت أبالغ فى أكل البطاطا بكل أشكالها... ليشتد عضلى! وكلما سألتنا أمى سؤالها الصباحى ونحن نتجه إلى باب البيت فى طريقنا إلى المدرسة:

- ماذا أطبخ لكم اليوم؟

أدرت عنقى إلى الوراء وسبقت إخوتى صائحاً:

- صينية بطاطا.

صدقتنى مرة ومرتين ثم أصبحت تسخر منى، وأصبحتُ فريسةً سهلة لتندر منيف ومجيد وعلاء.

عندما نشرت ديوان شعرى الأول أعجبنى نحولى. كنت فى نوبات غبائى التى لم تطل لحسن الحظ، أستغرب «صحة» بابلو نيرودا لأنه بدين بدانة كتّاب النثر والصحفيين ومدراء الشركات. لم يخطر ببالى ممارسة أى نوع من أنواع الرياضة المنتظمة. كأنّ على الشاعر أن يبدو ذابل الجسم مخطوف اللون كأنه ساقط فى هُوّة، أو مسحوب منها للتوّ.

نحن الآن أمام «هُوّة» حقيقية.

السائق يوقف المحرك.

- انزلوا يا إخوان، سنرى ما يمكن فعله.

سننزل. وسنرى.



نحن الآن على حافة قَطْع عرضىّ ممتد فى الطريق، حولته الأمطار إلى خندق مرتجل موحل لا يمكن للسيارة اجتيازه إلا إذا حضر إله إغريقى واسع الحيلة، قادر على تغيير المصائر، فيخرجنا من هذه الورطة.

طريقنا الحالى اختلقه السائق اختلاقاً فى هذا الوادى الرمادى، كان بإمكانه السيطرة عليه، نسبياً، مادام طريقاً متصلاً، مهما تلوى أو تعرج أو ضاق، لكن الطريق انقطع الآن، لم يعد طريقا. وهذا الخندق العميق الممتد قادر فعلاً على ابتلاع عشرات السيارات.

محمود لا يبدو عليه الاضطراب، بل إنه يبدو واثقاً وهادئاً، كأن آلهة الإغريق هم أولاد عمّه اللّزَم!

ما هى إلا دقائق حتى ظهرت من بين الأشجار على الجانب المقابل من الخندق رافعةٌ ضخمة صفراء اللون تلمع تحت الرذاذ الشفاف، فيها شابان نحيلان يرتديان ملابس بسيطة، يشير أحدهما إلى محمود أن يستعد لترتيبات الإنقاذ.

محمود يأمرنا بالعودة إلى مقاعدنا داخل السيارة ليقوما هما بعملهما.

نجلس فى مقاعدنا وننتظر.

فى المستقبل، بعد سنوات من هذه الواقعة سأجتاز سيراً على الأقدام خندقاً مماثلاً عند حاجز سُردا بصحبة بعض الكتاب الأجانب، حيث يقتضى برنامجهم زيارة جامعة بير زيت، سينطلق موكب سياراتنا من رام الله ليتوقف عند حاجز سُردا فى منتصف الطريق إلى الجامعة. الجيش الإسرائيلى كان قد دمر هذا الطريق الجبلى صانعاً فيه ما يشبه خندقاً بطول ٥٠٠ متر أو أكثر قليلاً، لا يمكن اجتيازه إلا سيراً على الأقدام. وبشىء من الصعوبة. على تلة بجانب الطريق يوجد منزل كبير لأحد الفلسطينيين احتله الجيش وطرد سكانه منه وحوله إلى نقطة عسكرية لمراقبة كل شىء يتحرك، وغرفة عمليات تقرر إغلاق الطريق تماماً فى أى وقت تشاء، وغطى واجهة المنزل كلها بقماش عسكرى أخضر مخرّم تظهر من فتحاته مواسير الرشاشات المصوبة على المارة من الحاجز. توقفت السيارات التى حملتنا من رام الله، ونـنزل منها لنقطع الخندق سيراً على الأقدام. أواصل حديثاً عن المسرح مع وولى شوينكا ونحن نحاول تجنب التعثر وبجوارنا يواصل الآخرون نقاشاتهم الأدبية والسياسية وأجسامهم تدنو وتتباعد حسب وعورة الجرف: ساراماغو وجواتيسولو وبرايتنباخ وكونسولو وبانكس وبى داو ومحمود درويش ينقلون الخطى بحذر المسنين داخل ذلك الجرف ويردون تحيات المارة بجوارهم من طلاب وأساتذة وباعة متجولين، فهذا الخندق الوعر هو الطريق الوحيد لجميع المسافرين بين رام الله وكل قرى الشمال وهذا هو الوضع منذ عام كامل. يشدنى شوينكا جانباً ليفسح الطريق لشاب يحمل فلاحة مسنّة على ظهره، ويسير بها فى حذر شديد وهى تردد:

- الله يغضب عليهم دنيا وآخرة.

ثم تعيد غطاء رأسها ممسكة طرفه بين أسنانها حتى لا ينحسر تماماً عن شعرها الأبيض. سيدة أجنبية متقدمة فى السن تمشى بجوار حمار آخر وفى خُرجَيْه حقيبتا سفر تتأرجح من إحداهما بطاقة «ديلسى» تدل على ماركة الحقيبة الفخمة. لم تتخيل مصانع ديلسى أن تنقل الحمير حقائبها هنا. بعد أمتار قليلة نفسح الطريق لحمار آخر تركبه امرأة حامل ويقوده ولد عمره سبع سنوات أو أكثر قليلاً، واضح أنه يترزق بتأجير الحمار على الحاجز، يتلفت حوله مندهشاً من الوجوه الأجنبية فى هذه البقعة من العالم.

ساراماجو، وهو يتأمل المشهد ويتلفت إلى التلال وبيوت القرويين الفلسطينيين، وبنادق الجيش الإسرائيلى مصوبة علينا من بعيد، يقول بصوته العميق البالغ الوقار لليلى شهيد، سفيرتنا لدى فرنسا:

- هذا يذكّرنى بمعسكرات الاعتقال، الشعب هنا يعيش فى معسكر اعتقال، إنه معسكر اعتقال حقيقى. هذا ما أراه.

بعد اجتيازنا الخندق نصعد إلى الشارع العام، نركب سيارات أخرى أعدتها إدارة جامعة بير زيت لتكون بانتظارنا عند الطرف الآخر لنكمل طريقنا إلى الجامعة.

الوضع مختلف تماماً هذا الصباح.

نحن الآن أمام خندق مماثل لكننا فى سيارة أجرة ولا بد للسيارة ذاتها أن تجتاز بنا هذا الخندق. هذه السيارة ذاتها هى التى ستحملنا إلى أريحا، لا بديل لذلك فى هذه البرية.

تجىء تعليمات محمود:

- اربطوا الأحزمة. لا تخافوا. سنركب المراجيح

يتخذ مقعده خلف المقود بعد أن يتأكد من أن الأبواب محكمة الإغلاق، أنا أراقب ما يحدث كالمشدوه.

الذراع الضخمة للرافعة تعلو تدريجياً فى الفضاء حتى تصل إلى الارتفاع الذى قدّره قائدها. ينزلانها بالتدريج نحونا، يميلان بها قليلاً نحو اليسار ثم قليلاً نحو اليمين ثم بحرص شديد إلى الأسفل حتى تلامس السيارة تقريباً، ثم تطبق عليها بأصابع حديدية هائلة تحيط بالسيارة كما تحيط أصابع الكف بحبة رمان، ثم ترتفع بها وبنا إلى أعلى ببطء مدروس.

الرافعة تتراجع قليلاً قليلاً إلى الخلف وذراعها الطائرة بنا فى ضباب الوادى تنقلنا بحذر من حافة هاويتنا إلى حافة هاويته فى الجانب المقابل.

تبتعد الأصابع المعدنية عن جسم السيارة، تتركها تلامس الأرض برفق. هبطت بنا الأرجوحة الميكانيكية بسلام.

ننزل جميعا وينضم إلينا الإلهان الإغريقيان.

يتعانق الجميع مع الجميع (باستثناء السيدة المنقبة التى انتحت جانباً بعيداً عن

> هذا الشاب الفلسطينى يحاول صنع معجزة دون أن يدرى، يمارس بطولة لا يعى أنها بطولة. هو سائق موظف، يريد أن يتقن عمله الذى يتقاضى منه مرتبه



السائق محمود

ازدحامنا العاطفى) نجد أنفسنا نصفق واقفين.

- شكراً يا شباب، الله يعطيكم العافية.

محمود يدير أكواب القهوة على الجميع. القهوة وتوقيتها مرة أخرى. خفت سخونتها بعض الشىء لكنها ظلت طيبة المذاق.

الرجل المسن يبتعد عنا دون استئذان، يختفى وراء شجرة قريبة لدقائق قليلة، يعود بعدها ويده تغلق إبزيم حزامه الجلدى معتذراً بحياء واضح عن تسببه فى تأخيرنا:

- لعنة الله على السكرى يا خال.

يتمنى لنا المنقذان الغامضان رحلة موفقة فى باقى الطريق. يعيدان الرافعة إلى مخبئها وراء الأشجار، ربما بانتظار مهمة إنقاذ أخرى.

يدور المحرك من جديد. تنطلق سيارتنا فى الوادى. بعد فترة من التقافز والاهتزاز يباغتنا حرير الإسفلت. ننظر إلى بعضنا فى ارتياح وفرح كأننا حققنا أملاً. يقفز إلى رأسى بيت واحد من قصيدة لمحمد مهدى الجواهرى الذى مات غريباً متحسراً على بغداد:

يا دجلة الخير قد هانت مطامحنا
حتى لأدنى طماح غير مضمون

أى والله أيها الشاعر. ألم يكن أقصى طموحنا فى هذا الصباح المبارك الوصول إلى «الزفت»؟ إلى الإسفلت؟

هل تخيلت يوماً أن أيكون «الزفت» طموحاً يا أبا فرات؟

هل تخيلت يوماً أن شارعاً معبداً بالزفت يصبح حلماً من أحلام الشعوب؟

عليك أن تتخيل يا أبا فرات،

لا بد أن تتخيل.

وإلا ما معنى الاحتلال؟

نحظى بنعيم بضعة كيلومترات ناعمة على الطريق، نحظى بطموحنا، وتظهر فى المدى أطراف أريحا.

فى المستقبل سيشرح لى أصدقاء وأقارب ممن تعودوا على التنقل بين فلسطين والأردن عبر الجسر أن ما وقع لى فى رحلتى الغريبة أمر متكرر ومألوف وخصوصاً حكاية الرافعة التى تنقذ السيارات العالقة. الإسرائيليون يعرفون اننا فى أيام الإغلاقات نسلك طرقاً التفافية تجنباً لحواجزهم فصاروا يقطعونها بالديناميت وبالجرافات لتكوين قنوات وخنادق وجروف لا يمكن للسيارات اجتيازها. فما الذى حدث؟ اخترع القرويون والرعاة القريبون هذه الطريقة ليفيدوا ويستفيدوا. يستأجرون من إحدى الورش هذا الونش ويأخذون مائة شيكل من كل سيارة يقومون بإنقاذها. حقهم. تعبهم. المهم أن كل عقدة يضعها الاحتلال يخترع لها اليأس الفلسطينى حلاً.



يجيء صوت محمود:

- من الآن حتى أريحا، لا جيش ولا حواجز ولا ونشات ولا مراجيح فى الهوا. الحمد لله على السلامة يا جماعة.

الرجل المسن يقول ضاحكاً:

- والله وركبتونى المراجيح على كبر يا أولاد. عمرى ما تمرجحت إلا اليوم. كنت أدوخ من منظر دولاب الهوا وأستغرب كيف يركبه الصغار. ستضحك أم العيال علىّ وتجعلنى فرجة أى والله. الله يهدها عليهم يا رب.

أردت أن أقص عليه كيف، فى عاصفة عاتية، علق «تميم» وصديقه «زيد» على قمة دولاب الهواء فى مدينة ملاهى الأطفال فى بودابست وكيف تم إنقاذهما، لكنى لم أجد ذلك مناسباً لما نحن فيه، هذا ثانياً، أما أولاً، فلأننى تعودت أن ألتزم الصمت إذا كنت فى سيارة أو حافلة أو طابور انتظاربين أناس لا أعرفهم، والمرء لا يعرف إلى أى جهة قد يرسله الحديث مع رفاق سفر غرباء. قد يكون سؤالك، أو جوابك عن سؤال، محرجاً أو خطراً أو قد يستفز ذكرى مؤلمة. فى ظروف الاحتلال قد تجد نفسك تعرف ما لا ينبغى أن تعرفه، ومن منا يدرى أين يجره لسانه؟ قد تبدى إعجابك بالمقاومين والمطاردين فى الجبال المطلوبين لإسرائيل وتحكى قصة واحد منهم تعرفه بحكم القرابة أو الصداقة أو الجيرة، ويكون محدثك أحد العملاء الذين جندتهم إسرائيل وهم للأسف بالآلاف، واشترطت اسرائيل (ووافق مفاوضونا العباقرة) أنه ليس من حق القيادة الفلسطينية معاقبتهم أو مطاردتهم أو حتى محاكمتهم، هم يسرحون بيننا وبعضهم معروف للناس وإنك قد تجد مجلس عزاء لشهيد بينما ابن خالته مثلاً أو ابن عمه أو صهره العميل يتلقى العزاء فى قريبه البطل بحكم الروابط العائلية الريفية، ويكون حزن العميل على الفقيد أصيلاً أيضاً، لقد حدث هذا فى دير غسانة كما أنه حدث ويحدث فى سواها من القرى. ألم أقل فى أكثر من مناسبة «إن الحياة تستعصى على التبسيط»؟ وقد تشكو مثلاً من الغلاء الفاحش وتشتم طمع التجار الذين لا يراعون أبناء بلدهم حتى فى ظروف الحصار، فيكون من تشكو له تاجراً منهم، يحتكر سلعة أو يهربها. قد تشكو الفساد فى السلطة الفلسطينية فتجد نفسك تشكو لفاسد كبير أو فاسد متوسط أو فاسد صغير أو لواحدة أو واحد من أقرباء الفاسدين. المحاذير الأخرى عديدة كأن تفسد على نفسك وعلى غيرك الجو بنكتة لا تضحك، كما فعل الخليلى.

> هل تخيلت يوماً أن يكون «الزفت» طموحاً يا أبا فرات؟ هل تخيلت يوماً أن شارعاً معبداً بالزفت يصبح حلماً من أحلام شعب؟

لكن المؤكد فى كل الأحوال أن إضرابى عن الكلام يتسبب فى خسارة صداقات جميلة وأحياناً نادرة تحتملها رفقة الأسفار فى الظروف العادية. لكن الاحتلال لا يسمح أبداً «بالظروف العادية». الاحتلال يفسد المسافات بين البشر. أسرح متأملاً هذه الفكرة التى وردت بخاطرى، وسأتأملها بعناية فى وقت ما.

عندما يرتفع الإنسان عن الأرض فإن شيئاً من الوحشة والعزلة يخالط هذا السمو المفاجئ. هذا يحدث لأى سبب حتى ولو فى أرجوحة أو فى مصعد كهربائى أو طائرة: هكذا يلد تفكيرى فى وحشة السائق محمود المنتظرة وقلقى عليه.

هنا يولد فى رأسى سؤال سيظل يشغلنى لسنوات بعد ذلك: كيف سيعود محمود وحده إلى رام الله فى هذه الظروف العجيبة؟

ألا يفكر فى أن مخاطر هذه الطرقات الموحلة المحطمة ستكون بانتظار عودته إلى أهله بعد يوم عمل، كان يفترض أن يكون عادياً، ولم يكن عادياً أبداً؟ هل سيعود اليوم؟ هل سيقضى ليلته فى أريحا انتظاراً لصباح الغد؟ وماذا لو دام الإغلاق أياماً؟ أنا فخور به، معجب باتزانه وحسن تدبيره، بل إن سلوكه وحيويته وشبابه وثقته تورطنى الآن فى نوبة تفاؤل بأن الفلسطينيين هم الأقوى فى هذا الصراع الطويل مع الاحتلال. كل ما أريده الآن هو الاهتداء إلى وسيلة أشكر فيها هذا الفتى دون أن أجرح فعله بكلام يقلد الكلام.

فى لحظة معانقته لى أقرر أن الصمت هو أفضل ما لدىّ. فى أقل من ثانية أطرد فكرة عابرة بتقديم مال إضافى لهذا الشاب. وأتأمل مفارقة عجيبة: قد يدخل المرء بسهولة فى مشاجرة مع خصم وقد ينزلق بلا تفكير إلى التلفظ بأبذأ الكلمات التى قد يندم عليها بعد حين، لكنه يجد صعوبة عند اختيار كلمة طيبة للثناء على صديق، فبعض الشكر يبخس الفضل أحياناً. وهذا ما أخشى ارتكابه الآن.

أنا فخور به حقاً ولا يمكننى أن أقول له ذلك لأن فى العبارة مسحة من التعالى أو الأبوية أو التراتبية التى تلغى التساوى الإنسانى. وهل يمكن أن أوصل له هذا الفخر... بالبقشيش؟

وأنا قلق عليه حقاً، أفكر أن أقول له «دير بالك على حالك»، ولا أقولها، هذه العبارة المحببة الحنون هى من أجمل ما يمكن للمرء أن يسمعه من شخص يعنيه. تقولها لى أمى كلما خرجت من البيت، وكلما سافرت، وكلما غبت فى مهمة أو عمل، كيف أدير بالى على حالى يا أمى؟ إذا أراد حاكم عربى اعتقالى فهو بلا شك سيعتقلنى وإذا أراد شرطى ركلى بقدميه فهو بلا شك سيركلنى، وإذا أرادت دولة عربية شقيقة محترمة أن تطردنى فإنها ستطردنى.

أريد أن أقول له «الله معك». فأتذكر طرفة لا تنسى حول مؤازرة الله للفلسطينيين بين تكرار الشيخ فيصر مؤذن مسجد دير غسانة أن الله لا يقف معنا لأننا ابتعدنا عن دينه، وبين تعليق الحاجة وصال، أم نبيل، حول هزيمة العرب فى عام ١٩٦٧ وانتصار إسرائيل على مصر وسوريا والأردن فى ستة أيام، عندما صرخت بأعلى صوتها رافعة ذراعيها فى وجه مراسل صحفى لا تعرف لغته، وهى تكاد تفقد عقلها:

- لا نفعتنا صلاة ولا شفع لنا صوم يا بنيى، سبحانه طلع لابس برنيطة وشورت، وناقصه يرخى السوالف.



ثم تدرك أن السخط ورطها فى عبارة شائكة فتتمتم فى سرها:

- أستغفر الله العظيم

لا أقول لمحمود شيئاً. أقول لنفسى: سأكتبه. سأكتب السائق محمود. سأسجل ما فعل بالضبط. كما فعله بالضبط. سأكتبه. هذا واجبى. أنا كاتبٌ وهذا عملى. قام هو بعمله، وذات يوم سأقوم أنا بعملى أيضاً. وها أنا أفعل.

نصل إلى استراحة أريحا.

ننزل حقائبنا، يدفع كل منا الأجرة لمحمود مضافاً إليها نصيب كل منا من أجرة الرافعة المباركة.

حافلة الجسر واقفة بانتظار ركاب يملأون مقاعدها. نضع حقائبنا فى الحجرات المخصصة لها أسفل الحافلة.

نودع محمود. يصافحنا متمنياً لنا رحلة طيبة إلى عمان.

أقف فى طابور غير منتظم يتدافع فيه الناس، فى انتظار ختم أوراقى.

فى الطابور الطويل المجاور أرى السيدة المنقبة ترفع النقاب بتردد عن وجهها والشرطية الإسرائيلية تقول لها إرفعيه كله فتفعل بانصياع كامل. واضح أنها تريد للكاميرات الأمنية أو للضابط الجالس فى الكابينة العليا خلف الزجاج المدخن أن يتعرف على وجه المسافرة بوضوح. السيدة تعيد البرقع بسرعة وتتلفت يميناً ويساراً نحو الطوابير المجاورة تحيرها معرفة من منا رأى وجهها سافراً.

يتزاحم المنتظرون محاولين تخطى بعضهم وسط احتجاجات المتقدمين فى الطابور على مضايقيهم.

يعلو صوت رجل قصير القامة أصلع:

- يا جماعة صفوا بالدور. عيب عليكم، خلينا نخلص.

ولكن لا حياة لمن تنادى.

يلاحظ الضابط الإسرائيلى الجلبة، فيقف ويصرخ فى الجميع أن يقفوا صفاً واحداً.

يقفون صفاً واحداً على الفور.

الرجل الأصلع القصير أخذ يضرب كفاً بكف:

- عجبك يا أستاذ؟ شعبك لا يأتى بالحسنى، انبحّ صوتى ولم يسمع كلامى أحد لكن أصغر «شلومو» يحكمهم كلهم كالغنم! لا حول ولا قوة إلا بالله. حسبى الله ونعم الوكيل.

من نقطة الشرطة الإسرائيلية على الجسر إلى نقطة الشرطة الأردنية، علينا تبديل الحافلات، حافلتنا توصلنا إلى أرض ترابية تتناثر عليها حقائبنا بشكل همجى غالباً ما يؤدى إلى تلف أجزاء منها أو تناثر محتوياتها، واتساخها الأكيد فى كل الحالات خصوصاً فى الأيام الماطرة، وعلينا النزول مسرعين متزاحمين بشكل مثير للاشمئزاز كقطيع آدمىّ تصاعدت أنانية أفراده إلى حد تجاهل الأضعف من المسنين وثقيلى الحركة والمهذبين ليعثر كل راكب على حقيبته الملقاة وسط كوم عشوائى ليضعها بيديه فى الحافلة الجديدة التى ستقطع مسافة قصيرة إلى نقطة الشرطة الأردنية.

يصيح شخص أُدركُ من لهجته أنه نابلسى:

- محمد، معك وضوء؟
- آ يابا، متوضى الحمدلله
- طيب يالله نخطف صلاة العصر
- إنت سمعت الأدان يابا؟
- الله يقصف عمرك شو أهبل. هو فى حدا بيأذّن هون؟ ولك ما فى إيدك ساعة قد ساعة الحيط؟ ولك صار ميعادها.

بين الحقائب المتناثرة يقف النابلسى وابنه للصلاة فينضم إليهم معظم الذكور من الركاب فنضطر جميعاً لانتظار انتهائهم من الصلاة، فمن يجرؤ على انتقاد الصلاة؟

أتوقف قليلاً عند ظاهرة «العلنية الإسلامية» فى المجتمع الفلسطينى والعربى وهى ظاهرة تتجلى الآن فى الشوارع والأسواق ووسائل المواصلات والجامعات وحتى فى المدارس الابتدائية. وأقول من الواضح أن المجتمع الفلسطينى بعد أن تكشفت له رذائل اتفاقية أوسلو فى الواقع اليومى الملموس بدأ يميل لحركة حماس لأنها تبدو له أقل فساداً، وربما فسرت الخلفية الفكرية لحماس القادمة من جماعة «الإخوان المسلمين» هذا التركيز العلنى على الزى والحجاب واللحية والصلاة على الأرصفة وفى أماكن العمل وفى الأسفار الذى يوحى بالانتماء إلى الجماعة.

فى المستقبل سيدهشنى جداً أن أرى كل طاقم المضيفين فى شركة مصر للطيران يؤدون الصلاة على ارتفاع ٣٩ ألف قدم فى رحلة بين القاهرة ومدريد.

نجلس فى الحافلة الجديدة بانتظارهم ثم نمضى نحو نقطة الشرطة الأردنية. نصل. يصعد شرطى أردنى، يجمع الهويات وجوازات السفر من كل الركاب ويغادر بعد أن يأمر سائق الحافلة بإبقاء الأبواب مغلقة علينا إلى حين تلقيه إذناً بفتحها من المسئولين بالداخل.

فى الصيف تصل حرارة الجو ورطوبته فى هذه البقعة من العالم أقصى ذراها، وقد تصل الخمسين درجة مئوية، وإن كانت هيئات الأرصاد الجوية تبقيها فى حدود الأربعينيات القصوى لسبب لا أعلمه. نحن الآن فى الشتاء والانتظار لا يضير، لكن تكرر الانتظار كل حين هو المزعج.

فى هذا الانتظار أيضاً أدخل فى صَدَفتى. أغدو وحيداً مع أصوات ومشاهد وعلامات استفهام وعلامات تعجب تخصنى، كأن مخزناً هائلاً مهجوراً يفتح أبوابه لى أو كأنى أصبح مُتْحَف نفسى وزائره الوحيد وقد نام الحراس وأُغلِقَت علىّ الأبواب. ألوم أفعالى أو قلّتَها، أواجه عيوبى كما يفعل بطلٌ مسرحىّ شجاع. أو أختلق لنفسى المبررات والأعذار كأى جبان. أصبح قاضياً صارماً لا يقبل التواطؤ مع الحبيب أو القريب وفى نفس الوقت أصبح القاضى المرتشى المتهاون الذى ينسحب من الصعوبية إيثاراً للراحة وأفتح عينىّ الصغيرتين فجأة، على ما استقرّ فى جسدى من أمراض «المثقفين».

أقول لست إلا شاعراً فلماذا علىّ أن أنتظر على كل أنواع الحدود؟

لماذا أطرد من بلد وأسجن فى آخر؟

لماذا لا أستطيع أن أتحمل ما تتحمله الجدات البدينات والحراثون الشباب بوجوههم النحاسية الوسيمة والأطفال الذين «تعودوا» على الاحتلال حتى... أحرجوه؟

أسمع صوتاً بداخلى يعلن اشمئزازه من رخاوة بعض المثقفين وشكواهم الدائمة، أشعر أننى فى النهاية شخص سيئ إذا قورنت بأصحاب التضحيات الصابرين، أقول لنفسى:

- ما من كاتب يَستَحِقُ مالاً أو مجداً بينما شعبه يتعذّب، حتى لو كان أفضل من يُعَبِّر عن هذا العذاب.

أقول ليتنى كنت مزارعاً فالمزارع لا ينتظر إلا المطر، وهذا أسهل من انتظار تحرك هذه الحافلة قبل أن أفقد صوابى. أريد أن أصل إلى البيت وأريد أن أنام.

يسمح لنا الشرطى الأردنى بالنزول من الحافلة ونتجه إلى حاجز الجوازات ثم إلى حقائبنا ثم إلى الشارع. الوقت يدخل فى الغروب الآن. سأكون فى بيتنا فى الشميسانى قبل أن تذهب الوالدة للنوم.

عندما أجتاز الجسر وأدخل الأراضى الأردنية تحل فى جسدى السكينة، وأستعيد الشعور بأن الأمور عادية على الأقل، أصبح مسافراً مطمئناً أستطيع التلهى بمشاهدة الأشجار الراكضة بجانب السيارة وتأمل حقول الموز وأزهار الدفلى والشوارع الخالية من نقاط التفتيش والحواجز وأبراج الحراسة.

تبدو الأردن للخارج من فلسطين المحتلة نعمةً حقيقية. لا حواجز ولا توقيف ولا مستوطنين ولا دبابات. هنا تستطيع أن تقيس المسافات نفس القياس دائماً، تعرف كم دقيقة تقريباً بقى لك لتصل من مكانك إلى أى مكان.

آخذ سيارة لوحدى إلى عمان. أريد أن أخلو بنفسى. أريد أن أستعيد هذه الرحلة من أولها حتى الآن. وأريد أن أدخن فى الطريق.

أمامى نصف ساعة حتى أصل. أضع شريحة رقمى الأردنى فى هاتفى النقال واتصل برضوى فى القاهرة:

- أخيراً أنا فى طريقى إلى الشميسانى،

ثم أتصل بالوالدة فى عمان،

- شو عندك عشا يامه؟

فى الصباح، يتناثر القتلى والجرحى بالعشرات. شاشات التليفزيون تتلون بالأحمر وتكاد تفلقها قذائف الدبابات التى تدك الحياة بلا انقطاع. الثياب الطويلة المطرّزة على أجساد الفلاحات تميل على وجوه القتلى، وأذرعهنّ تهز الأجساد المسجاة لعلها تستيقظ، وتسبق الشفاه فى المناداة على من لن يسمع صوتاً ولن يردّ نداءً، إلى الأبد.

كل نشرات الأخبار تبدأ بأنباء اجتياح الجيش الإسرائيلى لرام الله. ■

«فى المستقبل سيدهشنى جدا أن أرى كل طاقم المضيفين فى شركة مصر للطيران يؤدون الصلاة على ارتفاع ٣٩ ألف قدم فى رحلة بين القاهرة ومدريد»

فضل مصطفى النقيب





كان الشاعر ت. س. اليوت يلخص القضية التى نحن بصددها بقوله: الشعراء السيئون يقترضون من الآخرين، أما الشعراء الجيدون فإنهم يسرقون الآخرين.

لم يكن جورج حبش شاعراً . فلقد عاش طوال حياته وهو يناضل من أجل استرداد ما سرقوه من أرضه وشعبه ووطنه.

ولقد تميز ذلك النضال، فى أن صاحبه تمكن من الاحتفاظ بالأهداف التى انخرط فى النضال من أجل تحقيقها ، وعلى امتداد ستة عقود، بينما تراجع كثير من القادة الفلسطينيين الآخرين عن تلك الأهداف. ولقد تمكن من ذلك لأنه فهم معنى النضال طوال حياته بطريقة واحدة، وهو أنه الوسيلة التى يستعملها من أجل الحصول على «القوة» لدعم «الحق»، ولم يفهمه أبداً على أنه وسيلة استخدام «الحق» من أجل الحصول على «القوة». ولذلك كان من القادة القلائل الذين تصرفوا طوال تلك العقود على أساس أن الوطن هو «فلسطين» وليس «القضية الفلسطينية» ولذلك ظل قادراً على أن يفهم العلاقة الحقيقية التى تربط أى حدث بفلسطين. أى كيف تكونت بدايات ذلك الحدث فى «الماضى الفلسطينى» وكيف تطورت حتى وصلت إلى «الحاضر الفلسطينى» وما هى احتمالات صيرورة الحدث فى «المستقبل الفلسطينى». وبسبب هذا الفهم ظل دائماً قادراً على أن يتعامل مع الواقع بكل أبعاده المرئية والخفية وأن يتجنب الوقوع فى الأوهام التى تخلقها حوادث عارضة.

فى البداية تشكل فهم جورج حبش لحجم النكبة بشكل غريزى، ففى عمر ٢٣ سنة وجد نفسه فى الجامعة الأمريكية فى بيروت وقد تم طرده من بلده وتشريد معظم شعبه. وكان طبيعياً جداً أن يشعر بالدفء الغامر وهو يجد طلاباً عرباً ليسوا فلسطينيين يتحرقون مثله لعمل شىء من أجل فلسطين وكان طبيعياً جداً أن يتحول ذلك الشعور إلى تأمل وتفكير وهو يستمع إلى استاذ مرموق (قسطنطين زريق) يتحدث عن معنى النكبة وأنها نكبة لكل العرب وليست خاصة بفلسطين.

من ذلك الشعور الدافئ وذلك التأمل والتفكير تكرس فى وعى جورج حبش العلاقة الجدلية بين نكبة فلسطين وواقع التجزئة المفروض بقوة الاستعمار فى الوطن العربى. فنكبة فلسطين وقيام إسرائيل حدثا بسبب الضعف الذى كرسته التجزئة فى الوطن العربى وإسرائيل بدورها ستعمل على الإبقاء على الضعف العربى عن طريق الحفاظ على التجزئة ومنع الوحدة.

من ذلك التأمل والتفكير ولدت حركة القوميين العرب كرد فعل مباشر للنكبة ويلبى حاجتين غريزيتين شعر بهما كل رجل فلسطينى وكل امرأة فلسطينية بعد نكبة ١٩٤٨.

كانت هناك حاجة ملحة للانتماء لكيان أكبر من المخيم واللجوء والتشرد وفى حركة القوميين العرب كان الانتماء إلى الأمة العربية ذات التاريخ المجيد والتى كان لها دور أساسى فى تاريخ الحضارة الإنسانية.

وكانت هناك حاجة ملحة لاكتشاف طريق العودة إلى فلسطين وتحديد أساليب النضال القادرة على تمهيد ذلك الطريق والسير فيه بسرعة. وفى حركة القوميين العرب كان طريق العودة يتحدد فى الالتزام بالنضال الهادف إلى بناء المجتمع العربى الجديد على أسس نهضوية متحررة من كل أسباب التأخر والضعف حتى يكون قادراً على تحطيم التجزئة التى فرضها الاستعمار وإقامة دولة الوحدة وجيشها القادر على تحرير فلسطين.

تميزت حركة القوميين العرب بصفتين هامتين كان لهما تأثير كبير على مسيرتها السياسية. الصفة الأولى أنها لم تتبن «القومية» كأيديولوجية وإنما كانتماء نابع من التاريخ والجغرافيا والثقافة وكان ذلك واضحاً جداً بتأثرها بأفكار قسطنطين زريق وساطع الحصرى والصفة الثانية أنها التزمت بالأسلوب الثورى وليس بأسلوب التطور التدريجى فى العمل السياسى ولذلك كانت تنمو بأجواء مهيأة لتكريس الالتزام بمفهوم ضرورة الثورة على الأنظمة السياسية القائمة فى البلدان العربية واستبدالها بأنظمة مغايرة فى التوجه والممارسة وقادرة على مقاومة الاستعمار وتحقيق الوحدة والتصدى للمعركة التاريخية مع إسرائيل.

ولقد شكلت هاتان الصفتان السبب الرئيسى الذى جعل حركة القوميين العرب، بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو، من أشد المتحمسين والمؤيدين لنهج عبد الناصر الثورى ومن أول الداعين إلى التماهى والانخراط فى التيار الناصرى.: فلقد كان الالتزام الناصرى بالقومية العربية مبنياً أيضاً على أسس التاريخ والجغرافيا والثقافة وليس الفكر الأيديولوجى وكان التزام التيار الناصرى بالأسلوب الثورى قد ألهب عاطفة وخيال الجماهير العربية بشكل غير مسبوق.

كانت حركة القوميين العرب حركة حقيقية، متطورة، حية، وككل الكائنات الحية كان لها وقت حياة وكان لها وقت موت.

عاشت الحركة وناضلت طوال سنوات الخمسينيات والستينيات من أجل تحطيم التجزئة وإقامة دولة الوحدة، وعندما توقفت معارك النضال تلك بتأثير هزيمة ١٩٦٧ توقفت الحركة عن التنفس والنمو والحياة. وبذلك تجنبت حركة القوميين العرب مصير بعض الحركات السياسية التى تأسست قبلها أو بعدها وانتهت بعد عشرات السنين إلى كائنات غريبة عجيبة لا هى حية ولا هى ميتة.

طرحت هزيمة ١٩٦٧ مرة أخرى



موضوعى الانتماء وطريق العودة على التساؤل، وإذا كانت فداحة الهزيمة العسكرية للجيوش العربية قد كرست على الفور تغييراً جذرياً فى مفهوم «طريق العودة»، أسقط أسلوب الاعتماد على دولة الوحدة العربية القادرة على تعبئة الجماهير العربية وإعداد جيش قادر على خوض معركة التحرير، واستبدله بمفهوم الاعتماد على الشعب الفلسطينى فى خوض معركة تحرير وطنه بأسلوب حرب التحرير الشعبية، فإن الإجماع على تبنى ذلك الأسلوب لم يصاحبه إجماع فى موضوع الانتماء. إذ أفرزت الهزيمة فى مجال الانتماء تيارين جديدين فى صفوف الشعب الفلسطينى.

التيار الأول رأى أن الهزيمة حدثت تحت راية «الانتماء القومى» الذى جعل الشعب الفلسطينى يغيب عن ساحة المعركة، ولذلك فإن الرد الطبيعى على الهزيمة يبدأ عندما يتسلم الشعب الفلسطينى زمام قضيته بيده ويحررها من «الوصاية العربية»، ويشرع فى بناء مشروع وطنى فلسطينى يعتمد على الدعم العربى ولكنه فى الوقت نفسه يحتفظ بالقدرة على القرار المستقل.

أما التيار الثانى فقد رأى أن الهزيمة أثبتت أنه ليس صحيحاً أن لكل طبقات الأمة العربية مصلحة واحدة فى الصراع ضد إسرائيل وخوض معركة تحرير فلسطين، وأن هناك أنظمة تمثل مصالح فئات وطبقات عربية مرتبطة بالإمبريالية الأمريكية المتحالفة عضوياً مع إسرائيل، ولهذا فإن الصراع ضد إسرائيل هو بحكم طبائع الأمور صراع ضد الأنظمة الرجعية العربية وضد الطبقات البرجوازية العربية، أى أن أصحاب المصلحة الحقيقية فى خوض ذلك الصراع والاستمرار فيه هم جماهير العمال والفلاحين المتضررة من تحالف الإمبريالية والرجعية وإسرائيل.



فى البداية كان التركيز على «طريق العودة»، فقط ولذلك ولدت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كتجمع جبهوى لبضعة تنظيمات فلسطينية مقاتلة ملتزمة بأسلوب الكفاح المسلح وحرب التحرير الشعبية. ولكن، بعد سنوات قليلة، برزت خلالها انقسامات وصراعات فكرية وسياسية كثيرة احتل موضوع «الانتماء» فيها مكاناً بارزاً، حسم الأمر واتجهت الجبهة إلى أن تصبح حزباً ثورياً مقاتلاً متسلحاً بالنظرية الماركسية- اللينينية.

وكما كان لجورج حبش دور رئيسى فى تأسيس حركة القوميين العرب بعد نكبة ١٩٤٨ كان له أيضاً دور رئيسى فى تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعد هزيمة ١٩٦٧.

حمل التوجه الجديد فى الساحة الفلسطينية، بعد هزيمة ١٩٦٧، احتمالات إيجابية كثيرة كما حمل احتمالات سلبية كثيرة. ولا يوجد عاقل لا يعترف الآن، وبعد أكثر من أربعين سنة، أن المحصلة كانت على العموم سلبية على الرغم من كل التضحيات الهائلة التى قدمها الشعب الفلسطينى والشعب العربى فى لبنان ومصر وسورية.. وفى هذا المجال يبرز دور جورج حبش فى أنه كان نموذجا من القادة القلائل الذين اتسمت قيادتهم باستمرار النضال من أجل دعم وتعزيز العوامل الإيجابية ومحاربة العوامل السلبية. ومن الممكن تحديد دور جورج حبش الإيجابى عبر استعراض سريع للتوجهات الثلاثة التى تكرست فى الساحة الفلسطينية كنتيجة لهزيمة ١٩٦٧.

كانت حركة فتح من أول من طرح فكرة عدم جدوى خوض الصراع مع إسرائيل بأسلوب حرب الجيوش النظامية وضرورة التزام حرب التحرير الشعبية. وكان العامل الإيجابى فى هذا الطرح هو أن فيه قراءة واقعية لميزان القوى بين الطرفين. ولكنه فى نفس الوقت كان مبنياً على تناقض صارخ تمثل فى أن فتح طرحت مقولة «عدم التدخل فى الشئون العربية» فى نفس الوقت الذى بدأت فيه بتكوين سلطة فلسطينية مقاتلة على الأراضى العربية، مما كان لا بد أن يقود إلى الاصطدام بسلطة الأنظمة العربية المعنية. وهذا ما حصل بالفعل فى الحروب الأهلية التى اندلعت فى الأردن ولبنان. وفى هذا المجال يمكن تسجيل نقطتين هامتين:

الأولى هى أنه بينما ارتكبت جميع الفصائل الفلسطينية بما فيها الجبهة الشعبية، فى تلك الحروب، أخطاء وتجاوزات وحماقات كثيرة،إلا أنه من الممكن القول أن نصيب الجبهة الشعبية من تلك الإخفاقات كان الأقل.

والنقطة الثانية هى أن جميع التحالفات التى عقدتها الجبهة الشعبية خلال تلك الحروب كانت خاضعة بشكل صارم لتوجه الجبهة الأساسى ضد قوى الإمبريالية الأمريكية والرجعية العربية. وهذا لم يكن الحال بالنسبة لبقية الفصائل الفلسطينية.

وفى هاتين النقطتين كان لقيادة جورج حبش دور رئيسى فى حسم خيارات الجبهة وعدم الانجرار وراء الممارسات الخاطئة التى شاعت فى المشهد الفلسطينى.

وفى موضوع التوجه نحو إعطاء الشعب الفلسطينى الدور المحورى فى تحرير أرضه واعتبار أن الدور العربى لا يتخطى دور الدعم والمساندة، فقد كان ذلك ينطوى فى البداية على عوامل إيجابية كثيرة تتمحور حول تعريف العالم بالقضية الفلسطينية كقضية تخص شعباً محروماً من مزاولة حقه فى تقرير المصير وليست مجرد قضية لاجئين. وقد حقق النضال الفلسطينى فى ذلك المجال إنجازات هامة، وخصوصاً بعد اعتراف الجامعة العربية بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعى وحيد للشعب الفلسطينى، وكذلك اعتراف الأمم المتحدة بها ومنحها صفة مراقب. وبشكل عام فقد نجحت منظمة التحرير فى تكريس مكانتها فى العالم كحركة تمثل شعباً يخوض معركة التحرر الوطنى.

فلسطين: ٦٠ عاما

تكرس فى وعى جورج حبش العلاقة الجدلية بين نكبة فلسطين وواقع التجزئة المفروض بقوة الاستعمار فى الوطن العربى

إنما فى الوقت نفسه، كانت هناك ممارسات من قبل قيادة فتح، التى احتكرت قيادة المنظمة طوال الوقت، أدت إلى فك ارتباط القضية الفلسطينية بالقضية القومية وحصول تلك القيادة على حرية اتخاذ القرارات وتقديم التنازلات. وهذا ما قاد أخيراً إلى اتفاقيات أوسلو والاعتراف بإسرائيل دون أن تعترف الأخيرة بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير المصير، وإلى الكيان المشوه الذى نجم عن تلك الاتفاقيات والكوارث الداخلية والخارجية التى عصفت، وما زالت، تعصف به، والتى لا نرى حاجة هنا للدخول فى تفاصيلها.

وقد تصدت الجبهة الشعبية بشكل دائم لتلك الممارسات وكان جورج حبش خلال سنوات السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات من أشد المعارضين لنهج القيادة غير المسئول فى منظمة التحرير ومن أشد الداعين لإعادة بناء أجهزة المنظمة على أسس ديمقراطية سليمة تحررها من قبضة القيادة الفردية وتحرر مؤسساتها وأجهزتها من استشراء داء الفساد والفوضى وعدم المبالاة.

ولكن الجبهة الشعبية لم تكن فى وضع يسمح لها بإحداث التغيير المطلوب فى الساحة الفلسطينية لأن حجمها كان صغيراً ونفوذها بين الناس أقل كثيراً من نفوذ فتح، وبسبب ذلك الانشقاقات التى حصلت فيها وأدت إلى انفصال الجبهة الشعبية-القيادة العامة، ثم مجموعة أحمد زعرور، ثم الجبهة الديمقراطية، ولكن أساساً تبنى الأيديولوجية الماركسية اللينينية بشكل صارخ ومتشنج أدى إلى إضعاف الجبهة ومنعها من أن تتطور لتكون ممثلة للمجرى الرئيسى لحركة التحرر الوطنى الفلسطينى، وكرس وجودها كفصيل جانبى متطرف.

إن مشكلة التوجه الماركسى، الذى سارت فيه الجبهة الشعبية بعد هزيمة ١٩٦٧، المبنى على أساس أن الهزيمة حصلت بسبب استلام الطبقة البورجوازية الصغيرة لقيادة حركة التحرر العربى شكّل فى جوهره قراءة خاطئة للواقع العربى فى تلك الفترة. لقد كان من أهم أسباب عدم قدرة حركة التحرر العربية على أن تنجز مهمات التحرر الوطنى غياب الممارسة الديمقراطية فى صفوف أنظمتها وأحزابها، وليس صحيحاً أن هناك طبقات مؤهلة للممارسة الديمقراطية وأخرى غير مؤهلة.

وفى هذا المجال، يبدو أنه من الإنصاف القول أن تحول الجبهة الشعبية فى الاتجاه

الأيديولوجى المتشنج ما كان ليتم على الشكل الذى تم به بدون تبنى جورج حبش لذلك الاتجاه ودعمه له. وفى الوقت نفسه فإن دواعى الإنصاف تقتضى القول بأن جورج حبش، بعد ذلك، لعب دوراً محورياً في ترشيد ذلك الاتجاه وتحريره من الجمود الأيديولوجى وتطويره فى اتجاه استخدامه كمنهج جدلى لدراسة الواقع بأسلوب منفتح وخلاق[1] وهذا يعود إلى صفتين اتصف بهما جورج حبش طوال حياته. الصفة الأولى أنه لم يكن من الناس الذين يرتاحون بطبعهم للنظرة الأيديولوجية الضيقة فهو فى طبعه وفى ثقافته له حس التلميذ القادر على الانفتاح على المعطيات الجديدة ومراجعة الأفكار القديمة بشكل دائم. أما الصفة الثانية فهى أن جورج حبش كان يصوغ آراءه ومعتقداته، بشكل رئيسى نتيجة الدروس التى يستخلصها من الأحداث وليس من الكتب والنظريات الفكرية. ففى كل الأحاديث التى أدلى بها يبدو واضحاً أن تطوره الفكرى قد تم بتأثير أحداث الانفصال (١٩٦١) والهزيمة (١٩٦٧) وحرب رمضان (١٩٧٣) والانتفاضة الأولى (١٩٨٧) وأوسلو (١٩٩٣) ومن المهم أن ندرك أن قدرة جورج حبش على استخلاص الدروس والعبر السليمة من تلك الأحداث يعود إلى أنه وطوال كل تلك السنوات لم يتواجد فى أى موقع له مصالح ذاتية تتعارض مع استخلاص الدروس الموضوعية من الأحداث. ومما لا شك فيه أن ذلك التطور قد أسهم فى تصحيح نظرة الجبهة لمعضلة حركة التحرر العربى وفى فهم الدور المركزى للنضال من أجل الديمقراطية، ففى أحد أحاديثه لخص جورج حبش تلك النظرة بقوله: «لا يمكن تعبئة الجماهير إلا من خلال الديمقراطية.... بل إن قدرة الجماهير على القيام بدورها فى التقدم والدفاع عن أهدافها ومصالحها، مرتبطة بحريتها وتفجير طاقاتها وإبداعاتها،وهذا غير ممكن من دون حياة وقيم ديمقراطية. فالحرية والديمقراطية هما الشرط للسير نحو الوحدة والتحرر والتطور والتنمية واستثمار إمكانات الأمة فى مواجهة أعدائها القوميين وليس العكس» وفى مكان آخر يقول: «لا يجوز أن يكون هناك أى شىء على حساب الديمقراطية. ولا يمكن للشعب أن يحقق أهدافه الكبرى إلا من خلال الحياة الديمقراطية»[2].

ومما لا شك فيه أن الجبهة الشعبية سارت خطوات هامة على طريق بناء أجهزتها بشكل ديمقراطى فهى تعقد مؤتمرات دورية بشكل دائم، وتنتخب هيئاتها من القاعدة إلى القمة كما تمارس عملية النقد الذاتى لسياستها باستمرار. ولقد كان من نتائج هذه الممارسة الديمقراطية تعاقب ثلاثة أمناء عامين على قيادة الجبهة، وهذا لم يحدث فى أى فصيل فلسطينى آخر.ومن المهم أن نلاحظ أن جورج حبش لم يتنح عن



فى حركة القوميين العرب كان طريق العودة يتحدد فى الالتزام بالنضال الهادف إلى بناء المجتمع العربى الجديد على أسس نهضوية متحررة من كل أسباب التأخر والضعف



قيادة الجبهة من أجل أن يتقاعد. بل على العكس لقد ترك المهمات القيادية المباشرة لأنه أدرك أن دوره هو القيام بمهمات أخرى. وقد حدد تلك المهمات عند بلوغه السبعين من العمر بقوله:

أولاً: أريد أن أسجل تجربتى، أى أن أكتب مذكراتى وأن أتوقف أمام الأخطاء.

ثانياً:أريد العودة للعمل العربى.. أى العمل القومى.

ثالثاً: أريد إنشاء مركز دراسات، وعنوانه لماذا هزمنا[3]؟

وقد قام بعد ذلك بسنوات بتأسيس مركز الغد العربى للدراسات الذى تحددت مهمته فى البحث فى «القضايا الاستراتيجية العربية وفى القلب منها القضية الفلسطينية ويسعى لتقديم أبحاث جادة ومعمقة من وجهات نظر متعددة بأفق قومى عربى جديد، على أمل النهوض بالفكر القومى العربى التقدمى الديمقراطى».

وقد اتضح من أحاديث جورج حبش اللاحقة عن المركز أنه سيركز على الاهتمام بقضايا ثلاث هامة. الأولى هى قضية الديمقراطية فى كل جوانبها النظرية والتطبيقية ومن حيث علاقاتها بالنظام الاقتصادى وموضوع العدالة الاجتماعية والرأسمالية والاشتراكية والليبرالية، والقضية الثانية هى قضية الوحدة العربية. وكيف يجب دراستها بأسلوب جديد يبتعد عن العواطف ويراعى خصوصيات البلدان العربية المختلفة ويكرس أسلوب الوحدة التدريجى فى المجالات التعليمية والاقتصادية والسياسية وكيف تقوم الممارسة الديمقراطية فى ضبط إيقاع الخطوات الوحدوية. والقضية الثالثة تتعلق بضرورة دراسة الصهيونية بأسلوب يبتعد عن النظرة الأحادية التى ترى فى الصهيونية حركة واحدة متجانسة وينحو باتجاه الأسلوب العلمى حتى يتم فهم التطور التاريخى للحركة ثم تكوين فكرة سليمة عن حاضرها الراهن فى كل مقوماتها وفى كل أطيافها السياسية المختلفة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وبشكل محدد فإنه يقول: « يجب أن نفهم الصهيونية بعمق وتجرد، نفهم كيف تطورت، نفهمها كما يفهمها نتنياهو، زائد كيف يفهمها شمعون بيرس، زائد كيف تفهمها حركة ميرتس، زائد كيف يفهمها بعض اليهود الذين فعلاً لديهم عقل وضمير وبالتالى يقولون أنه يجب أن نتعايش مع الفلسطينيين من خلال دولة فلسطينية مستقلة».

فى الواقع، يمكن النظر إلى مضمون هذه القضايا الثلاث على أنها النواة الحقيقية لتجديد المشروع القومى العربى على أساس ديمقراطى يعتمد الأسلوب العلمى كطريقة ومنهج. ومن المهم أن نلاحظ أن السير فى هذا الاتجاه لم يكن فقط تعبيراً عن تجربة النضال الفلسطينى كما تمثلت فى تجربة الجبهة الشعبية ولكنه يمثل إلى حد بعيد تجربة النضال الفلسطينى ككل. فإذا دققنا فى تجربة الفلسطينيين الذين لم يغادروا فلسطين وعاشوا تحت الحكم الإسرائيلى نرى فى ذلك التطور نفس الخطوط العريضة. فتطور تلك التجربة مر أيضاً فى المرحلة القومية العاطفية (منظمة الأرض) ثم فى المرحلة اليسارية والتناغم مع فصائل منظمة التحرير (الحزب الشيوعى) وصولاً إلى الطرح القومى العربى بمضمون ديمقراطى (عزمى بشارة).

وهكذا نرى أن معنى تخلى جورج حبش عن منصب الأمانة العامة للجبهة الشعبية والمهمات القيادية المباشرة كان من أجل تحقيق هدف واحد وهو التحرر من أعباء القضايا اليومية والتفرغ كلياً لقضايا المستقبل.

وهكذا نرى أن القضايا الفكرية والسياسية التى كانت محور اهتمام جورج حبش فى سنواته وأشهره وأسابيعه وأيامه الأخيرة هى القضايا التى ستشكل محور اهتمام المناضلين على امتداد العالم العربى فى السنوات القادمة.فلقد كان دوماً مسكوناً بهموم المستقبل. المستقبل الذى لا يأتى من فراغ ولكن من إرهاصات وتراكمات الماضى والحاضر. فجورج حبش كان يجمع فى شخصه كل تجربة حركة القوميين العرب وكل تجربة الحركة الناصرية وكل تجربة نضال الشعب الفلسطينى فى الأربعين سنة الماضية. وكان متفائلاً.

ما هى الصفات الشخصية التى نعرفها عن هذا الإنسان الاستثنائى؟



تعرفت على جورج حبش وأنا فى المدرسة الثانوية سنة ١٩٥٤.

كنت مع مجموعة من التلاميذ، الفلسطينيين والسوريين فى دمشق،أعضاء فى جمعية سرية تعمل على النضال من أجل تحقيق الوحدة العربية وتحرير فلسطين، وكنا قد رأينا أعداداً من النشرة التى يتم توزيعها بشكل دورى فى المخيمات والمدارس الفلسطينية وتحمل اسم «الثأر» وتصدرها هيئة مقاومة الصلح مع إسرائيل. وكنا متلهفين لمعرفة من هى تلك الهيئة وكيف يمكن الاتصال بأعضائها .وفجأة وجدت أخى عصام، وكان فى سنته الأولى بعد التخرج من الجامعة، يحدث أبى وأمى عن شخص يدعى الدكتور جورج حبش الذى هو القائد البارز لحركة سياسية جديدة تدعى «الشباب القومى العربى». وأنه كان يصدر مجلة الرأى فى عمان وبعد إغلاقها من قبل الحكومة الأردنية وملاحقته حضر إلى دمشق ويقوم حالياً مع مجموعة من الشباب القومى العربى بالإعداد لإصدار المجلة فى دمشق.

بعد حوالى الأسبوعين من ذلك بدأت

مجلة الرأى تصدر من دمشق وبدأ أخى عصام مع مجموعة من الشباب القومى العربى يعقدون اجتماعاً أسبوعياً فى بيتنا كهيئة لتحرير المجلة، فتعرفت على الدكتور جورج حبش وهانى الهندى وعدنان فرج وفيصل الخضراء وغسان محاسنى وثابت المهاينى والحكم دروزة وبقية المجموعة وأخذ واحد منهم يعطينى خمسين عدداً من نشرة الثأر وخمسة وعشرين عدداً من مجلة الرأى لأقوم مع بقية أعضاء الجمعية بتوزيع النشرة على طلاب المدارس وبيع أعداد المجلة للأصدقاء.

دعانى ذلك الشاب بعد ذلك مع أعضاء الجمعية لتشكيل حلقة من حلقات «الشباب القومى العربى» وكان ذلك بداية انتسابى مع بعض أعضاء الجمعية لحركة القوميين العرب.

كما كان ذلك بداية زياراتنا اليومية لمقر مجلة «الرأى»، وكان عبارة عن غرفتين صغيرتين فى الطابق الرابع لعمارة فى شارع جمال باشا مقابلة لعمارة الهاتف الآلى، وهناك تعرفت على غسان كنفانى وكان قد أنهى الدراسة الثانوية ويعمل مدرساً فى الكويت كما تعرفت على بلال الحسن وكان مثلنا ما زال فى المدرسة الثانوية.

كنت مع أحمد خليفة وبلال الحسن وقتادة الشريف وبضعة أصدقاء آخرين نهتم بالأدب والثقافة بشكل خاص، فألفنا رابطة «الأدب والحياة»، وأصبحنا نقوم بالإشراف على تحرير الصفحة ١٠ فى مجلة الرأى الخاصة بالشئون الثقافية مما جعلنا نتواجد فى مكتب المجلة بشكل يومى تقريباً.

منذ البداية، كنا نشعر بمعنى خاص للساعات التى نقضيها هناك، إذ كان الدكتور جورج موجوداً وكان اسمه قد أصبح بالنسبة لنا هو «الحكيم» فذلك كان الاسم الذى يناديه به جميع أصدقائه وهو الاسم الذى ينادى به الفلاحون فى فلسطين طبيب الصحة.

كان فى شخصية «الحكيم» جاذبية مميزة آسرة لأنك كنت تشعر فور التعرف عليه أنك قد تعرفت على شخص مهم وغير عادى، وبنفس الوقت كنت تشعر أنك تعرفت على شخص سيكون صديقاً لك ولن يكون بينك وبينه أى حاجز.

لقد رأينا فى شخصية الحكيم مزيجاً ساحراً من النشاط والعفوية والأصالة لم نعهده من قبل.

كان دائم الحركة والنشاط، ففى مكتب الرأى كان دوماً يقضى وقته فى الكتابة أو القراءة أو الحديث مع أحد الزوار وكان عندما ينتهى من ذلك يترك المكتب حيث يكون على موعد لمزاولة نشاط آخر. ولا أعتقد أننى رأيته فى تلك الأيام مرة واحدة جالساً بدون أن يكون منهمكاً بعمل ما. كان يكرس كل طاقاته وكل إمكاناته فى أى عمل يقوم به مهما كان ذلك العمل. وكان ذلك يشيع جواً من الحركة والنشاط من حوله، فترى أن كل الذين يعملون معه يجهدون ليقدموا كل ما عندهم من طاقات وإمكانات.

عندما يكون الحكيم موجوداً فى مكتب «الرأى»، كانت وتيرة العمل والنشاط أعلى بكثير من الوقت الذى لا يكون موجوداً فيه.

كان فى كل ما يقوم به عفوية وبساطة آسرة. فعندما كان يتناول الطعام فى مكتب الرأى كان يتناوله مع الشاب الذى يعمل كعامل فى المكتب. وفى ذات مساء كنت وإياه وحيدين فى المكتب وحضر لرؤيته أحد رجال السياسة فعرفنى عليه وأشركنى فى الحديث الذى دار معه، بالرغم من كون ذلك الزائر زعيم كتلة برلمانية كبيرة فى مجلس النواب السورى وأنا طالب فى المدرسة الثانوية..

وفى إحدى الأمسيات لم يكن فى المكتب إلا أنا أراجع بعض «مواد الصفحة ١٠»، والحكيم فى الغرفة الأخرى يكتب المقال الافتتاحى للعدد الجديد من المجلة. وعندما دخلت عليه لأرى إذا كان قد انتهى من كتابة المقال لكى آخذه إلى المطبعة فى طريق عودتى للبيت وجدته يمسح دموعه بأصابع يده، وعندما لاحظ أنى رأيت ذلك ابتسم وقال: إن من عادته أن تدمع عيناه عندما يكون متأثراً من شيء ما. ثم تابع الكتابة.

بعد يومين صدر عدد «الرأى» الجديد وفيه افتتاحية يرد فيها حديث عن المجازر التى ارتكبتها إسرائيل بحق الشعب الفلسطينى..

وكان فى أحاديثه السياسية دوماً شيء أكبر من السياسة. عندما كان يتحدث عن القومية العربية كنت تشعر وكأنه عاش فى الزمن العربى الذهبى وأنه يعرف كل أبطال التاريخ العربى معرفة شخصية. وعندما كان يتكلم عن الوحدة العربية كنت تحس وكأنه قد سافر للمستقبل العربى وعاش فى دولة الوحدة ثم عاد ليحدثنا عما رآه هناك. أما عندما كان يتحدث عن فلسطين فكنت تحس وكأنه ما زال يعيش فيها ولم يتركها للحظة واحدة.

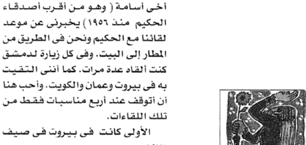
كان من الواضح أن حديث الحكيم يحرك فى أعماقنا شيئاً ما.

كان من الواضح أن تصرفات الحكيم تستنهض فى نفوسنا طاقة ما.

ولهذا فقد أحببناه وأصبح كل واحد منا يعتقد أن الحكيم صديقه الشخصى.

وفى ربيع عام ١٩٥٦ شاركت فى مخيم أقامه «الشباب القومى العربى» فى برمانا فى لبنان وتعرفت فيه على شباب لبنانيين وعراقيين وفلسطينيين من الضفة الغربية ووجدت أن الذين يعرفون الحكيم منهم يتحدثون عنه بحرارة وحب مما يشير إلى أنهم يشاركوننى نفس الشعور نحوه.

فى مطلع عام ١٩٥٩ سافرت للدراسة فى الولايات المتحدة وبعد حصولى على شهادة الماجستير عدت لمدة سنتين للبلاد العربية ثم سافرت لكندا وحصلت على شهادة الدكتوراة وعملت أستاذاً فى إحدى الجامعات الكندية التى ما زلت أعمل



فلسطين: ٦٠ عاما

كما كان لجورج حبش دور رئيسى فى تأسيس حركة القوميين العرب بعد نكبة ١٩٤٨ كان له أيضا دور رئيسى فى تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعد هزيمة ١٩٦٧

فيها حتى اليوم. وطوال كل تلك السنوات، باستثناء فترة ١٩٧٠-١٩٧٥، لم أنقطع عن رؤية الحكيم والتواصل معه بشكل مستمر.

فى عقدى الثمانينات والتسعينات كان الحكيم يقيم مع أسرته فى دمشق وفى زيارتى السنوية لأهلى كل صيف كان أخى أسامة (وهو من أقرب أصدقاء الحكيم منذ ١٩٥٦) يخبرنى عن موعد لقائنا مع الحكيم ونحن فى الطريق من المطار إلى البيت. وفى كل زيارة لدمشق كنت ألقاه عدة مرات. كما أننى التقيت به فى بيروت وعمان والكويت. وأحب هنا أن أتوقف عند أربع مناسبات فقط من تلك اللقاءات.

الأولى كانت فى بيروت فى صيف ١٩٧٥ .

وصلت بيروت قادماً من كندا مع بدايات الاشتباكات التى قادت للحرب الأهلية وعلى الفور ذهبت لرؤية الحكيم مع الصديق نوبار فى مقر الجبهة الشعبية فى مخيم شاتيلا.

كنت قد التقيت بالحكيم أكثر من مرة بعد هزيمة ١٩٦٧ وبعد تأسيس الجبهة الشعبية ثم انقطعت عن لقائه لمدة خمس سنوات حدثت بها أحداث جسام وانتقل فيها الحكيم من شخصية معروفة على نطاق العالم العربى إلى شخصية معروفة على اتساع العالم ولذلك فقد ذهبت إلى ذلك اللقاء وأنا متلهف لرؤية الشخصية التى كنت أعرفها عن كثب فى الماضى ثم أصبحت أتتبع أخبارها من شاشات التليفزيون الأمريكى وعناوين الصحف العالمية.

كم كانت دهشتى وفرحتى عندما اكتشفت أن الحكيم لا يتغير.

لا أقول ذلك لأنه استقبلنى وتحدث معى تماماً وكأنى ألقاه بعد أيام من لقائى الأخير به.

وإنما لأن حديثى معه أعادنى إلى أجواء السياسة التى افتقدتها منذ سنوات. ففى بداية السبعينيات حدث تغير كبير فى طبيعة أحاديث رجال السياسة فى العالم العربى. لقد اختفت أجواء النقاش والحوار والتفاعل التى كانت سائدة فى الخمسينيات والستينيات، وحلت محلها أجواء الخطب والمحاضرات. لم أجتمع بقائد سياسى فى تلك الفترة عنده تساؤل أو شك حول أى موضوع. كانت عملية الاستماع لحديث أى سياسى عملية صعبة مملة لأنها كانت فى الواقع عبارة عن استماع إلى خطاب سياسى. ولهذا عندما وجدت الحكيم ما زال يستمع أكثر مما يتكلم، ويطرح مواضيع تشغل باله وتثير فى ذهنه تساؤلات، عندما وجدت أن الحكيم ما زال قادراً على الدهشة والحماس لأفكار جديدة، شعرت براحة نفسية كبيرة.

تحدثنا وتناقشنا وتناقلنا أخبار الأصدقاء المشتركين وعندما هممت بالانصراف وكانت الساعة قد قاربت العاشرة مساء قال

زمن «الحكيم»

إنه ذاهب أيضاً إلى البيت ويستطيع توصيلي في سيارته إلى الفندق.

في الطريق ونحن نمر في منطقة شديدة الازدحام توقفت السيارة بسبب عطل مفاجئ في إحدى عجلاتها فنزلنا منها ووقفنا في الطريق ننتظر أن يفرغ السائق من عملية تركيب عجلة أخرى. تبادلت مع نوبار نظرات قلق وترقب خوفاً على سلامة الحكيم بينما راح هو يتابع الحديث الذي كان قد بداه في السيارة، وكان يسألني عن رأيي في مشكلة التضخم المالي التي كانت تعصف بالاقتصاد الأمريكي ذلك الوقت، وبدون أن يبدو عليه أي قلق أو ترقب.

ومع ذلك فعندما خلوت لنفسي في الفندق وجدت أن الحياة في خضم الأحداث والشهرة الإعلامية قد أحدثت تغييراً ما في شخصية الحكيم. لقد رسمت على وجهه مسحة حزن لم أعهدها في السابق. وأذكر أني ظللت لأيام، بعد ذلك، أتساءل بيني وبين نفسي: هل جاء ذلك الحزن من أحداث السنين الماضية، أم أنه نذير من السنوات القادمة؟

المناسبة الثانية التي أحب أن أتوقف عندها كانت في صيف سنة ١٩٨٠ في دمشق.

كنت أزور أهلي في الصيف وذات يوم جاء أخي أسامة مهموماً وأخبرني أن وعكة صحية مفاجئة قد ألمت بالحكيم وأنه سيحضر في المساء من بيروت لدمشق لإجراء الفحوصات الطبية.

حضر الحكيم إلى بيت أسامة في المساء ومعه زوجته هيلدا وأحد أصدقائه من الأطباء اللبنانيين. وعلى الفور أخذ الحكيم يتحدث معي كعادته بينما ذهب أسامة وهيلدا والطبيب إلى غرفة أخرى لإجراء الاتصالات بالأطباء والمراكز الصحية للحصول على مواعيد إجراء الفحوص وبعد أن فرغوا من ذلك انضموا إلينا واشتركوا بالحديث الدائر حول أوضاع المقاومة في لبنان.

في منتصف الليل تركته عائداً إلى بيتنا وقد نسيت تماماً أن الحكيم يعاني من عارض صحي حتى أنه عندما سألني أبي عن وضع الحكيم الصحي لم أستطع أن أزيد على ما قاله له أسامة قبل أن ألتقي بالحكيم. ولقد تكرر ذلك الموضوع فيما بعد أكثر من مرة. كل مرة ذهبت لأرى الحكيم وفي نيتي الاطمئنان على صحته عدت وأنا أفكر في أشياء أخرى لا علاقة لها بصحته. وفي إحدى تلك المرات أبديت استغرابي من ذلك الوضع لأخي أسامة. فابتسم وقال: « هذا هو الحكيم» وبعد فترة تأمل عاد يقول:

«كل من خاض تجربة التعذيب في السجون العربية يدرك أن السجين ينتصر في تلك التجربة على سجانيه عندما ينجح بينه وبين نفسه في عدم التفكير في مصير جسده باعتبار أنه فقد السيطرة عليه كلياً وأصبح تحت سيطرة السجان. إن القدرة على ذلك التصرف تمنح صاحبها قوة لا متناهية من العزيمة والإصرار والقدرة على

حركة فتح كانت من أول من طرح فكرة عدم جدوى خوض الصراع مع إسرائيل بأسلوب حرب الجيوش النظامية وضرورة التزام حرب التحرير الشعبية



الصمود والتحدي..... وبنفس المنطق فإن الذي يميز الحكيم عن غيره من القادة هو قدرته منذ البداية على حسم موضوع الشأن العام والشأن الخاص فمنذ البداية وهو قادر على التصرف بدون أي اهتمام بقضاياه الشخصية، سواء أكانت مادية أو صحية، ولقد منحه ذلك التصرف قدرة هائلة على الاحتفاظ بمبادئه وقيمه وأخلاقه تحت أقسى الظروف..».

أما المناسبة الثالثة فكانت في صيف عام ١٩٨٢ وأيضاً في دمشق.

أبحرت سفن المقاومة من بيروت بعد الحصار التاريخي الذي استمر ثلاثة أشهر ووصلت السفينة التي تقل الحكيم إلى شاطئ طرطوس وجاء هو والمقاتلون إلى دمشق.

لن أنسى أبداً لقاءه بزوجته هيلدا وبناته ميساء ولما. وكانت هيلدا ولما قد تركتا بيروت وحضرتا إلى دمشق قبل ذلك بأيام والتقتا بميساء التي حضرت من ألمانيا الشرقية حيث كانت تدرس الطب في إحدى جامعاتها. في تلك الأمسية تعرفت على جانب من شخصية الحكيم لم أكن أعرفه في السابق وهو ما يخص حياته العائلية.

كانت في عيون هيلدا وعيون ميساء وعيون لما فرحة حب جارف تجلى لي يومها بأنه قادر على حماية الحكيم من كل شرور الأرض وخصوصاً وأنا أرى ذلك الحب يكبر ويتضاعف في عيون الحكيم.

بين العناق والقبل رأيته يمسح دموعه فعدت سنوات إلى الوراء عندما كنت أراه يمسح دموعه وهو يكتب افتتاحية مجلة «الرأي».

كان من الواضح لي أن الحكيم لم يكن يعتقد أنه سيخرج من بيروت حياً وأنه سيرى هيلدا وميساء ولما مرة أخرى فقد كان في عينيه فرح طفولي وكان مرحاً ومتحمساً للكلام والحديث بشكل أعاد إلى ذاكرتي الحكيم كما عرفته في الخمسينيات. روى لنا قصصاً حدثت أيام حصار بيروت وروى لنا قصصاً عن بطولة المقاتلين وعن امتنانه لتصرفات بعض الأصدقاء ومواقفهم معه في الأوقات الحرجة وبشكل عفوي وطبيعي انتقل من الحديث عن أيام حصار بيروت وراح يتحدث عن عبد الناصر ولقائه الأول به ثم عن عشائه معه في بيته في منشية البكري في القاهرة، وكيف كان عبد الناصر يعيش في منزل بسيط ويرتدي ثياباً بسيطة ويتناول عشاءً بسيطاً ويتحدث بعفوية ودفء.

في الأيام التالية كان الحكيم يستقبل الزوار الذين حضروا ليسلموا عليه ويهنوه بسلامة الخروج من الحصار.

كان بعض الزوار يسأل الحكيم عن تصرفات بعض القادة الفلسطينيين أثناء الحصار وفي السؤال تلميح واضح يغمز من صلابة أولئك القادة. ومرة تلو الأخرى كان الحكيم يدافع عن الجميع ويرفض التعريض بأي واحد منهم، وأبعد ما وصل إليه هو القول بأن الوضع لم يكن عادياً وإنما كان وضعاً صعباً وبالغ التعقيد ويجب أخذ ذلك بعين الاعتبار عند تقييم تصرفات الآخرين.

تذكرت وأنا أستمع لرفض الحكيم المتكرر التعريض بتصرفات الآخرين كلمة قالها والدي قبل أكثر من عشر سنوات وهي أنه لم يسمع أبداً الحكيم يتحدث بشكل شخصي عن أي إنسان آخر. فعدت بذاكرتي أحاول أن أعثر على استثناء لذلك فلم أجد. نعم، كان دوماً يهاجم المواقف السياسية لكثير من القادة ولكنني لم أسمعه أبداً يتكلم بأسلوب التجريح الشخصي.

بعد أيام بدأت ألتقي لوحدي بالحكيم، وفي تلك اللقاءات ذكر لي لأول مرة بأنه يفكر في أن يتنحى عن منصب الأمانة العامة للجبهة الشعبية في أول فرصة يجدها ملائمة. وشرح لي أنه ينوي القيام بذلك لسببين. الأول هو أنه يعتقد أن على القائد السياسي إفساح المجال أمام العناصر الشابة بعد بلوغه الستين من عمره. والثاني هو رغبته في ترك مهمات المسئوليات اليومية المباشرة والتفرغ لمهمة دراسة المراحل الماضية من النضال وتقييمها من أجل استخلاص الدروس والعبر.

كان مؤمناً أن تجارب الماضي منذ بداية حركة القوميين العرب كانت تجارب غنية يجب دراستها ونقدها واستيعاب دروسها وأنه يجب مواجهة المستقبل بثقة لا تتوفر إلا بعد هضم كل دروس الماضي.

الذي أثار استغرابي في تلك الجلسات هو حماس الحكيم للدور الجديد الذي يطمح إلى ممارسته وتكريس كل وقته له. ولقد رأيت يومها أن ذلك الحماس ينبع من كون الحكيم، أولاً وقبل كل شيء آخر، تلميذاً يحب أن يتعلم أشياء جديدة.

أما المناسبة الأخيرة فكانت قبل شهور وتخص لقاءً لم يتم في دمشق.

كنت في بيروت في شهر أيلول الماضي واتصل بي من عمان وطلب مني لقاءه في دمشق وذلك من أجل التشاور في موضوع يخص أحد مشاريع مركز «الغد العربي للدراسات».

ذهبت إلى دمشق واتصلت به في عمان ولكنه لم يتمكن من الحضور إلا بعد يوم من عودتي إلى بيروت فاتفقنا على اللقاء مرة أخرى بعد شهر.

عندما ذهبت لدمشق في المرة الثانية وسألت أخي أسامة عن موعد مجيء الحكيم فاجأني بقوله أنه لن يتمكن من الحضور لأن وعكة صحية ألمت به.

سارعت بالاتصال به بالتليفون فردت على هيلدا وشرحت لي وضعه الصحي ثم أعطته سماعة التليفون ليتكلم معي فتصرف كعادة الحكيم، التي أعرفها جيداً. لم يذكر كلمة واحدة عن مرضه بل راح فوراً يناقشني في فحوى رسالة كنت قد كتبتها له من بيروت بالاشتراك مع أحمد خليفة ومحمود سويد تخص موضوعاً كان قد كلفنا به. ثم راح يتحدث معي عن موضوع آخر يخص مركز «الغد»

كان قد طلب منى ومن بلال الحسن الاهتمام به.

يبدو أن حماس الحكيم قد انتقل إلىّ فأخذت أتكلم بقوة وبتصميم وفى النهاية قلت له مازحا: ها نحن يا حكيم، بلال وأحمد وأنا نعمل معك كما كنا أيام «الرأى» فانفجر بضحكة مجلجلة أعادتنى فعلاً إلى أيام الشباب فى منتصف الخمسينيات يوم كنت مع أحمد وبلال مسئولين عن تحرير الصفحة عشرة من مجلة «الرأى».

وضعت سماعة التليفون وأنا أشعر بالفرح والسعادة فتذكرت على الفور ما كان يبديه الكثيرون من الإعجاب بقدرة الحكيم المستمرة على العمل والتفاؤل تحت أقسى الظروف.



فى الواقع أن الكثيرين من الذين تعاملوا مع الحكيم فى السنوات الأخيرة كانوا يستغربون من قدرة الحكيم على الاستمرار فى العمل اليومى لساعات طوال فى الإشراف على عمل مركز «الغد العربى للدراسات» الذى أسسه وتفرغ له مباشرة بعد تخليه عن منصب الأمانة العامة للجبهة الشعبية، وهو الذى جاوز الثمانين من عمره، وعنده وضع صحى صعب.

وفى هذا المجال، أحب أن أقول أن كل من يعرف الحكيم عن قرب كان يعرف أنه إلى جانب حسه الوطنى المرهف واستعداده للتضحية بدون حدود، فإنه كان يحب عمله ويتمتع بتأديته على أفضل وجه. فالعمل السياسى بالنسبة له لم يكن، كما كان بالنسبة لبعض الساسة الآخرين، التزاماً تورط فيه فى سنوات الشباب والحماسة والبراءة، ولم يستطع التحرر منه بعد ذلك لأنه وجد نفسه بدون مهنة أخرى تؤمن له ما يحصل عليه من العمل السياسى. ففى كل مراحل حياته كان العمل السياسى بالنسبة له ناجماً عن اختياره الحر، لأنه كان دوماً يملك بدائل أخرى (لقد كان الأول فى صفه عندما تخرج من كلية الطب فى الجامعة الأمريكية وبدأ حياته كطبيب ما لبث أن كرس عيادته لمعالجة المحتاجين من المرضى).. ولذلك كان يمارس العمل السياسى بحب وشغف وتفاؤل.

وأهم من ذلك، كان الحكيم، فى العمل السياسى، يمثل حالة نادرة فى أنه كان يعرف من هو، وماذا يريد، وما هى حدود دوره؟

كان مناضلا ثورياً يعيش فى مرحلة الثورة المضادة، أى أنه يعيش خارج شرعية الأمر الواقع.

كان يريد أن يغير من ذلك الواقع عن طريق تهيئة الظروف الموضوعية للقيام بحركة نهوض وطنى شاملة تسحب الأرض من تحت قوى الثورة المضادة.

كان يؤمن بحتمية الانتصار فى تلك المهمة التاريخية مهما طال الزمن وفى نفس الوقت كان مدركاً بأن ذلك يحتاج لسنوات طوال وأنه شخصياً لن يعيش فى زمن الانتصار.

كان إيمانه العميق بأن ما يقوم به، بشكل يومى، يعمل على تقريب ذلك الزمن كافياً لأن يمنحه شعور الرضا والحرية والسلام.

كان شعوره بالرضا عن حياته وعن عمله نابعا من فهمه العميق لحركة التاريخ الإنسانى. كان يؤمن بأن لتلك الحركة على الأمد البعيد خطًا صاعداً باتجاه الحرية والتقدم وإن كانت فى الأمد القصير تسلك طريقاً متعرجة فيها هبوط وصعود حول ذلك الخط الصاعد.

كان ذلك الإيمان يحميه من صقيع الزمن الردىء الذى نمر به. ويبعث فى ضميره القدرة على تحدى هذا الزمن والإصرار على النضال للوصول إلى زمن تنتصر فيه مبادئ الحرية والعدالة والسلام.

كان من القلة النادرة التى تعيش دائما فى المركز الحقيقى للأحداث. فى قلب إرهاصات الثورة الإنسانية المستمرة.

ولهذا كان صوته يصل إلى كل الفلسطينيين فى المدن والقرى والمخيمات فيسمعون فيه صدى ما يجيش فى قلوبهم وعقولهم ووجدانهم من إيمان وإصرار وتمسك بالعودة إلى فلسطين..

كان صوت الحكيم صافياً يأتى على نفس موجات الأصوات الحقيقية التى تسمعها عندما تبرق العاصفة فى جبل الجرمق فتضىء سطور غسان كنفانى وتلمع فى أبيات محمود درويش وتتلألأ فى لوحات إسماعيل شموط وتتفجر فى خطوط ناجى العلى.

ذلك الصوت الذى هو فى الواقع الصدى المدوى لصوت يكاد لا يسمع فى هذا العالم وهو صوت يتامى وأرامل وثكالى مخيم جنين ومخيم جبالية ومخيم بلاطة ومخيم الأمعرى ومخيم صبرا ومخيم شاتيلا وقانا.....و......و.....

ولقد تمكن الحكيم من الاحتفاظ بذلك الصوت طوال ستة عقود لأنه كان يتمتع بصفة نادرة لا يتمتع بها إلا الشعراء العظام. ألا وهى القدرة على سماع أصوات الصمت.

وهكذا أثبت جورج حبش أنه أعظم الشعراء على الإطلاق. فلقد سرق ضمير الشعب الفلسطينى طوال النصف الثانى من القرن العشرين.. ■

هوامش:

(١) تحدث جورج حبش فى مؤتمر عام ١٩٧٢ أن الجبهة الشعبية تعيش ظواهر المراهقة اليسارية والنزعة الانتهازية اليسارية

(٢) مؤسسة الدراسات الفلسطينية(١٩٩٨)
مرجعيات ٣: حوار شامل مع جورج حبش. أجرى الحوار محمود سويد.

(٣) راجع عدد مجلة الشراع فى ٧ تموز ١٩٩٧.



رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا

محمود محمد شاكر

اعلم أنى قضيت عشر سنوات من شبابى، فى حيرة زائغة، وضلالة مضنية، وشكوك ممزقة، حتى خفت على نفسى الهلاك، وأن أخسر دنياى وآخرتى، محتقبًا إثمًا يقذف بى فى عذاب الله بما جنيت. فكان كل همى يومئذ أن ألتمس بصيصًا أهتدى به إلى مخرج ينجينى من قبر هذه الظلمات المطبقة علىَّ من كل جانب. فمنذ كنت فى السابعة عشرة من عمرى سنة ١٩٢٦، إلى أن بلغت السابعة والعشرين سنة ١٩٣٦، كنت منغمسًا فى غمار حياة أدبية بدأت أحس إحساسًا مبهمًا متصاعدًا أنها حياة فاسدة من كل وجه. فلم أجد لنفسى خلاصًا إلا أن أرفض متخوفًا حذرًا، شيئًا فشيئًا، أكثر المناهج الأدبية والسياسية والاجتماعية والدينية التى كانت يومئذ تطغى كالسيل الجارف، يهدم السدود، ويقوض كل قائم فى نفسى وفى فطرتى.

ويومئذ طويت كل نفسى على عزيمة حذَّاء ماضية: أن أبدأ، وحيدًا منفردًا، رحلة طويلة جدًا، وبعيدة جدًا، وشاقة جدًا، ومثيرة جدًا. بدأت بإعادة قراءة الشعر العربى كله، أو ما وقع تحت يدى منه يومئذ على الأصح، قراءة متأنية طويلة الأناة عند كل لفظ ومعنى، كأنى أقلبهما بعقلى، وأروزهما (أى: أزنهما مختبرًا) بقلبى، وأجسهما جسًا ببصرى وببصيرتى، وكأنى أريد أن أتحسسهما بيدى، وأستنشى (أى: أشم) ما يفوح منهما بأنفى، وأسمع دبيب الحياة فيهما بأذنى، ثم أتذوقهما تذوقًا بعقلى وقلبى وبصيرتى وأناملى وأنفى وسمعى ولسانى، كأنى أطلب فيهما خبيئًا قد أخفاه الشاعر الماكر بفنه وبراعته، وأتدسس إلى دفين قد سقط من الشاعر عفوًا أو سهوًا تحت نظم كلماته ومعانيه، دون قصد منه أو تعمد أو إرادة.



قد يخفض معدل النمو من حدة الفقر، ولكنه لن يحقق عدالة في توزيع الدخل والثروة في المجتمع

التنميـــة فى عــالم متغيـر

محـمـود مـحـيـى الـديـن

■ بعد عمل دام لمدة عامين متصلين، وتحديداً منذ أبريل ٢٠٠٦ وحتى أبريل ٢٠٠٨، انتهت لجنة النمو والتنمية من إعداد تقريرها الذى يحمل اسمها، ويقع فى ١٦٥ صفحة، ويتضمن خلاصة تجارب الدول التى حققت نجاحاً فى تحقيق النمو منذ الحرب العالمية الثانية.

ونسق لأعمال هذه اللجنة الدولية المستقلة عالم الاقتصاد البارز «مايكل سبنس» - الحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد عام ٢٠٠١، وضمت فى عضويتها تسعة عشر عضواً من الاقتصاديين والمسئولين والسياسيين من عدد من الدول النامية فضلاً عن مشاركة الاقتصادى المخضرم «روبرت سولو» الحاصل أيضاً على جائزة نوبل فى الاقتصاد لتحليله لأسباب وآليات النمو الاقتصادى.

سينظر إلى هذا التقرير، فى تقديرى، باعتباره نقلة نوعية فى فهم أسباب النمو الاقتصادى وتحرراً من أسر ما يعرف «بتوافق واشنطن» Washington Consensus، إذ يؤكد التقرير على أهمية تبنى أسلوب مرن وبراجماتى فى سياسات النمو والتنمية دون وصفات جاهزة واجبة الاتباع، ويضع التقرير فى الوقت ذاته النمو الاقتصادى فى مركز الصدارة من حيث الأولوية فى السياسات المتبعة. ليس لأهمية النمو فى حد ذاته لكن باعتباره معيناً على تحقيق أهداف التنمية من مكافحة للفقر وإتاحة لفرص العمل وزيادة الدخول والإسهام فى توفير الخدمات العامة كالتعليم والصحة.

ويعول التقرير على قدرة الدولة، ممثلة فى حكومة فاعلة، فى تحقيق أهداف التنمية اعتماداً على تحقيق معدلات عالية ومطردة ومتواصلة للنمو الاقتصادى.



واستئناساً بتجارب ١٣ دولة حققت نقلة نوعية فى حياة شعوبها، أكد التقرير أن معدل النمو المتواصل لا يجب أن يقل عن ٧٪ فى المتوسط ولمدة لا تقل عن ٢٥ سنة. هكذا شهدت تجارب دول مثل الصين واليابان وكوريا وماليزيا والبرازيل وسنغافورة. وهكذا تنبئ أيضاً تجربة دول أخرى ستلحق بهذا الركب مثل الهند وفيتنام. وبتتبع خلاصة التجارب الناجحة فى النمو هناك دول أخرى يظهر بجلاء أن هناك دولاً أخرى على ذات الطريق إذا ما أحسنت صنعاً فى التعامل مع تحديات النمو التنمية.

ويتضح من الدراسات التفصيلية التى اعتمد عليها التقرير أن هناك خصائص مشتركة فى الدول التى حققت هذا النمو المطرد.

أولاً .. انفتاح هذه الدول على الاقتصاد العالمى والانتفاع بتدفقات الاستثمار الأجنبى وزيادة الصادرات السلعية والخدمية والاستفادة من تطور العلوم والمعارف فى الارتقاء بكفاءة العنصر البشرى فى هذه البلدان.

ثانياً .. تحقيق استقرار فى الاقتصاد الكلى خاصة فيما يتعلق بمعدلات التضخم وحسن الأداء المالى.

ثالثاً .. التوجه المستقبلى فى السياسات الاقتصادية بمزيد من الاعتماد على معدلات عالية من الادخار والاستثمار..

رابعاً.. الاعتماد على آليات السوق المنظمة فى توظيف الموارد وحسن توجيهها للاستخدام الأكفأ لها.

خامساً .. وجود قيادة فاعلة وتطبق قواعد الحكم الرشيد الملتزم بتنفيذ السياسات الدافعة للنمو وحريصة على شمول التنمية لكافة أبناء المجتمع دون استبعاد أو انحياز، ومن خلال جهاز إدارى كفء يقوم بأعبائه ومسئولياته على أفضل وجه.

ويؤكد التقرير فى أكثر من موضع على أن النمو ليس هدفاً ولكنه وسيلة لتحقيق أهداف وطموحات الأفراد والمجتمعات المختلفة التى لا يمكن تحقيقها بدونه. فالنمو هو السبيل لمكافحة فقر الأمم والتخفيف من شقاء الناس، ولا يظهر التاريخ الإنسانى أى سبيل آخر غير النمو لتحقيق هذه الأهداف.

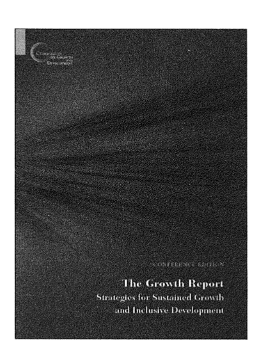
فبغيبة من النمو لن تتحقق الموارد المطلوبة للرعاية الصحية وتوفير التعليم المناسب وغيرهما من حاجات البشر الأساسية. فالنمو ضرورة حتمية للنهوض بحياة البشر والارتقاء بالأمم .. ولكن رغم احتفاء التقرير بالنمو وأهميته يشدد على أنه لن يؤدى وحده إلى تحسين أحوال الناس جميعاً دون مساندة بسياسات وتدابير أخرى تعزز من عدالة الحصول على الفرص فى التعليم، والتدريب والحصول على الموارد اللازمة للارتقاء بمستوى المعيشة دخلاً ومكانة فى المجتمع.

فقد يخفض معدل النمو من حدة الفقر، ولكنه لن يحقق منفرداً عدالة فى توزيع الدخل والثروة فى المجتمع. بل قد يترتب على النمو تفاوت فى الدخل فى المراحل الأولى لارتفاعه باعتبار ما قد يكون فى المجتمع والاقتصاد من تمايز وتباين بين الأفراد والقطاعات والأقاليم الاقتصادية، يمكن بعضها دون البعض الآخر من الاستجابة السريعة لإجراءات الإصلاح والتطوير بينما تبطئ معوقات الحركة وما جلبته آليات العمل فى عهود التخلف الاقتصادى بشرائح المجتمع وقطاعات فى الاقتصاد وأقاليم فى الدولة عن الملاحقة والمنافسة.

وفى حين يظهر التقرير تفاصيل الخصائص الخمسة سالفة الذكر إلا أنه لا توجد وصفة واحدة تتبعها المجتمعات فتنهض بإحسان، أكسير يتعاطاه الاقتصاد فيتقدم بإنجاز.

فلكل مجتمع محدداته ومقوماته وما يضرب به فى التاريخ، سواء كان تاريخه عميقاً ثرياً فى الدول ذات الحضارات أو كان تاريخه من حيث النشأة قصيراً ضحلاً رغم ما قد يبدو عليه من إمارات القدم، إن دققت فيها وجدتها مستعارة.

ولا يحدث النمو على أية حال فجأة ولكنه يتطلب التزاماً طويل المدى من



The Growth Report
Strategies for Sustained Growth and Inclusive Development
تقرير النمو: استراتيجيات النمو المستدام والتنمية الشاملة
Commission on Growth and Development
The International Bank for Recons Reconstruction and Development The World Bank
Washington
May 2008

إذا ما أرادت الحكومة أن تسبغ حمايتها على من هم أولى، فلاشك أنهم البشر... من خلال تعليمهم وتطوير مهاراتهم وإعانتهم على تحقيق فرص للعمل اللائق



قبل قيادة مؤمنة بتطبيق إستراتيجية للإصلاح بصبر، ومثابرة ومرونة.

ولم يعرف التاريخ الاقتصادى نمواً مطرداً ومرتفعاً لما يتجاوز ٧٪ فى العام ولمدة تزيد على ٢٥ عاماً إلا فى النصف الثانى من القرن العشرين. فلم يكن هذا ممكناً من قبل، حيث مكن الاندماج الاقتصادى العالمى الدول الساعية للنمو أن تستجلب أفكاراً ومعارف من مواطن تطورها من خلال استقدام الاستثمار الأجنبى المباشر وإرسال البعثات التعليمية والتدريبية. ولما كان تعلم المستحدثات أيسر من استحداثها من عدم، تجد الدول الناهضة سرعان ما تلحق بالدول التى تقدمت عنها.. فالنمو الاقتصادى ليس مجرد مؤشر إحصائى يظهر حال اليوم مقارناً بالأمس، ولكنه كحصان السبق يمتطيه من أراد لحاقاً بما فاته وبمن تجاوزه فى مضمار سباق الأمم.

ويتيح الاقتصاد العالمى لمن يحسن التعامل مع تحدياته واقتناص فرصه، مجالاً لزيادة الإنتاج من خلال طلب المستوردين، مولداً بذلك فرصا للعمل وزيادة الدخول لم تكن لتتحقق لو انكفأ الاقتصاد على ذاته يعتصر منه ما لا تجود به موارده. ولا سبيل لذلك إلا بالتخصص والكفاءة التى يتيحها التنافس وفقاً للمزايا النسبية الكامنة وتلك التى تكتسب.

ويذكرنا التقرير بأن النمو الاقتصادى يقاس فعلاً بمؤشرات كلية، كقياسك لطول الأشجار تبين ما تنتهى إليه قممها، ولكن العمل، كل العمل وراء هذه القمم المتطاولة يحدث فى الجذور. فعند منابت الأشجار، تجد عملية الإحلال والتجديد، وتحل الكفاءة محل تدهور الأداء وتدنيه، وتتم أيضاً جهود المساندة للأضعف شأناً والأقل حظاً فى الأخذ بمتطلبات النمو، حماية لحقوقه واستنهاضاً لإمكانياته ليكون عوناً للنمو وليس عليه.

ويشير التقرير إلى قيود النمو فيذكر أن فى عالم اليوم الذى يشهد وفرة فى العمل وزيادة فى الطلب العالمى على المنتجات يكون القيد على سرعة النمو متمثلاً بالأساس فى حدود الاستثمار بشقيه الخاص والعام. ويحد من الاستثمار مدى وفرة المدخرات، فالمشاهد أن الدول ذات النمو المرتفع تبلغ نسبة الادخار القومى فيها ٢٠٪ إلى ٢٥٪ من إجمالى الناتج.

يمكن بطبيعة الحال الاعتماد على تدفق رؤوس الأموال لتمويل الاستثمار المطلوب ولكن هذه التدفقات الرأسمالية تعانى من التقلب الذى لا يمكن من الاعتماد عليها فى تمويل عملية الاستثمار والنمو فى الدول الراغبة فى النهضة والتحرير من أسر التراجع الاقتصادى، ولا يمكن اعتبار مدخرات الأجانب التى تستقدم من خلال الاستثمارات الأجنبية المباشرة وغير المباشرة أو الاقتراض بديلاً بحال من الأحوال عن المدخرات المحلية التى تستوجب رعاية فى تحفيزها وحسن تعبئتها من خلال قطاع كفء للوساطة المالية.

لم تحقق أى دولة نمواً اقتصادياً يذكر دون استثمارات عامة ضخمة فى البنية الأساسية والتعليم والرعاية الصحية. وهذه الاستثمارات لا يمكن اتهامها بمزاحمة الاستثمار الخاص أو تقليص دوره، بل إن هذه الاستثمارات التى طالما عزف القطاع الخاص عن الدخول فيها لانخفاض عائدها وطول فترة انتظاره، تمهد الطريق أمام المشروعات الإنتاجية من ناحية وتعجل بتوزيع ثمار النمو لتحسينها فرص المنافسة، وتحقيق العدالة بين أفراد مجتمع يتمتعون بذات القدر من التعلم والرعاية الصحية والقدرة على الانتقال من مكان لآخر فى وطنهم.

قد تكون المشاركة بين القطاع الحكومى والقطاع الخاص فى تمويل مشروعات البنية الأساسية والتعليم والصحة، قد حسنت من فرص دخول الاستثمارات الخاصة فى هذه المجالات ولكن تظل تحت رعاية وضمانات من الحكومة.. وفى أى حال تظهر خبرة الدول الناهضة اقتصادياً ارتفاعاً من الاستثمارات العامة فى مشروعات البنية الأساسية لم تقل عن ٥٪ إلى ٧٪ من الناتج المحلى الإجمالى..



من نافلة الذكر، أن يشار إلى أن التعليم مهم فى حد ذاته وليس فقط لفضله فى رفع معدلات النمو. ولكن المشاهد فى عدد من الدول التى تحتفى «بكم التعليم» مقاساً بمؤشرات سنوات يقضيها التلميذ فى الدراسة أفضل شأناً من نتائج هذا الكم سواء من حيث الإلمام بمبادئ المعرفة والتعامل مع الأرقام وإتقان بعض المهارات. ولن ينمو اقتصاد ولن ينهض مجتمع لمجرد مكوث أبنائه، وإن كثرت أعدادهم، لفترات طوال فى معاهد شيدت لتعليم ما لا ينفع.

يؤكد التقرير على أن هناك فارقا كبيرا بين حماية بعض المنشآت والصناعات وحماية الناس. فلا تؤدى حماية منشآت متدنية الكفاءة سيئة الإدارة لا توفر لقطاعاتها مزايا نسبية أو تنافسية على الاستثمار، إلا إلى ضرر اقتصادى كبير لعموم الناس الذين يتحملون خسائرها من خلال إهدار الموارد وضياع الإيرادات العامة فى إصلاحها وما قد تتكبده هذه المنشآت من زيادة فى المديونية والخسائر وكذلك منع لبضاعة أفضل نوعاً وأقل سعراً من الوصول إلى المستهلك.

وإذا ما أرادت الحكومة أن تسبغ حمايتها على من هم أولى، فلاشك أنهم البشر... من خلال تعليمهم وتطوير مهاراتهم وإعانتهم على تحقيق فرص للعمل اللائق... لائق لما تدربوا عليه ولائق أيضاً من حيث ما يولده من دخول تعينهم على الحياة ومطالبها.

لا يتوقف أمر الإصلاح والتطوير عند البنية الأساسية ولكن يمتد إلى إحداث تحول هيكلى فى الاقتصاد على أن يكون هذا التحول مبنياً على قواعد المنافسة وقد وجدنا فى عدة حالات أن التطوير قد يمتد إلى الأهداف السهلة غير ذات الحساسية فيتناول سوق السلع والخدمات ولا يمتد إلى سوق العمل لتنظيمه وتطويره وتحقيق المرونة الواجبة فيه لكى تتحرك العمالة من قطاع قليل أو منعدم الكفاءة إلى قطاع أكثر إنتاجية ومتقدم الكفاءة والتنافسية.

ولعله من المناسب أن تتحلى السياسات المتعلقة بسوق العمل على قدر عال من البراجماتية الممكنة من تحقيق أهداف التشغيل دون إحداث هزات غير مبررة فى مصائر من لم يكونوا سببا فى تدهور الأداء، ولعل هذه السياسات تأخذ وقتاً طويلاً حتى تؤتى ثمارها.

وحتى تظهر الثمار، فعلى الحكومة ممثلة للدولة أن توفر شبكة متكاملة ويعتمد عليها للضمان الاجتماعى لكل من يستحق، فتعين ذوى الحاجة وتساعد المضطر بالدخول النقدية أو بالسلع العينية.



وترى لجنة النمو والتنمية أنه لا أمل فى نجاح أى إستراتيجية للنمو دون التزام بعدالة الفرص المتاحة لكل مواطن.. وإن كان من البديهى أن نذكر أن عدالة الفرص، كحال الدخول فى أى سباق تنافسى، لن تؤدى إلى تساوى النتائج ... ولكن تظل العدالة جالبة لرضا الناس عن النتائج.. ولا يجب أن تكتفى الحكومة بهذا حتى لو كانت استراتيجياتها للنمو واضحة وتم تطبيقها بعدالة. فعلى الحكومة مسئولية تخفيض عدم العدالة فى توزيع الدخول وهى غالبا ما تحدث بالمراحل الأولى للنمو.. ولها فى ذلك أن تأخذ من الغنى لتعطى الفقير. وإن لم يكن السند الأخلاقى لهذا الرأى مقنعا فإن المبرر البراجماتى جدير



لم تحقق أى دولة نمواً اقتصادياً يذكر دون استثمارات عامة ضخمة فى البنية الأساسية والتعليم والرعاية الصحية



بالإقناع. فالتفاوت غير المبرر فى الدخول وتعريض شرائح من المجتمع لأوجاع الفقر، وتمتع شرائح أخرى بثروات فاحشة، لن يسفر إلا عن أضرار اجتماعية وسياسية وأمنية باهظة، بما يهدد مسيرة الإصلاح التى تنشد النمو والتنمية.

ويلاحظ المتابع لأداء الاقتصاد فى دول شهدت نمواً مرتفعاً، بعد انخفاض فيه لسنوات، ظاهرة التباين فى إدراك أثر النمو، بل وتفاوت هذا الأثر فعلياً خاصة فى المراحل الأولى للنمو .. ويظهر التباين بين قطاعات أو أقاليم ولهذا التباين علاج فى الأجل المتوسط من خلال السياسات ومن خلال ضخ الاستثمار فى البنية الأساسية.

ولكن هناك تبايناً أخطر أثراً يصعب علاجه إن لم يتم تداركه مبكراً، وهو ما قد يكمن بين الناس بسبب النوع. فليست الأنثى كالذكر من حيث حظها فى التعلم والتدريب، فإن هى أدرجت فى الدراسة لسنوات، سرعان ما انقطعت عنها دون إتمام إما لضيق ذات اليد، أو تفضيلاً لتوجيه موارد الأسرة للذكور أو خشية تعرضها لشر أو مكروه أو إعداد لها لزواج قد لا يتم أو لا يكتمل. وقد انطلق البعض خلال القرن الماضى مذكرين الناس ببديهية أن المرأة نصف المجتمع عدداً، وربما أوضحوا أنها كل المجتمع تهيئة وتنشئة وسنداً إذا ما أردنا له أن يكون طيب الأعراق.

إن فى تعليم المرأة وإشراكها فى تنمية المجتمع نفعا لها ولذويها. وربما تحقق قدر من التعليم الكمى للمرأة وربما ارتقى هذا التعليم نوعاً فى بعض المجتمعات، ولكن تظل مشاركة المرأة أدنى من طموحها، وما يستوجبه تطور مجتمعها. فهى إن شاركت فى سوق العمل قل متوسط دخلها عن دخل الرجل وإن تساويا فى الأداء، وهبط سقف ارتقائها عن شقائقها من الرجال. وقل مثل ذلك عن المشاركة الاجتماعية والسياسية ولكن بإشارة إلى أسقف أدنى لحدود الارتقاء، ومازال هذا التفاوت قائماً فى دول ارتفع دخلها وبانت عليها سمات العدل الظاهر.

من المشاهد فى بعض الدول التى حققت ارتفاعاً للنمو أنها لم تكن ساعية بالضرورة لتحقيق حرية الأسواق ولكنها اتبعت سياسات متنوعة لزيادة الصادرات ودفع التنافسية، بما فى ذلك اتباع سياسات لدفع الاستثمار فى بعض القطاعات الجديدة أو التدخل فى إدارة سعر الصرف، وتدخل بعضها فى حركة رؤوس الأموال، ولكن هذه السياسات جاءت بقدر كبير من الجدل والاختلاف حول نفعها مقابل تكلفتها ومخاطرها. ولكن الدرس المستفاد من تجارب الدول هو التمتع بدرجة عالية من المرونة والبراجماتية فى الابتعاد عن هذه السياسات والإجراءات إذا لم تحقق نتائجها، وأن يتم التعامل معها كدواء يجب تعاطيه ويتم التوقف عنه فور تماثل المريض للشفاء .. وإلا أصبح الدواء علة من علل الإدمان ذات تكلفة باهظة يصعب البرء منها.

ومن المشاهد أيضا أن الدول صاحبة النمو المرتفع نزعت إلى إهمال البيئة فتلوث الهواء والماء بكافة أنواع وأشكال الأذى، بما يقرب آفة الإهمال بتكراره إلى جريمة العمد فى قصد إهدار حق الناس، فقيرهم وغنيهم، فى نوعية مقبولة للحياة. وحتى إذا ما تركنا ظاهرة تغيرات المناخ لدارسها المفسرة لأسبابه، فلتنظر إلى الإهدار الظاهر للبيئة من مخلفات الصناعة سائلة وصلبة، وما يتركه الناس من فضلات معيشتهم دون معالجة أو حد أدنى من مراعاة قواعد نظافة البيئة، فضلا عن ما تسببه سياسات دعم المحروقات والطاقة من توجيه للاستثمار بل ونمط الحياة إلى هدر إمكانية المجتمع وزيادة الصناعة الملوثة وأنماط الإنتاج والمعيشة كثيفة، وإن لم تكن سفيهة، الاستخدام للطاقة خاصة غير المتجددة.

قد يقال وعن حق أن الدول النامية قد تكون اقل إهدارا للبيئة من تلك المتقدمة وتكفى الإشارة فى ذلك إلى انبعاثات الكربون التى تتركز بالدول الصناعية الكبرى، ولكن هل اختلف نمط الإنتاج فى الدول النامية عن تلك التى سبقتها لتصبح أفضل للبيئة ممن سبقها إلى تدميرها؟ وأين دور هذه الدول النامية فى الحفاظ على حقها وحقوق أجيالها القادمة فى ظل هذا الجدل حول البيئة الذى صار معتركا دوليا وليس عملا يظنه البعض خيرياً؟ وهل أعدت الدول النامية لأجهزتها المعنية بالبيئة أفضل إمكاناتها التى يمكن أن توفرها لفهم أخطر الظواهر التى تهدد سلامة البشرية من خلال التغيرات المناخية؟ وهل أخذت بالأسباب للتوقى من شرور هذه المتغيرات؟

ولا يتركنا التقرير دون أن يوضح مجموعة من التحديات بعضها يخص دولا بعينها وبعضها الآخر يأتى شاملا لكافة الدول وإن اختلف مدى تأثرها بهذه التحديات.

فالتقرير يخص دول أفريقيا جنوب الصحراء بالإشارة إلى مشاكلها الجغرافية وتدنى بنياتها الأساسية وتخلف نتج عن عهود من الاستنزاف لموارد طبيعية تحسنت أسعار بعض مستخرجاتها فى السنوات القليلة الأخيرة وهى تواجه تحديا يتمثل فى مدى القدرة على الاستمرار فى الانتفاع بأسعار هذه الموارد وتنويع صادراتها وزيادة قيمتها.

كما يشير التقرير إلى دول صغيرة من حيث العدد السكانى والمساحة والموارد بما يجعل أى إنفاق استثمارى لتطوير بنيتها الأساسية ذا تكلفة باهظة إذا ما قيس بمتوسط نصيب المنتفعين بهذا الإنفاق لافتقاده مزايا الحجم والقدرة على تنويع الاقتصاد.

ويشير التقرير أيضاً إلى بلدان غنية بالموارد الطبيعية ومدى قدرة هذه البلدان إلى التعامل مع نقمة الغنى المانعة من اتخاذ إجراءات حصيفة لإدارة الاقتصاد وبناء المجتمع بفضل ما يأتيها من موارد تغنيها فى ظاهر الأمر وفى الأجل القصير.. وكثيراً ما تقع هذه البلدان فريسة، وإن تغير شكل الافتراس، لمن يستنزف هذه الموارد من خارجها أو من داخلها، ويلهو الناس فيها ولو إلى حين بموارد ريعية تأتى بلا كد مذكور أو عمل مشكور. وتعانى اقتصاداتها من أوجاع «المرض الهولندى» الناجم عن تفاوت فى نمو القطاعات وتركز فى مصادر الثروة والدخل وعائد الصادرات، لا براء منه إلا بحسن استغلال وتوظيف الموارد فى الداخل والخارج وتبنى سياسات تعتمد على نمو الاقتصاد المحلى وبناء الإمكانات استثماراً فى البشر وفى البنية الأساسية الممكنة لهم من الإنتاج.

أما المجموعة الرابعة، فهى تلك التى تنتمى لها الدول متوسطة الدخل الساعية إلى النمو، والحفاظ عليه والتى يشتد عليها وطيس المنافسة كلما اشتدت اقتراباً من مصاف الدول الأعلى دخلاً وقللت من حجم الفجوة بينها. فكلما ارتفعت الأجور فى هذه الدول قلت درجة تنافسيتها وانخفضت المزايا النسبية فى صناعاتها كثيفة العمالة، فيصبح لزاما عليها الاعتماد على قطاعات تعتمد على المعرفة والابتكار والاستناد إلى رصيد أكبر من رأس المال المادى والبشرى، وعليها فى هذا أن تحسن الإمساك بدفة التحول إلى هذه القطاعات، بمزيد من التدريب والتأهيل للعمالة، لتلبية متطلبات القطاعات الجديدة خاصة بالنسبة للمهارات الدقيقة المطلوبة، وإلا واجهت بطالة ظاهرة أو مقنعة لعمالة متوسطة أو متدنية المهارة، وما يصحب هذا كله من تبعات.



وينتهى التقرير بالحديث عن التحديات العالمية الجديدة والتى تتمثل فى أربعة: التغيرات المناخية، وتغيرات الأسعار النسبية والمشاكل الديموجرافية، والحوكمة على مستوى العالم.

التغيرات المناخية: لعل ما يشهده العالم من تغيرات فى المناخ من أخطر التحديات التى تواجهه، ومن أوجه الخطر الذى يبدو داهماً أن المتسبب فيه لا يتحمل أثره ووزره وحده بل يتحمله آخرون معه وفى بعض الحالات البعض وزر الآثم .. فالدول الأفقر هى الأقل إسهاماً فى هذه التغيرات المناخية من حيث انبعاث الكربون أو تخليف الملوثات ولكنها تدفع الثمن صراحة أو ضمناً، بل قد يدفع الأفقر ثمناً أكبر بحكم عدم توفر وسائل التوقى لديه أو التحوط من تغيرات المناخ، وإذا ما اشتدت الأزمات بالدول الأفقر قد تجدها محل منحة أو هبة أو إعانة عاجلة من بعض المتسببين فى نشأة الأزمة.



الدول الأفقر هى الأقل إسهاما فى هذه التغيرات المناخية من حيث انبعاث الكربون أو تخليف الملوثات ولكنها تدفع الثمن صراحة أو ضمنا



ولعل الأولى بأصحاب المنح والهبات أن يمنعوا الضرر ابتداء بدلاً من محاولة إعانة المكروبين انتهاء. يمكن الاستناد إلى التكنولوجيا ومستحدثاتها وآلياتها للسيطرة على انبعاثات الكربون وترشيد استخدامات الطاقة. وإذا كان على أحد القيام بجهد فى هذا الشأن، فهو على الدول المتقدمة وليس سواها..

والتحدى العالمى الثانى: هو الانخفاض الملحوظ فى الأسعار النسبية للمنتجات المصنعة وارتفاع أسعار السلع الأولية والخامات فى ذات الوقت فى ظاهرة غير مشهودة من قبل. فالارتفاعات المتلاحقة فى أسعار المواد الأساسية والسلع الأولية والمنتجات الزراعية قد تحقق نفعاً لمنتجيها. وذلك فى وقت خفضت الصين «وأخواتها» من أسعار المنتجات المصنعة بما حقق ما يشبه الانقلاب فى شروط التبادل التجارى وآثاره الاقتصادية بما فى ذلك أوضاع موازين المدفوعات، وما يرتبط بمستقبل الطلب العالمى على السلع الأولية والمصنعة من تغيرات..

أما التحدى الثالث فيظهر فى المشاكل الديموجرافية .. فبفضل ارتفاع توقعات الحياة عند الولادة لتحسن نسبى فى الرعاية الصحية وعلاج الأمراض من ناحية وانخفاض معدلات الإنجاب والخصوبة أصبحت الهياكل السكانية للبشر تنزع إلى ارتفاع متوسط العمر.. ويترتب على ذلك تحديات فيما يتعلق بمعدلات النمو والطلب على المنتجات خاصة من قبل الدول المتقدمة، وارتفاع نسب الإعالة ممن يعملون لمن لا يعملون لتخطيهم سن التقاعد وما يرتبط بذلك من اختلالات فى نظم التأمينات الاجتماعية والمعاشات وعدم القدرة على التواؤم العاجل مع هذه التغيرات فى الدول التى تعانى منها وخاصة الدول الأوروبية. يصاحب ذلك ارتفاع فى معدلات الخصوبة والولادة وزيادة معدلات نمو السكان فى البلدان النامية بما يصحب ذلك من ارتفاع فى بطالة صغار السن فى حالة انخفاض معدلات النمو الاقتصادى أو تدنى معدلات إتاحة فرص العمل حتى مع ارتفاع معدلات النمو.

وفى ظل قيود مفروضة على حركة العمالة والهجرة من أجل العمل تتعقد المشكلة السكانية على مستوى العالم. ويتطلب هذا كله تنسيقاً دولياً وسياسات أكثر مرونة للسماح بانتقال العمالة، التى تعقد من مشاكل العولمة.

أما الحوكمة على مستوى العالم فهى التحدى الرابع والأخير الذى يرصده تقرير النمو والتنمية؛ فلقد عول التقرير كثيراً على القدرة على التنسيق الدولى والتفاعل على المستوى العالمى لمشكلات الاقتصاد التى لم تعد قطرية تدور فى حدود دولة من الدول أو حتى مجموعة من البلدان تجاورت فى موقعها الجغرافى.. وفى ظل تطور الأهمية النسبية للدول النامية وأثر التدفقات المالية واختلال التوازن بين الادخار والإنفاق بشكل عام. ولن تحقق الدول النامية نموا يذكر دون مساندة من الدول الأكثر تقدماً والمساندة هنا ليست دعماً أو هبة، ولكنها تفعيل القدرة على النفاذ إلى الأسواق وزيادة الصادرات. ولن يحقق ذلك ما نراه من تعقيدات فى سبل حركة تجارة الدول النامية خاصة فى ظل التغير الذى تشهده دورة الدوحة لمفاوضات التجارة فى إطار منظمة التجارة العالمية.

ومع تواتر أزمات الاقتصاد والتجارة والمال فى خلال السنين الماضية وما يشهده الاقتصاد العالمى من تحديات اقتصادية مستجدة يتطلب الأمر بناء مؤسسياً جديداً وقواعد عادلة وفاعلة لإدارة النشاط الاقتصادى العالمى، وهو ما قد يأخذ وقتاً طويلاً قد تتخلله أزمات حادة، فى عصر يشهد عدم توافق، غير موفق، بين زيادة الاعتماد المتبادل على المستوى العالمى وقدرة محدودة على التكيف والتنسيق والتعاون الملائم بين الدول الفاعلة فى النشاط الاقتصادى.

ولعل هذا النجاح المشهود لدول نامية فى مضمار الإنجاز الاقتصادى، وهذا البزوغ المعتبر لأنشطتها الإنتاجية يستدعى أسئلة طرحت فى الماضى عن حدود النمو ومدى استمراره وشموله لما فيه نفع للناس. ويؤكد التقرير على أنه لا توجد إجابة قاطعة على التساؤلات حول حدود النمو، أو أن النمو سينطلق مدفوعاً بتوفر أسبابه. ولكن بعض الإجابة تكمن فى القدرة على الإبداع وتوظيف التكنولوجيا والعلم النافع فى إنتاج سلع وخدمات يطلبها الناس فى حدود ما هو متوفر من موارد طبيعية يحسن استخدامها. وسيظل هذا هو التحدى الأكبر فى القرن الحادى والعشرين الذى يجب مواجهته بنمو اقتصادى مطرد ومستمر تشمل منافعه الناس جميعاً دون تمييز وبما يخفض الفقر ويجفف منابعه بسياسات مرنة براجماتية تتولى تنفيذها حكومات فاعلة لما يريده الناس منها، دون هدر للإمكانية أو إجراءات شعبوية قد تفرح بعض الناس يوماً وتحزنهم جميعاً فى الأيام التالية، وهذا ما لا يرجى من أى سياسة تنشد النمو أو تسعى للتنمية. ■

كتاب الزاوية

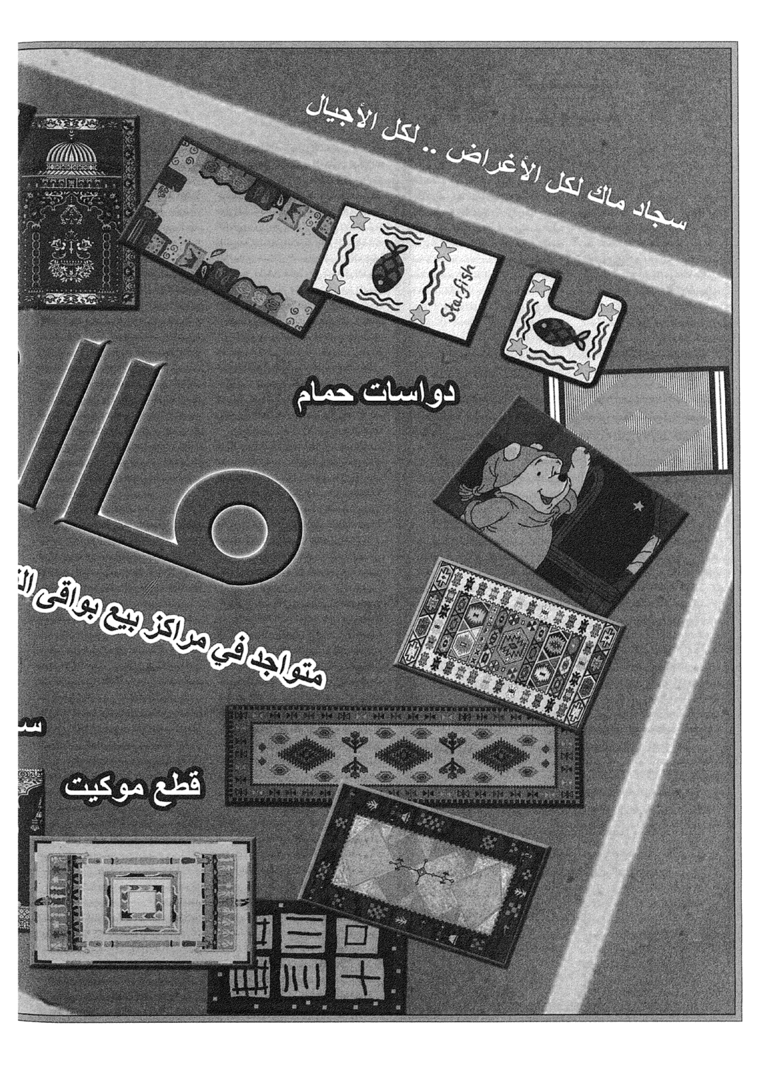
منهجى فى تذوق الكلام

محمود محمد شاكر

المنهج الذى استطعت أن أمهده لفكرى، كان نابعًا من صميم المناهج الخفية التى سنَّ لنا آباؤنا وأسلافنا طرقها، وأن كل جهدى فيه، هو معاناة كانت منى لتبين دروبها ومسالكها، ثم إزالة الغبار الذى طمس معالمها، ثم أن أجمع ما تشتت أو تفرق من أساليبها، معتمدًا على دلالات اللسان العربى، لأن كل ذلك مخبوء تحت ألفاظ هذا اللسان العربى، ومستكن فى نظم هذا اللسان العربى، وهذا يكاد يكون أمرًا مسلَّمًا ببديهة النظر فى شأن كل لغة وتراثها. والذى لا يملك القدرة على استيعاب هذه الدلالات وعلى استشفاف خفاياها، غير قادر البتة على أن ينشئ منهجًا أدبيًا لدراسة إرث هذه اللغة، فى أى فرع من فروع هذا الإرث، إلا أن يكون الأمر كله تبجحًا وغطرسة وزهوًا وغرورًا وتغريرًا، كما هو الحال فى حياتنا الأدبية هذه الفاسدة.

هذا هو جوهر حديثى عن منهجى فى «تذوق الكلام» كله شعرًا ونثرًا، وأخبارًا تروى، وعلمًا يُكتب أو يستخرج، لأن ذلك كله إنما هو إبانة عما تموج به النفوس، وتنبض به العقول. ففى نظم كل كلام وفى ألفاظه، ولابد، أثر ظاهر أو وسم خفى من نفس قائله وما تنطوى عليه من دفين العواطف والنوازع والأهواء من خير وشر أو صدق وكذب، ومن عقل قائله، وما يكمن فيه من جنين الفكر، (أى مستوره)، من نظر دقيق، ومعان جلية أو خفية، وبراعة صادقة، ومهارة مموهة، ومقاصد مرضية أو مستكرهة. فمنهجى فى «تذوق الكلام»، معنى كل العناية باستنباط هذه الدفائن، وباستدراجها من مكامنها، ومعالجة نظم الكلام ولفظه معالجة تتيح لى أن أنفض الظلام عن مصونها، وأميط اللثام عن أخفى أسرارها وأغمض سرائرها.




سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت

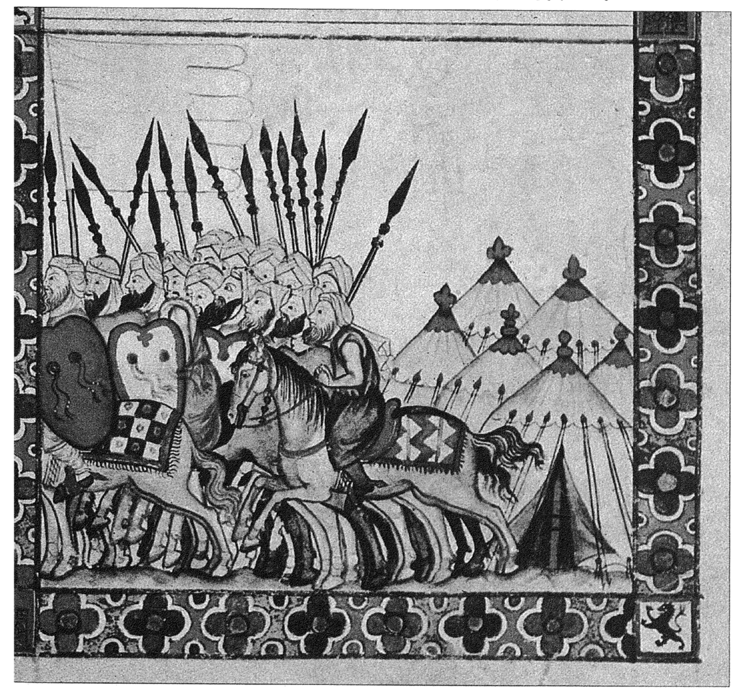


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
دير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
دة صلى
www.maccarpet.com

جهاد فاضل

الأندلس: هل كان غزوا؟!

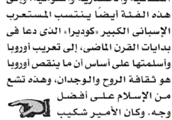
■ فرسان مسلمون وخيالة.. تصوير من أناشيد الفونس العاشر، أواخر القرن الثالث عشر، مكتبة دير سان لورنزو دى الاسكوريال.



بعض الإسبان مازالوا يطاردون تاريخ العرب فى بلادهم إلى اليوم، وكأن حرب الملكين الكاثوليكيين فرديناند وايزابيلا ضد مسلمى الأندلس لم تضع أوزارها بعد



■ الأندلس بعيون إسبانية غير الأندلس بعيون عربية، فالإسبان، وحتى الساعة، لم تَصْفُ نفوسهم إزاء الحقبة العربية الإسلامية فى شبه الجزيرة الأيبيرية التى استمرت ثمانية قرون بالتمام والكمال. ولكن إذا شئنا الدقة أكثر، قلنا إن الإسبان إزاء تلك الحقبة ينقسمون إلى قسمين: هناك من ينظر إلى الأندلس على أنها جوهرة تاريخ إسبانيا، ونواة حضارتها وحضارة أوروبا المعاصرة. فالأندلس هى التى نشرت عبر ابن رشد وعبر سواه من فلاسفتنا، الفكر العلمى والعقلانى فى الغرب. والأندلس كانت بداية عصر الديمقراطية والحرية والانفتاح والتسامح وحقوق الإنسان إلى أى دين انتسب، وهى القيم العزيزة على قلوب الغربيين. والأندلس فى صورة الإنسانية المعاصرة بل والمستقبلية من حيث تعايش الأديان والثقافات والشعوب. وإلى هذه الفئة من الإسبان ينتسب مفكرون ومؤرخون وباحثون كبار. منهم، على سبيل المثال لا أكثر، المؤرخ إمريكو كاسترو الذى يقول فى كتابه عن تاريخ إسبانيا إنه لولا المسلمين لما كانت إسبانيا على صورتها التى نعرفها اليوم. فـ «إسبانيا الإسلامية»، حسب قوله، هى التى وهبت إسبانيا المعاصرة كل خصائصها الثقافية والحضارية والقومية. وإلى هذه الفئة أيضًا ينتسب المستعرب الإسبانى الكبير «كوديرا» الذى دعا فى بدايات القرن الماضى، إلى تعريب أوروبا وأسلمتها على أساس أن ما ينقص أوروبا هو ثقافة الروح والوجدان، وهذه تشع من الإسلام على أفضل وجه. وكان الأمير شكيب



العرب لم يغزوا الأندلس
رؤية تاريخية مختلفة
أغناسيو أولاغى
نقله بتصرف من الإسبانية إلى العربية
إسماعيل الأمين
بيروت - رياض الريس للكتب والنشر

أرسلان الذي عرف كوديرا عن قرب، يقول إن أصله عربي، فهو من قبيلة «قُديرة» وليس إسبانيًا صليبية.

أما القسم الثاني من الإسبان فهو ينظر إلى الحقبة الأندلسية نظرة طائفية ضيقة، فالعرب مستعمرون محتلون كأي مستعمرين أو محتلين، وإذا كانت هذه الفئة من الإسبان قد انحسر نفوذها مع الوقت، منذ سقوط غرناطة وصولاً إلى وقتنا الراهن، إلا أنها لا تعدم التعبير عن نفسها بين الآن والآخر. ويتضح بجلاء لمن يقرأ خطاب هذه الفئة، أن هذا الخطاب صادر عن فكر طائفي متعصب. فالعدو هو الإسلام ولا مكان للإسلام في شبه الجزيرة الأيبيرية. بل لا مكان في شبه الجزيرة الأيبيرية إلا للكاثوليكية دون سواها. والطريف أن إسبان القرون الوسطى لم يتسامحوا لا مع اليهود ولا حتى مع البروتستانت. لقد كالوا بمكيال واحد بالنسبة لهؤلاء جميعًا، فالواقع التاريخي يقول إن الإسبان طردوا مع العرب اليهود ولم يتساهلوا حتى بقيام كنيسة لوثرية بروتستانتية بين ظهرانيهم، فبقيت إسبانيا كاثوليكية خالصة.

وبالرغم من الهزيمة التاريخية المريرة التي لحقت بالعرب عام ١٤٩٢، بسقوط مملكة غرناطة، ثم بتهجير الموريسكيين بصورة همجية قسرية لم يعرف التاريخ مثيلاً لها، فإن بعض الإسبان مازالوا يطاردون تاريخ العرب في بلادهم إلى اليوم، وكأن حرب الملكين الكاثوليكيين فرديناند وايزابيلا ضد مسلمي الأندلس لم تضع أوزارها بعد. وكأن محاكم التفتيش التي كانت تحاكم من بقي من مسلمي الأندلس متخفين، على ضمائرهم وسرائرهم لم تُنْهِ مهمتها بعد. وآخر ما سجل في هذا الإطار صعود أحد الناشرين الإسبان في «ملتقى ابن زيدون» الأخير في قرطبة إلى المنبر ليدعو العرب إلى شراء كتاب إسباني جديد للمؤرخ والأكاديمي الإسباني الدكتور أغناسيو أولاغي، محوره أن العرب لم يغزوا إسبانيا عسكريًا بل غزوها ثقافيًا لا أكثر، وبالتالي فإن وجهة نظر العرب حول «فتح» مزعوم للأندلس، وحول عقبة بن نافع وطارق بن زياد، إنما هي من وحي الخيال لا أكثر. والأندلسيون أنفسهم لم يكن لديهم مثل هذا التفكير لوجودهم في إسبانيا. ويخلص هذا المؤرخ إلى القول إن القاهرة كانت مصدر خرافة فتح العرب للأندلس. «ولكن هذه الخرافة عندما نقلت إلى أيبيريا، نمت وانتشرت بصورة واسعة لأنها وجدت لها مناخًا مشابهًا لمناخ الشرق».

المؤرخون العرب غائبون بالطبع عن مثل هذه النظريات، فأحدث ما لديهم حول تاريخ العرب في الأندلس هو ما كتبه المؤرخ أو الباحث المصري محمد عبدالله عنان في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي. أما ما كتبوه هم حول هذا التاريخ فمجرد تنويعات على ما كتبه عنان. ولأن الطريق إلى مكتبة الاسكوريال وباقي مكتبات إسبانيا وأوروبا لم يعد سالكًا منذ بداية عصر الانقلابات العسكرية العربية، فإن الساحة قد خلت للمؤرخ الإسباني الدكتور أغناسيو أولاغي ولبقية المؤرخين والباحثين الإسبان الذين مازالوا حاقدين على العرب والمسلمين إلى اليوم. إذ كيف تمكن هؤلاء «البرابرة» من السيطرة على إسبانيا والبرتغال ثمانية قرون، وهي أطول فترة حكمت فيها دولة من الدول إسبانيا وبقية شبه الجزيرة الأيبرية؟

لا بأس بالطبع من بسط نظرية أغناسيو أولاغي كما وردت في كتابه المذكور الذي لا يمكن لأحد اطلع عليه إلا أن يشهد له بالكفاءة والإحاطة وحسن «المرافعة» في القضية التي أوكل إلى نفسه الدفاع عنها.

يقول المؤلف إن الدعوة الإسلامية في إسبانيا لقيت مناخًا ملائمًا بحيث لم يُجْرِ الإسبان الذين سادت في مجتمعهم الديانة الأريوسية خلال القرن الثاني، إلا تعديلات طفيفة على معتقدهم وفكرهم وثقافتهم وعاداتهم ليتحولوا إلى الإسلام.

فالعرب والمسلمون لم يفتحوا إسبانيا عسكريًا، والتحول إلى الإسلام في الأندلس لم يتم إلا عبر حركة الأفكار وتصارعها، ثم هيمنة ما يسميه المؤلف بـ «الفكرة/ القوة» التي شكلت عصب الحضارة العربية الإسلامية في ثلاثة أرباع عالم تلك الأيام.



يقول جان بايرت في مقدمة ملخص فرنسي لهذا الكتاب: في عصرنا النووي هذا يمكننا أن نتخيل كارثة نووية تدمر الإنسانية، تاركة وراءها بعض المجموعات المتخلفة في أستراليا مثلاً.

وبعد آلاف السنين تزدهر حضارة جديدة على الأرض، وتكتشف الأجيال المنحدرة من هؤلاء الناجين القارة الأوروبية، مركز الكارثة القديمة، ولا تجد سوى كتابين: رأس المال لكارل ماركس، ورواية عسكرية بحتة حول الهجوم الألماني على روسيا سنة ١٩٤١.

قبل أن يحلل المؤرخ هذه النصوص القديمة يضع فرضية: اجتاح الألمان أوروبا الشرقية وفرضوا الماركسية.

أما بالنسبة للمعاصرين الذين شاركوا في احتفالات الثورة الروسية في سنة ١٩١٧، فإن هذه الفرضية تبدو مضحكة، لكنها أقل إضحاكًا من فرضية أخرى مقبولة عالميًا، هي أن العرب اجتاحوا شبه جزيرة أيبيريا وفرضوا الإسلام. ذلك لأن الألمان اجتاحوا روسيا فعلاً، بينما لم يدخل أي جيش عربي إسبانيا!

بالاستناد إلى وثائق لا تقل جزئية وتجزؤا عن تلك التي كان سيدرسها المؤرخون المفترضون أعلاه، اعتقد المؤرخون التقليديون أن بإمكانهم التأكيد على أن الحضارة العربية الإسلامية قد فُرضت على إسبانيا بقوة السلاح.

في الواقع، إضافة إلى التميز العقائدي لدى المسلمين والمسيحيين على السواء، استند المؤرخون من الطرفين إلى بضعة نصوص لم يعاصر أي منها أصلاً فترة تحول الأيبيريين إلى الإسلام.

أما الكنيسة الإسبانية فقد حكم رؤيتها للتاريخ هاجس إيجاد موضوعة تناسب موقفها، خصوصًا في القرن السادس عشر. وإذا قيل إن أيبيريا تم غزوها من قبل قوة عسكرية هائلة، تتفادى الكنيسة الخجل من أنها ظلت خاضعة لهذا الغزو مدة ثمانية قرون.

أما الحقيقة فهي غير ذلك. كانت المسيحية في أيبيريا في نهاية القرن السابع في حالة انحلال كامل، خصوصًا بعد قرن سيطرت فيه الأريوسية كديانة رسمية في دولة مزدهرة.

ولم يكن الأمر في شبه جزيرة أيبيريا سوى محاولات لاستعادة سلطة مسيحية، سياسية ودينية، مفقودة. أشعل الأمراء الرجعيون من متدينين وعلمانيين حربًا استمرت ثلاثة أرباع القرن، وانتهت بانتصار الأريوسيين الذين تابعوا تطورهم في سياق منطقي واضح وأصبحوا مسلمين.

في هذا المجال، يبدو من الضروري، بنظر المؤلف، إعادة دراسة الانتشار الإسلامي منذ بدء الدعوة، هل تم هذا الانتشار عبر السجال العسكري، أم اللاهوتي والسياسي، أم كليهما معًا؟ وما هو حجم الدور الفعلي لكل منهما؟

ألا يمكن، بدلاً من فتوحات عسكرية مستحيلة، أن يكون انتشار الدعوة الإسلامية في أيبيريا وغيرها، قد جاء ثمرة لحركات اجتماعية وفكرية داخلية تبنت الدعوة وساندتها؟

يُجمع المؤرخون من عرب ولاتين، من متقدمين ومتأخرين، على أن عدد المسلمين الذين دخلوا إسبانيا بلغ سبعة آلاف على أقل تقدير، واثني عشر ألفًا على أبعد تقدير، ويجمعون كذلك على أن معظمهم كان من البربر الذين كانوا لتوهم قد اعتنقوا الإسلام، ولم يكونوا قد تعلموا العربية بعد.

كيف تمكن بضعة الآلاف هؤلاء من السيطرة على عشرة ملايين أريوسي ومسيحي يعيشون في أهم مدن العالم آنذاك ازدهارًا؟ إن أرقام الغنائم ولوائحها التي أوردها الإخباريون المسلمون تشير إلى هذا الازدهار، بل إلى غنى فاحش.

وكيف تمكن عدد مشابه من السيطرة على خمسة عشر مليون قبطي في مصر لتتوفر لهم فيما بعد الفرصة والإمكانات لغزو كامل لشمال أفريقيا حتى بحر الظلمات؟

نحن العرب لدينا بالطبع أجوبتنا على مثل هذه الأسئلة. من هذه الأجوبة



مصر وبلدان الشمال الأفريقي كله، كانت مهيأة لاعتناق الدين الجديد بحكم انتسابها من قبل إلى أرومة سكانية واحدة



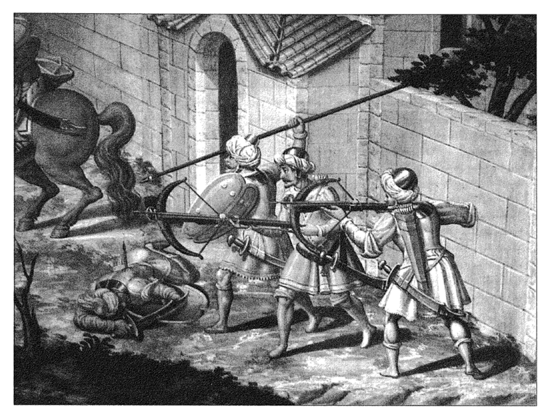
عندما وصلت أخبار خرافة غزو العرب لأيبيريا إلى مصر، قال البعض بهدف السخرية من العرب إنهم لم يكونوا أكثر من ستة عشر رجلاً من بين جيش يتألف من اثنى عشر ألف رجل



أن الإسلام حمل فى داخله طاقات هائلة دفعت بمعتنقيه إلى حمل رسالته ونشرها فى سائر أنحاء العالم القديم. ومن هذه الأجوبة أن مصر وبلدان الشمال الأفريقى كله، كانت مهيأة لاعتناق الدين الجديد بحكم انتسابها من قبل إلى أرومة سكانية واحدة، فالبربر، الذين يسمون الآن بالأمازيغ، هم من أصول يمنية، ولغتهم هى لغة سامية أو عربية بدائية. أما جنوب إسبانيا فقد كان يؤلف مع طنجة وما جاورها فى مدن المغرب، ولاية إدارية واحدة، والتداخل السكانى بين الجنوب الإسبانى وبلدان الشمال الأفريقى كان على أشده فى فترة وصول الإسلام إلى الغرب. لذلك كان من الطبيعى أن يتم فتح الأندلس حربًا وسلمًا فى الوقت نفسه. فالعرب المعاصرون لا يضيقون صدرًا بنظرية تقول بانتشار سلمى للإسلام فى شبه الجزيرة الأيبيرية، ولكن ما لا سبيل للجزم به - فى الوقت الراهن على الأقل، وعلى ضوء ما تسمح به النصوص والوثائق التاريخية - هو القول بأن فتحًا عسكريًا للأندلس لم يحصل أصلاً.

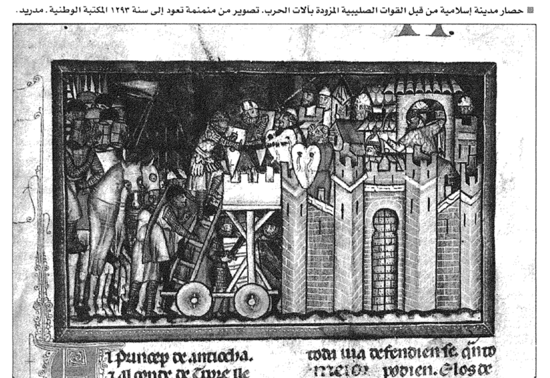
بحسب المؤرخ الإسبانى أغناسيو أولاغى، صاحب كتاب «الثورة الإسلامية فى الغرب»، نشأت فى إسبانيا فى المرحلة التى سبقت ما نسميه نحن العرب: «فتح العرب لإسبانيا»، أحداث سياسية ودينية مهدت لتدخل «قوة عسكرية» قادمة من شمال أفريقيا، وعلى التحديد من منطقة طنجة المحاذية للبر الإسبانى. هذه «القوة العسكرية» التى تدخلت لنصرة أبناء «غيطشة» على خصومهم المحليين فى شبه الجزيرة الأيبرية، إنما كان تدخلها، بنظر المؤرخ، لا لفتح الأندلس ونشر الإسلام فيه، إنما لواحد من سببين: فإما أنها تدخلت لأن طنجة مع ما يجاورها من أراض ومدن، كانت تابعة لملكة القوط الإسبان، وبالتالى فإن تدخلها كان من ضمن عمليات ترتيب البيت الإسبانى لا أكثر ولا أقل، وإما أن تدخلها كان مأجورًا ومدفوع الثمن سلفًا!

ويضيف الباحث، كى يثبت وجهة نظره هذه، إنه ورد فى أخبار الرازى، أن أمراء القوط خافوا بعد موت غيطشة ألا يتمكن الملك الجديد الطفل من صد اجتياح لملكته من قبل جيرانها: «بسبب صغر سن الملك، إذ كان من الممكن أن تخضع أيبيريا لسلطات أمم أجنبية: إما إمبراطورية القسطنطينية، وإما الإمبراطورية الرومانية». إذن حسب هذا النص لم يكن الخطر من دولة عربية إسلامية تمتد



أقواس النشاب المستخدمة فى مملكة غرناطة فى عهد بنى نصر تصوير لمعركة La Higueruela بين خوان الثانى ملك قشتالة ومملكة بنى نصر سنة ١٤٣١، رسم جرانللو، كاتسللوم، تافارونى وأورازيو كامبياذ، يعود إلى سنة ١٥٨٧ - ١٥٨٩، دير سان لورنزو دى الاسكوريال.

حصار مدينة إسلامية من قبل القوات الصليبية المزودة بآلات الحرب. تصوير من منمنمة تعود إلى سنة ١٢٩٣ المكتبة الوطنية - مدريد.



حتى المغرب، إنما الخطر كان وافداً من قبل أسياد العالم المسيحى. وقد أكد الرازى، الذى لم يتحدث عن وجود دولة إسلامية فى الجهة الأخرى من المضيق، والذى كان يكتب فى القرن العاشر، وأكثر من مرة، أن مثل هذه الدولة لم تكن موجودة فى بداية القرن الثامن. «ولا يمكننا أن نتصور أن بضعة آلاف من سكان الريف الذين عبروا المضيق مع طارق كانوا يتكلمون اللغة العربية. وحتى لو كان العرب قد وصلوا لتوهم إلى هناك، فإن هذه الشعوب لم تكن قد أسلمت فعلاً وتعلمت العربية».

ويرى المؤرخ أن بالإمكان الآن أن نفهم بصورة أدق كيف تمكن طارق ورجاله من اجتياز مضيق جبل طارق الخطير. لقد أرسل أبناء غيطشة رجال مدينة فاوس لنقلهم. كان هؤلاء الرجال بحارة وتجاراً. ولم تكن أهدافهم بالضرورة سياسية. بل أجَروا خدماتهم ونفذوا عملية نقل الجنود كأية عملية تجارية بحتة. فى تلك الفترة لم يكن البحر المتوسط بعد - كما هو الآن - خط تماس يفصل المسلمين عن المسيحيين. وكانت العلاقات من جميع الأصناف، وعلى جميع المستويات، قائمة وثابتة بين طنجة والبر الإسبانى تماماً كما هو طبيعى أن تقوم مثل هذه العلاقة بين منطقتين تنتميان إلى الحضارة نفسها والدولة نفسها. وصول أبناء الريف لمساعدة الأيبيريين ليس حدثاً استثنائياً. فعندما كاد القيصر جوليان أن يسقط ويفقد سلطته فى معركة مدينة ماندا بالقرب من قرطبة، استعان بفرسان زعيم أفريقى. وفى جميع الحقب، قدم المرتزقة من أبناء الريف فى مراكش خدماتهم لملوك القوط. كما استمروا فيما بعد فى تقديمها للأمراء والخلفاء الأيبيريين المسلمين.

حسب الروايات البربرية كان المحاربون الذين عبروا من أفريقيا إلى منطقة بتيكا لمساعدة أبناء غيطشة ضد لذريق من أصول مختلفة. كانت أكثريتهم من المراكشيين، أما البقية فمن مناطق بيزنطية. «وعندما وصلت أخبار خرافة غزو العرب لأيبيريا إلى مصر، قال البعض بهدف السخرية من العرب إنهم لم يكونوا أكثر من ستة عشر رجلاً من بين جيش يتألف من اثنى عشر ألف رجل. ربما كان موسى بن نصير من بين عناصر هذه الدزينة. ولكن حتى لو قبلنا بأن العدد كان أكثر بكثير، فلا يمكننا أن نقبل أنه كان هناك اتصال دائم برى أو بحرى بين هؤلاء المغامرين السمر وبين المركز الإسلامى الحيوى فى دمشق الذين يبعد أكثر من خمسة آلاف كيلو متر عن أعمدة هرقل».



يقول المؤرخ إن الأسطورة التى حيكت حول شخصية موسى بن نصير (القائد الأعلى للفتح بحسب وجهة النظر التاريخية العربية) لا تتطابق مع المعطيات التاريخية التى يمكننا اليوم تحديدها. فحسب الإخباريين العرب، ولد موسى بن نصير فى مكة سنة ٦٤٠ ومات سنة ٧١٨. فى سنة ٧١١ كان عمره ٧١ سنة. بالنسبة لتلك المرحلة كان هرماً، بل طاعناً فى السن. فى تلك الأيام كان يتعين على الجنرال أن يكون شاباً ليحتمل المشاق التى تفرضها حملة عسكرية طويلة. كان على موسى بن نصير، وفى هذه السن، أن يقوم بالرحلة من الشرق حتى أيبيريا. هذا العمل وحده يشكل بطولة مأثورة. أما تحويله إلى قائد عسكرى يقود غزو أيبيريا فيدخل فى باب الخرافة. والغزوات الآتية فى الشرق لا تصمد أمام الحس النقدى. فالجنرال فى غزواته تلزمه الجيوش. أية سطوة كان يمتلك موسى بن نصير ليجند المراكشيين الذين شكلوا - كما يقول الإخباريون العرب - الجزء الأساسى من جنوده؟ كيف كان يتفاهم مع زعمائهم الذين يتكلمون لغة غير لغته، وفى زمن لم يكن هناك مترجمون بعد؟ كانت اللغة العربية فى تلك المرحلة أكثر غرابة من الصينية اليوم. اتفق جميع المؤرخين القدماء على ألا يفسروا كيفية تمكن موسى من الوصول إلى مراكش ليجد هناك جيشاً تحت تصرفه، ويعبر به المضيق إلى أيبيريا، ويجتاحها فى ثلاث سنوات. لقد وصلت المبالغة، بنظر المؤرخ الإسبانى، حد السخرية!

يلخص المؤرخ المآثر التى نُسبت إلى موسى بن نصير بالقول إنها مجرد تذكارات غامضة، مأخوذة من كتب وروايات شعبية حول أحداث عسكرية خارقة عرف بها هناك فى الشرق، زعماء الإسلام الأوائل.

والحقيقة - كما يضيف - أننا لا نمتلك أية وثيقة رصينة حول شخصية موسى. أقدم النصوص التى تحدثت عن أعماله الخارقة هى نصوص مصرية تعود إلى بداية القرن التاسع. ويصعب علينا أن نقرر ما إذا كان الأمر يتعلق بشخصية خيالية، كما يعتقد الأسقف إيزودورو أم لا؟، وكذلك إذا ما وجدت فعلاً هذه الشخصية، فإنه يستحيل استنتاج خطوط سيرته العامة للتأكد من مجيئه إلى أيبيريا أو عدمه. فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار تلك الأجواء التى تهيمن على النصوص البربرية، يمكننا فى أحسن الأحوال أن نفترض وجود احتمالين: إما أن يكون موسى بن نصير شخصية



■ تصوير جدارى فى قصر البرطل فى مدينة الحمراء (غرناطة) يرجع إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر، نسخة تعود إلى عامى ١٩٢١ - ١٩٢٢.

كيف تمكن بضعة الآلاف هؤلاء من السيطرة على عشرة ملايين أريوسى ومسيحى يعيشون فى أهم مدن العالم آنذاك ازدهارا؟ إن أرقام الغنائم ولوائحها التى أوردها الإخباريون المسلمون تشير إلى هذا الازدهار، بل إلى غنى فاحش



خرافية، وبالتالى يتعين علينا استبعاد مآثره من التاريخ الرصين، وإما أن يكون لهذه الشخصية أساس فى الروايات المصرية والبربرية. وفى هذه الحالة، لا يكون موسى بن نصير قائداً عسكرياً، بل مبشراً دينياً!

إن كاتب الأخبار البربرية: «أخبار مجموعة»، قدمه لنا كفقيه أكثر منه كقائد عسكرى. وعندما أحدثت الأزمة الثورية ذلك الهيجان فى جميع المناطق المتوسطية، نزل على الساحل الأيبيرى، منذ بداية الأحداث، أنماط كثيرة من الناس. جاء البعض بحثاً عن الثروة والمغامرة. وجاء آخرون ليبشروا بالدعوة الإسلامية. ولابد أن العرب قد تأثروا بانفجار الأزمة فى أيبيريا بين أنصار التوحيد الأحادى، الذين يعتبرونهم إخوتهم، وبين الثالوثيين الذين كانوا فى نظرهم مشركين بدرجة أو بأخرى. تأثروا لأن ذلك يذكرهم بالأحداث التى مرت فى بلادهم قبل قرن من الزمن. ولابد أن التبشير، بصورة الأكثر بساطة والأشد استقامة، قد دفعهم دون شك، إلى مساعدة هؤلاء الأيبيريين (بالفعل والكلام) الذين كانوا يحملون أفكاراً دينية قريبة جداً من أفكارهم الإسلامية.

ونظراً لاستحالة إرسال مساعدات عسكرية، بسبب بُعد المسافة وطبيعة وسائل النقل، أرسلوا لهم على وجه السرعة المبعوثين ليتحروا أوضاع إخوانهم فى الدين، ولينقلوا لهم تعاطفهم. ثم بعد أن تلقوا الأخبار السارة، وجهوا نحو أيبيريا السلاح والمال والكتب والمبشرين، آملين بدفع إخوانهم البعيدين إلى السير قدماً على طريق التوحيد الأحادى، ودخول العائلة الإسلامية الكبيرة.



من هذه المجموعة من الدعاة الذين وصلوا إلى أيبيريا، خرج رجل استثنائى، إما بسبب نفوذه الفقهى، وإما بسبب الدور الذى لعبه، ربما كان موسى بن نصير يتحمل أعباء مهمة كلفه بها زعماء المسلمين، وربما الخليفة نفسه. وهى مهمة توطيد علاقات مستمرة مع التوحيديين الأحاديين فى أيبيريا التى كانت تشتمل على موحدين وعلى مثلثين. هكذا نفهم بصورة أفضل تلك الرحلات الشاقة التى قام بها هذا العجوز.

أما كتّاب الأخبار اللاحقون، فقد نسبوا خصائص عسكرية لهذا الداعية بعد أن نسوا الهيجان الدينى فى القرن الثامن، خصوصاً أن نموذج المسلم أيام المرابطين كان عسكرياً أكثر منه مبشراً.

على هذه الصورة يتحدث المؤرخ الإسبانى أغناسيو أولاغى عن موسى بن نصير. ولكنه لا يوفر طارق بن زياد، رفيق موسى بن نصير فى الفتح، من ملاحظاته القاسية. فالمغالطة التاريخية، ومبالغات الإخباريين العرب، تنطبق أيضاً على شخصية طارق.

ويفترض أغناسيو أولاغى احتمالين أيضاً: فإما أن يكون طارق مجرد زعيم قبيلة بربرية تحت سلطة حاكم طنجة، وإما أن نقبل الرواية البربرية التى تقول إن طارق نفسه كان حاكم طنجة. «ولكن فى هذه الحالة، لابد أن يكون قوطياً من أصل جرمانى، ذلك لأن اسمه المكتوب والمقروء باللغة القوطية TARIC يدفعنا إلى قبول هذه الفرضية. ويفسر هذا الأمر المهمة الخطيرة التى كلفه بها أبناء الملك غيطشة الذى عينه حاكماً على طنجة، وظل يعتبر نفسه سيده. وهكذا عبر طارق المضيق مع جيوش من المرتزقة المراكشيين لدعم حزب الشرعية الذى يتبنى، فى الوقت نفسه، معتقده الدينى، أى التوحيد. كذلك تُفسر سلطته على المقاطعة التى هزم فيها لذريق. ذلك باعتباره حسب بعض الإخباريين، القائد الأعلى لجيوش حزب التوحيد الأحادى فى معركة وادى لكَة. لقد مات ريشندو، وكان أخيل حدثا، أما أوباس فكان رجل كنيسة. وفى هذه الحالة لم يبق سوى طارق، أعلى رجل مدنى فى حزب الملك فى بتيفا.

وفى أقدم الأخبار البربرية نجد أن طارقاً وأفراد جيشه قد تنكروا بلباس المراكشيين المستعربين. على أن المهم أن الأعمال العسكرية الحاسمة التى قام بها طارق وسواه من أنصاره وخصومه، لم تتم إلا على رقعة قصيرة لا تساوى أكثر من عُشر مساحة الأندلس. أما المؤرخون فقد

سحبوها على كامل مساحة أيبيريا وقسم من المقاطعات الفرنسية. ورأوا فى معركة وادى لكة الحدث الذى لم يضع فقط نهاية لمحاولات لذريق استعادة مملكته، بل وضع حداً كذلك لنهاية المملكة القوطية بأكملها!

ولكن المؤرخ الإسبانى يثير أسئلة أخرى. فحتى لو قبلنا أن جيش طارق كان يعد - حسب بعض الروايات - ١٢ ألف رجل، وأن جيش لذريق كان لا يقل عن مائة ألف رجل، فكيف أمكن أن ينتصر جيش طارق على مثل هذا الجيش؟

ليفى بروفنسال، المؤرخ الفرنسى الذى كتب عن الأندلس يتساءل أيضاً «عما إذا كان كتاب الأخبار العرب قد عمدوا إلى التقليل من عدد جنود طارق ليجعلوا نتائج الحرب أكثر لمعاناً».. لكن هذا على الأغلب، وبنظر المؤرخ الإسبانى، غير صحيح. لأن العرب لم يكن لديهم فى تلك المرحلة وسائل نقل بحرية قادرة على نقل جيش كبير. وعلى أبعد تقدير، لم يكن جيش طارق يتجاوز السبعة آلاف رجل. لذلك من الخطأ الذى لا يُغتفر أن تُعتبر معركة وادى لكة - كما اعتبرت معركة بواتييه فيما بعد - معركة تشكل نقطة تحول كبير فى تاريخ الغرب.

بمجرد النظر إلى الخريطة الجغرافية يظهر الخطأ واضحاً. فحتى لو حدثت فعلاً معركة وادى لكة، فلم يكن بوسعها أن تقدم للغزاة أى تفوق استراتيجى. إنما فقط مجرد فرصة لوضع أقدامهم على الأرض الأيبيرية. وفى أفضل الأحوال، لا يهدد الغزاة بعد الانتصار فى هذه المعركة أكثر من السهل المنخفض الواقع غربى الأندلس. أما المناطق الواقعة بعد هذا السهل، فإنها تعتبر أراضى طمى مليئة بالمستنقعات وتسيطر عليها جبال ذات ممرات ضيقة جداً. ورغم أنها ليست عالية كثيراً، فهى كافية لتمكن جيشاً صغيراً من هزيمة جيش أقوى منه بكثير. وهذا ما حدث فعلاً عندما أسس ابن حفصون فى جبال رندا المشرفة على المضيق مملكة مسيحية صمدت أكثر من خمسين سنة أمام جيوش أمراء قرطبة الأغنياء!

على أن من أطرف ما يذكره المؤرخ الإسبانى أغناسيو أولاغى فى كتابه «تاريخ الثورة الإسلامية فى الغرب»، أن خرافة غزو العرب لإسبانيا عسكرياً ظهرت أول ما ظهرت فى مصر، أما كيف كان ذلك، فإن المؤرخ الإسبانى يشرحه على الوجه التالى:

عند الدفاع عن المعتقدات يُظهر الملتزمون الجدد بها، طاقة أكثر حيوية من الملتزمين القدماء، ويظهر فى إيمانهم نقاء أكثر من أسلافهم. ومسلمو أيبيريا، فى بداية القرن التاسع، لم يكونوا شواذ عن هذه القاعدة. هكذا، وبحماسة شديدة لهذا المعتقد الجديد (يقصد الإسلام) ذهب هؤلاء المؤمنون الشباب فى رحلات شاقة إلى القاهرة ليستمعوا إلى محاضرات ودروس علماء الإسلام. وكان من بين هؤلاء، ابن حبيب الذى اعتنق المذهب المالكى ونشره فى أيبيريا. كذلك قدم إلى مواطنيه، فى كتابه، تاريخ المعلومات التى حصل عليها حول الأحداث التى جرت فى بلادهم فى القرن الثامن. وقد ارتدت هذه المعلومات أهمية كبيرة: اجتياح العرب إسبانيا. لقد امتلك ابن حبيب مفتاح السر.



يقول المستشرق دوزى فى كتابه (أبحاث) الذى نشره فى القرن التاسع عشر، وفى معرض التعليق على روايات ابن حبيب: «ألم يتكون لديكم انطباع بأنكم تقرءون نصوصاً من ألف ليلة وليلة؟ هل يجب علينا الاعتقاد بأن عرب إسبانيا قد نسوا خلال قرن واحد أخبارهم الوطنية لصالح خرافات غير معقولة؟ الحكايات التى نقلها ابن حبيب ليس لها أية علاقة بالتقاليد الشعبية فى إسبانيا. هو لم يجمعها من إسبانيا، وإنما من الشرق: من مصر. أشار إلى أسماء الشخصيات التى جمع المعلومات منها: إنهم علماء أجانب من بينهم عبدالله بن وهب المتوفى سنة ٨١٣ الفقيه الإسلامى المعروف فى القاهرة، والذى حدثه برواية غزو طارق لإسبانيا. وروى له الكثير عن مغامرات موسى بن نصير (تلك البلاد التى رأى فيها الشرقيون بلاد الخرافات). وكان ابن حبيب قد سمع الرواية من عالم مصرى آخر لكنه لم يذكر اسمه.

ويعلق أغناسيو أولاغى على ما كتبه المستشرق دوزى قائلاً: هكذا بدلاً من أن يسأل ابن حبيب مواطنيه عن رواية موسى وفتح أيبيريا من قبل طارق، فضل الإصغاء إلى علماء مصر وسماع محاضراتهم عن فتح العرب لإسبانيا.. وهكذا بسبب احتقارهم لمواطنيهم الذين كان علماء الشرق ينعتونهم بالجهلة، وبسبب احترامهم لأساتذتهم الذين كانوا يقدمون لهم ببراعة وعمق فائقين أسرار اللاهوت والعلوم، كان جميع طلاب إسبانيا العائدين من مصر، يعتبرون أن هؤلاء العلماء الذين امتلكوا هذا القدر من المعارف، لابد أنهم يعرفون عن إسبانيا أكثر من مواطنيها. لذلك كانوا يحرجونهم بالأسئلة حول هذا الموضوع. فهم لا يعرفون شيئاً عن غزو أيبيريا، إلا أنهم مشهورون بمعرفة شاملة، لا تفوتها شاردة ولا واردة. لكن ماذا كان بوسعهم أن يفعلوا؟ كانوا يولمون لطلابهم الخرافات الفكاهية المصرية.

وبرأى أغناسيو أولاغى، لم يفهم دوزى السياق التاريخى ليتمكن من تفسير الدور الذى لعبه ابن حبيب ورفاقه من خلال الرحلات الدراسية. وقد بدا له من المدهش أن ينسى الأبناء مآثر الأجداد. ذلك لأنه كان مقتنعاً بأن العرب غزوا إسبانيا بقيادة موسى بن نصير. «أما بالنسبة لنا فالمدهش كى لا نقول الفضيحة، هو أن أحداً لم يحاول أن ينقض هذه الخرافات غير المعقولة التى نُقلت من مصر، وأن أحداً لم يحاول إعادة صياغة سياق الأحداث، أو على الأقل تقدير احتمالاتها. إن القول بأن «عرب» أيبيريا قد نسوا مآثر أجدادهم بعد قرن من الزمن، لا يقل إثارة للدهشة من أن عربياً وضع قدمه فى هذه المنطقة من دون أن يكون غريباً مهاجراً.. ولو أن غزو أيبيريا من قبل العرب قد تم فعلاً فى سنة ٧١١، لكان عدد كبير من المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة شهوداً على هذا الحدث العظيم. لنفترض أن الحرب الأهلية قد أتلفت جميع الشواهد، غير أن أخبار القرن التاسع التى كتبت فى عهد من الاستقرار والازدهار، كان لابد لها من أن تشير إلى هذه الأحداث. ولابد من أن يصلنا، على الأقل، واحد من هذه النصوص، فعندما يتعلق الأمر بغزو ما، لا يمكن أن يكون دور الغزاة غامضاً. الغزاة والمغزوون يتمايزون عادة بشكل واضح خصوصاً إذا كان الغزاة من شعب غريب، ويحملون عادات ومفاهيم ثقافية تنتمى لحضارة مجهولة من أبناء البلاد المغزوة. لم يظهر شىء من هذا القبيل فيما نعرفه عن تلك الحقبة. والأخبار التى نقلها ابن حبيب وزملاؤه لم تترسخ جذورها وتنتشر فى الرأى العام إلا بعد جهود استمرت قروناً طويلة. وبعد أكثر من مائة سنة من نشر كتاب «تاريخ» لابن أبى الرقة، لم يقبل الرواة البربر - الذين نقلوا معظم روايات الكتاب - أساس نظريته. وقالوا إن غزو إسبانيا قد تم فعلاً ولكن من قبل المراكشيين».

كان يجب الانتظار حتى مجىء المؤرخين المسلمين بعد القرن الثانى عشر لتتخذ الخرافة بنية متآلفة وغير متناقضة. استبعد هؤلاء المؤرخون جميع المشكلات المادية وحولوا الحدث إلى معجزة قام بها المؤمنون الحقيقيون بمساعدة العناية الإلهية. ومع ذلك لقيت هذه الصيغة معارضة ومقاومة ثم تمكنت من فرض نفسها. وانطلاقاً من مبدأ ثابت فى تاريخ المجتمعات الإنسانية عندما تكون فى حالة اندفاع حضارية، نسى الأيبيريون الماضى، فهم الآن يسهمون فى عملية انتشار الحضارة العربية/ الإسلامية التى لا تقاوم. وسواء أكان العرب، رجال العصر، اجتاحوا إسبانيا أم لا، فلم يعد الأمر مهماً، ربما لم يصلوا إلى إسبانيا بلحمهم ودمهم. ولكن من المؤكد أن عبقريتهم اجتاحت القلوب.

إذن، وحسب كتاب «الثورة الإسلامية فى الغرب»، ظهرت الجذور الأساسية «لخرافة» فتح العرب لإسبانيا ونتائجها فى مصر. وعندما نُقلت إلى أيبيريا، نمت وانتشرت بصورة واسعة لأنها وجدت لها مناخاً مشابهاً لمناخ الشرق. ومع ذلك، فلم يبدأ التطور الأيبيرى نحو الإسلام

إلا بعد قرون من بدئه فى الشرق، أى فى الفترة التى تفصل حقبتى الأزمتين الثورتين والعودة إلى الهدوء.

نشأت هاتان الخرافتان: خرافة انتشار الإسلام بقوة السيف، وخرافة غزو أيبيريا، ونتائجهما عن الأسباب نفسها، ففى أيبيريا كان الوعى الجماعى يحتفظ بذكرى حروب أهلية لم تكن الأجيال التى جاءت بعدها بموقع يسمح لها بفهم أسباب اندلاعها. وبسبب غياب المنهجية فى علم التاريخ، لم يكن فهم هذه الظاهرة العظيمة وتحليلها ممكنًا إلا فى العصور الحديثة، وحتى المعاصرة. وبسبب النقص فى العدة المنهجية الضرورية لتثبيت الأفكار، عانت هذه الأجيال، فى تفسير أحداث الماضى، من مزاجية تلك الحقبة المليئة بالتحولات العميقة. أما المثقفون المسلمون فى الشرق الذين تثقفوا باللغة العربية، حسب مبادئ الإسلام، وتشربوا دينامية فكرته/ القوة، فإنهم لم يجدوا حلاً للمعضلة الناتجة عن جهل مواطنيهم للماضى، سوى تبسيط التاريخ بسبب غياب المنهجية.

لم يكن لدى المسلمين عند انطلاق دعوتهم خارج الجزيرة العربية سوى القرآن الكريم بفكرته/ القوة واللغة العربية. اللغة العربية الأدبية الخلاقة التى حلت محل أعظم لغتين فى ذلك العصر هما اليونانية واللاتينية. اليونانية واللاتينية تحملان العلوم والفلسفة وسطوتهما، والعربية تحمل القرآن الكريم وفكرته/ القوة. يمكن نقل العلوم إلى لغة أخرى، ولكن يستحيل نقل الفكرة/ القوة، لأن نقلها يعنى الانخراط فى حضارتها. وهذا ما حصل فعلاً فى مختلف المناطق التى انتشرت فيها الحضارة العربية الإسلامية.

كيف كان بإمكانهم أن يفسروا هذا الحدث العظيم: كتاب ولغة يجتاحان العالم. أمر مستحيل. لم يجدوا حلاً سوى القوة. فتوحات عسكرية تتبعها سيطرة الإسلام وحضارته.

ميزة هذا التفسير السطحى بنظر المؤرخ الإسبانى، أنه أرضى انحيازين مسبقين ومتناقضين: المسيحيون رأوا فى هذا التفسير حلاً لمعضلة ماضٍ مخجل، وحلاً لآمال مستقبل يحلمون به. اجتاحوا بلادنا بالسلاح، وما علينا إلا تحريرها بالسلاح!

أما المسلمون فقد وجدوا فيه حلاً لمعضلة ماضٍ عجزوا عن تفسير آلية تطوره، ولمستقبل بدأت بشائره تشعرهم بالحاجة إلى السلاح بعد أن بدأت القوة/ الفكرة تخبو فى بلاطات الخلفاء. «وقد تم دمج الصورتين المسيحية والإسلامية بشكل بطىء. ذلك أنه بدءًا من القرن الثالث عشر، أى القرن الذى وصلت فيه الحاجة لقوة السلاح إلى أوجها عند الطرفين، اتفق جميع المؤرخين، وفى جميع الاتجاهات على خرافة الغزو»!

لا يخفى على من يقرأ كتاب المؤرخ الإسبانى أغناسيو أولاغى الجهد العظيم الذى بذله لإثبات صحة نظريته أو فرضيته. عاد إلى مئات المراجع. هناك مائة وخمس صفحات فى نهاية الكتاب خصصها المؤرخ لسرد مراجعه. ومن جملة ما اعتمد عليه مكتبة الاسكوريال الإسبانية الشهيرة بمراجعها حول الحقبة العربية الأندلسية. ولكن ما يشعر به قارئ كتابه هو أنه نصب نفسه، من البداية، محاميًا للدفاع عن «قضية»، وقد بذل جهودًا مضنية من أجل ربح «دعواه». ولكن «الدعوى» بقيت بنظرنا «دعوى» مطروحة أمام محكمة التاريخ، لا «دعوى» فصل بها قاضٍ ثقة وانتهى الأمر. فالأمر لم ينتهِ رغم كل هذا الجهد الذى بذله «المحامى» الشاطر.. خاصة أن القارئ يشعر عندما يقرأ كتاب أولاغى أن هذا الأخير صدر فى كل هذا الجهد الذى بذله فى كتابه، عن «شعور بالعار» أو بـ«المهانة»، لا عن شعور بضرورة تقديم خدمة بريئة ومنزهة لصالح التاريخ. لقد كنت أشعر وأنا أقرأ كتاب أولاغى، أن مؤلفه مسيحى متعصب هاله أن يخضع بلده إسبانيا «لاحتلال إسلامى» استمر ثمانية قرون.. فمضى يبحث عن كيفية فقدان إسبانيا لإرادتها، وبصورة خاصة عن بداية هذا الاحتلال وهل كان غزوًا عسكريًا أم عملية «انتشار أفكار» أعقبها فلتان للحدود ودخول تجار ومغامرين وباحثين عن الثروة، إلى أن حصل ما حصل.. ولكن كل ذلك لا يخفف من أهمية هذا الكتاب الذى يستدعى ضرورة قراءته والرد عليه من قبل مؤرخين عرب ذوى نزعة علمية.

وسواء دخل العرب إسبانيا حربًا أو سلمًا، فقد استمر وجودهم فيها، وفى بقية أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية، ثمانية قرون بالتمام والكمال، كانت قرطبة وأشبيلية وغرناطة وسرقسطة وطليطلة خلالها منارات حضارة وثقافة وعلم. وهذا ما لا ينكره المؤرخ الإسبانى، وإن كانت فجيعته بهؤلاء المسلمين الذين احتلوا بلده، فجيعة غير قابلة للشفاء! ■



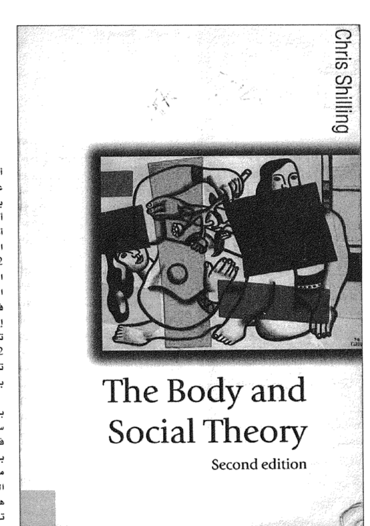
الدين والثقافة

محمود محمد شاكر

ورأس كل «ثقافة» هو «الدين» بمعناه العام، والذى هو فطرة الإنسان، أى دين كان - أو ما كان فى معنى «الدين» - وبقدر شمول هذا «الدين» لجميع ما يكبح جُموح النفس الإنسانية ويحجزها عن أن تزيغ عن الفطرة السوية العادلة، وبقدر تغلغله إلى أغوار النفس تغلغلاً يجعل صاحبها قادرًا على ضبط الأهواء الجائرة، ومريدًا لهذا الضبط، بقدر هذا الشمول وهذا التغلغل فى بنيان الإنسان، تكون قوة العواصم التى تعصم صاحبها من كل عيب قادح فى مسيرة «ما قبل المنهج» ثم فى مسيرة «المنهج» الذى ينشعب من شطره الثانى، وهو «شطر التطبيق».

وهذا الذى حدثتك عنه، ليس خاصًا بأمة، بل هو شأن كل جيل من الناس وكل أمة من الأمم، كان لها «لغة» وكان لها «ثقافة»، وكان لها بعد تمام ذلك «حضارة» مؤسسة على لغتها وثقافتها. فهذا «الأصل الأخلاقى» هو العامل الحاسم الذى يمكن لثقافة الأمة بمعناها الشامل، أن تبقى متماسكة مترابطة تزداد على الأيام تماسكًا وترابطًا، بقدر ما يكون فى هذا «الأصل الأخلاقى» من الوضوح والشمول والتغلغل والسيطرة على نفوس أهلها جميعًا، سواء فى ذلك النازلون فى ميدان «ما قبل المنهج» أو فى ميدان «المنهج» نفسه، وهم العلماء المفكرون والأدباء، والمتلقون عنهم: تلامذة كانوا، أو أشباه تلامذة من قارئ أو سامع أو كل متطلب للمعرفة. وكل اختلال يعرض فيضعف سيطرة هذا «الأصل الأخلاقى»، أو يؤدى إلى غموضه أو غيابه أو تناسيه أو قلة الاحتفال به، فهو إيذان بتفكك الثقافة وانهيار الحضارة إيذانًا صارخًا لا معدى عنه، مهما بلغت هذه الثقافة وهذه الحضارة، فى ظاهر الأمر أو فى العيان، مبلغًا سامقًا من الغلبة والانتشار، ومهما كان لها من اللألاء والتبرج والزينة ما يفتن العقول ويسبى القلوب.





«تقول الكنيسة: الجسد خطيئة
يقول العلم: الجسد آلة
تقول الإعلانات: الجسد مشروع تجارى
يقول الجسد: أنا مهرجان»



كرس شلنج

صفحات، من كتاب للمؤلف بعنوان «The Body and Social Theory»
تصدر ترجمته العربية قريبا عن دار العين للنشر - القاهرة
ترجمة: منى البحر ونجيب الحصادى

تنامى قدر الاهتمام الأكاديمى بالجسد فى السنوات الأخيرة، حيث برز علم اجتماع الجسد مجالا متميزا للدراسة، وصدرت مجلة جديدة عام ١٩٩٥ تسمى Body & Society، بل إنه اقترح وجوب أن يوظف الجسد مبدأ منظما لعلم الاجتماع. فى ضوء هذا الهدف، استحدث براين ترنر مصطلح «المجتمع الجسدى» ليصف كيف أن الجسد فى الأنظمة الاجتماعية الحديثة قد أصبح «المجال الرئيس للنشاط السياسى والاجتماعى» (Turner, 1992: 12, 162).

طرأ أيضا تصاعد مكثف على اهتمام الجمهور بالجسد. هكذا نجد أن الصحف والمجلات والتلفزيون تعج بمواد عن صورة الجسد، والجراحة التجميلية وكيفية جعل الجسد يبدو فتيا، ومثيرا، وفاتنا، فى حين أصبحت ميزانية صناعة إنقاص الوزن والحفاظ على الرشاقة تعد بملايين الدولارات. فى المملكة المتحدة وحدها، تقدر قيمة تجارة اللياقة البدنية والنوادى الصحية بمليار دولار سنويا[1]. من المهم أيضا أن نلحظ أن الاهتمام بالجسد ليس أمرا جديدا. مثال ذلك أنه فى أزمنة الحرب دأبت الحكومات على العناية بصحة مواطنيها ولياقتهم الجسدية. على ذلك، فإن وضع الجسد ضمن الثقافة الجماهيرية المعاصرة إنما يعكس فردانية غير مسبوقة للجسد. لقد أصبح يتزايد عدد الناس الأكثر اهتماما بصحة وشكل ومظهر أجسادهم بوصفها تعبيرا عن هوياتهم الفردية. وكما يلحظ بيير بورديو (Bourdieu, 1984)، فإن هذه الظاهرة تتضح بشكل خاص عند الطبقات الوسطى «الجديدة»، غير أنها تجاوزت فى السنوات الأخيرة هذه الحدود الضيقة.

الجسد فى عصر الحداثة العالية

محتم على أية محاولة جادة لفهم هذا الاهتمام المتصاعد بالجسد أن تتواءم مع الظروف التى شكلت سياق هذا التيار. فى هذا الخصوص، من المفيد أن نذكر بعض التطورات التى صاحبت ظهور الحداثة، وهى ظروف تغيرت بشكل متطرف فى الحقبة المعاصرة من الحداثة العالية.

تشير الحداثة بوجه عام إلى أنماط ونظم الحياة الاجتماعية التى ظهرت فى أوربا ما بعد الإقطاع، والتى تصاعد تأثيرها على مستوى العالم فى القرن العشرين. يمكن على وجه التقريب فهم الحداثة على أنها «العالم الصناعى»، رغم أنها تتكون من أبعاد مؤسساتية متعددة لكل منها مساراتها الخاصة (Giddens, 1990; Hall and Gieben, 1992). من ضمن آثار الحداثة الكثيرة إسهامها فى ارتفاع درجة تحكم الدول بوجه عام، والمهن الطبية بوجه خاص، فى أجساد المواطنين. أيضا، أفضت الحداثة إلى التقليل من نفوذ السلطات الدينية فى تعريف ماهية الجسد وتقنينه (Turner, 1982). الحال أن لعلاقة الحداثة بالدين تأثيرات مهمة على اهتمامنا المعاصر بالجسد.

جادل منظرو الحداثة منذ زمن مديد بأن عهد الحداثة، وإن أسهم تدريجيا فى سلب قداسة الحياة الاجتماعية، قد فشل فى الاستعاضة عن اليقينيات الدينية بيقينيات علمية من الطراز نفسه. ربما مكننا العلم من إحكام سيطرتنا على شئون الحياة (رغم أنه أخفق بشكل حاسم فى هزيمة الموت)، لكنه فشل فى طرح قيم توجه حياتنا (Weber, 1919 - 1984). عوضا عن ذلك، ثمة خوصصة متنامية لمعنى الحداثة، ما جعل عددا يتزايد من الأفراد يواجهون بمفردهم مهمة تأسيس قيمهم والحفاظ عليها بغية إهابة معنى لحياتهم اليومية.

استخدم أنتونى جيدنز تعبير «الحداثة العالية» لوصف التغييرات المتطرفة التى طرأت على التيارات الحديثة فى القرن الفائت. فى مواجهة نظريات ما بعد_ حداثية بعينها، يقترح جيدنز أنه لا الحداثة ولا الذات تشكل اهتمامات سوسيولوجية أناركية (فوضوية). تظل الاهتمامات الحداثية تشكل الحياة الاجتماعية، رغم أن مترتبات هذه الاهتمامات لم تتضح بشكل كامل إلا الآن. فى ضوء تفسخ أطر دينية صورية شكلت وعززت فى الغرب يقينيات وجودية وأنطولوجية تقبع خارج الفرد، وبحسبان حضور الجسد المكثف فى ثقافة المستهلك بوصفه حاملا لقيمة رمزية، ثمة نزوع عند الناس فى حقبة الحداثة العالية نحو منح قدر أكبر من الأهمية للجسد أداة لتشكيل الذات. لقد بدا لمن فقد إيمانه بالسلطات الدينية والسرديات السياسية الكبرى، ولم تعد بنى المعنى المتجاوزة للشخص توفر له رؤية واضحة للعالم أو الهوية الذاتية، أن الجسد يؤمن أساسا صلبا لإعادة بناء معنى للعالم الحديث جدير بالثقة. الراهن أنه يمكن اعتبار السبل المسرفة فى تأمل الذات، التى يرتبط عبرها البشر بأجسادهم، إحدى علامات الحداثة العالية الفارقة. فضلا على ذلك، فإن مناطق الجسد البرانية، أو



أصبحت ميزانية صناعة إنقاص الوزن والحفاظ على الرشاقة تعد بملايين الدولارات. في المملكة المتحدة وحدها، تقدر قيمة تجارة اللياقة البدنية والنوادي الصحية بمليار دولار سنويا



سطوحه، هي التي ترمز إلى الذات في وقت يحظى الجسد الفتي، النحيل، والمثير جنسيا بقيمة غير مسبوقة.

الجسد الملتبس

ليس في وسع هذه الملاحظات الاستهلالية سوى أن تحدد معالم عامة للسياق الذي ظهر فيه الجسد قضية اجتماعية وأكاديمية أساسية في الحقبة المعاصرة. على ذلك، فإنه من ضمن كل العوامل التي أسهمت في جعل الجسد كيانا مرئيا، يحظى تطوران يبدوان متناقضين بأهمية خاصة. لدينا الآن السبل التي تمكن بدرجة غير مسبوقة من التحكم في أجسادنا؛ غير أننا نعيش في عصر ألقى بظلال شكوك قوية على درايتنا بماهية الأجساد وكيفية التحكم فيها.

نتيجة للتطورات التي طرأت في مجالات تختلف باختلاف التناسل البيولوجي، والهندسة الوراثية، والجراحة التجميلية وعلوم الرياضة، أصبح الجسد تدريجيا ظاهرة بدائل وخيارات. لقد أسهمت هذه التطورات في تنمية قدرات يمتلكها كثيرون منا على التحكم في أجسادهم، وفي جعلهم عرضة لتحكم آخرين. هذا لا يعني أننا سوف نمتلك الموارد أو قدر الاهتمام الذي يمكّننا من إعادة بناء جذرية لأجسادنا. الحال أن السبل التي يروم الناس التحكم عبرها في أجسادهم تتخذ عادة أشكالا تقليدية، من قبيل الحمية والحفاظ على اللياقة البدنية. أيضا، من المرجح أن يكون الاهتمام بالجسد الذي يبديه مديرو الأعمال مختلفا كلية عن ذلك الذي يبديه المشردون الذين لا مأوى لديهم يقرون عنده. على ذلك، فإننا نعيش في عصر إعلامي تشيع فيه المعرفة بمثل هذه التطورات، ومن المرجح أن الحرمان الذاتي الذي يعانيه من تعوزهم الموارد التي تمكن من التحكم في أجسادهم والعناية بها سوف يتفاقم بامتلاكهم تلك المعرفة. ببساطة، لم يعد الجسد يخضع للقيود التي شكلت في عهد عبر خصائصه. غير أن هذا الوضع لم يقتصر على تمكين النساء من التحكم في أجسادهن، بل أثار في نفوس الأفراد درجة عالية من التأمل في ماهية الجسد، قدر ما أثار شكوكا حول كيفية التحكم فيه. بقدر ما يسهل العلم درجة التدخل في الجسد، بقدر ما يزعزع ثقتنا فيما نعرف عنه، ويتجاوز قدرتنا على إصدار أحكام أخلاقية حول المدى الذي يتوجب عنده السماح للعلم بإعادة تشكيله.

الحال أننا لا نمعن في التبسيط حين نجادل بأنه بزيادة درجة تحكمنا وقدرتنا على تغيير حدود الجسد، ترتفع حدة شكوكنا حول ماهية الجسد، وما هو «طبيعي» بخصوصه. مثال ذلك، مكّن التخصيب الصناعي وتخصيب الصماء من فك الارتباط بين العلاقات الجسدية التي حددت تقليديا خبرة الجنسية الغيرية. الذعر الأخلاقي الذي أثارته «الولادة العذرية» في بريطانيا إنما يوضح التهديد الذي تشكله هذه التطورات لما يعد عند الناس طبيعيا نسبة للجسد. وكما تقر إحدى صحف التابلويد البريطانية الشهيرة، Daily Mail، «في مشروع يصيب صميم الحياة الأسرية، يصبح إنجاب الأطفال بمقدور نساء لم يسبق لهن أن مارسن الجنس» (Golden and Hope, 1991).

التطورات التي شهدتها مجالات من قبيل جراحة نقل الأعضاء والواقع الافتراضي إنما تضاعف من حدة هذه الشكوك التي تساورنا حول الجسد، كونها تهدد بتقويض الحدود التي وجدت تقليديا بين الأجساد وبين التقنية والجسد (Bell and Kennedy, 2000). إن لهذا الأمر مترتبات واقعية. فكما يلحظ ترنر، في مجتمع المستقبل، حيث تشيع وتتطور عمليات زرع الأعضاء ونقلها، تصبح الأحاجي الافتراضية التي كانت تشغل الفلاسفة التقليديين حول الهويات والأجزاء مسائل تحظى بأهمية قانونية وسياسية عظيمة. هل يمكن أن أكون مسئولا عن أفعال جسد لا يعد بشكل أساسي جسدي؟» (Turner, 1992a: 37). أيضا، تعد تلك التطورات بزيادة حدة مأزق تكتنف ملكية الأجساد سبقت إثارتها فيما يتعلق بقضايا من قبيل الإجهاض والأم البديلة (Diprose,1994).

المشاريع الجسدية

في زمن الشك هذا، تتخذ الدراية بماهية الأجساد تدريجيا صيغة فروض: «مزاعم قد تكون صحيحة، لكنها قابلة دائما من حيث المبدأ للتعديل، وقد نتخلى عنها كلية في وقت ما» (Giddens, 1991:3). يؤثر هذا الموقف في مفهوم الفرد الحداثي للهوية الذاتية. مفهومه للذات كما تدرك بطريقة تأملية عبر سيرة جسده الذاتية. في الغرب الغني، يعتبر الجسد تدريجيا كيانا في حال صيرورة؛ مشروعا يتوجب العمل عليه وإنجازه بوصفه جزءا من هوية الفرد الذاتية. بمقدورنا إرجاع بداية محاولات الفرد تشكيل جسده وقولبته إلى المسيحية المبكرة، بل حتى العهود القديمة (Brown, 1988; Foucault,1988). بيد أن المشاريع الجسدية تختلف عما كان يحدث في المجتمعات التقليدية من زخرفة للجسد البشري والنقش عليه وتغييره، كونها تشتمل على تصور انعكاسي ينأى عن النماذج



في مشروع يصيب صميم الحياة الأسرية، يصبح إنجاب الأطفال بمقدور نساء لم يسبق لهن أن مارسن الجنس



التقليدية لأجساد مقبولة اجتماعيا تم تشكيلها عبر طقوس احتفالية جماعية (Rudofsky,1986 [1971]). تظل المشاريع الجسدية تختلف وفق جوانب اجتماعية بعينها، خصوصا في حالة الجندر (النوع من حيث الذكورة والأنوثة): غير أن سبل تطوير النساء والرجال أجسادهم تعددت في السنين الأخيرة.

عند كثيرين من الحداثيين، تستلزم ملاحظة أنه أصبح مشروعا قبول أن مظهر الجسد، وحجمه وشكله، وحتى محتواه، قابلة لإعادة البناء وفق تصميمات صاحبه. معاملة الجسد على أنه مشروع لا يستلزم ضرورة انشغالا مستديما بتغييره كلية، رغم أنه بإمكانها أن تقوم بذلك. على ذلك، فإنها تستلزم أن يكون الفرد واعيا ومهتما بشكل فعال بترويض جسده وبمظهره وبالحفاظ عليه. يتضمن هذا اعترافا عمليا بأهمية الجسد موردا شخصيا ورمزا اجتماعيا يبعث برسائل عن هوية الشخص الذاتية. في هذا السياق، يصبح الجسد كينونة طيعة يمكن تشكيلها وشحذها عبر ما يبدي صاحبه من حرص وما يبذل من جهد.

ربما نعثر على أفضل أمثلة على الجسد بوصفه مشروعا في القدر غير المسبوق من الاهتمام الذي حظي به التشكيل الشخصي لأجساد معافاة (Schlling, 2002a). في وقت تزداد حدة تعرض صحتنا لمخاطره عولمية، تحضنا جهات على الاضطلاع بمسئولية فردية تجاه أجسادنا عبر اتباع حميات رعاية ـ ذاتية صارمة. هكذا تعرض أمراض القلب والسرطان وغيرها بشكل متزايد على أنها أشياء يمكن للفرد تجنبها بتناول الأطعمة الصحيحة، الإقلاع عن التدخين وممارسة قدر كاف من الرياضة. أيضا، تتطلب حمية الرعاية ـ الذاتية من الفرد تبني فكرة أن الجسد مشروع يمكن مراقبة بواطنه وظواهره، كما يمكن تغذيته والحفاظ عليه، بحيث يؤدي وظائفه كاملة. فيما تكرس مثل هذه الحميات مفهوما للجسد يرى فيه جزيرة أمان في نظام عولمي تتهدده مخاطر جمة لا مناص منها (Beck, 1992).

لا تقتصر وظيفة حميات «التخسيس» على حمايتنا من الأمراض، بل تروم أيضا جعلنا نسعد بكيف تبدو أجسادنا لنا وللآخرين. تدريجيا أصبحت الصحة أكثر ارتباطا بالمظهر وما اصطلح ارفنج جوفمان (Goffman, 1996) على تسميته «عرض الذات». يسهم عدد لا حصر له من الكتيبات المساعدة للذات، ارشادات التجميل، ملاحق الحميات، وخطط التمرينات في تلبية تلك الاحتياجات، بينما تتنافس السلع الاستهلاكية على محاولة جعل أجساد الناس تبدو جديرة بالثقة وقادرة على إثارة متع حسية، وهي توفر برامج لتحسين البشرة وتقوية العضلات بحيث تبعث برسائل عن الصحة عبر جعل المرء يبدو معافى وفتيا (Banner,1983). الراهن أن تأثير هذا المشروع الجسدي بالذات ألزم حتى الذين يسرفون في التدخين وفي شرب الخمر وفي تعاطي مخدرات أخرى بالتفكر في آثار سلوكهم هذا على صحتهم ومظهر أجسادهم. في حقبة شيوع التوكيد السياسي على «مساعدة النفس» و«المسئولية الشخصية»، والتوكيد الاجتماعي على «الجسد الفاتن»، يغدو من تستهويه تلك العادات مثالا على الانحراف الأخلاقي الجديد. غير أن التأثير السائد لما ينعته روبرت كراوفورد (Crawford,1987) بـ «الوعي الصحي الجديد» ليس السبيل الوحيد الذي أصبح الجسد عبره مشروعا يتم تشكيله وفق هوية المرء الذاتية.

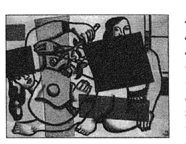
مكنت الجراحة التجميلية عددا صغيرا، لكنه يتعاظم بسرعة، من الأفراد من إعادة تشكيل أكثر تطرفا ومباشرة لأجسادهم على نحو يتسق مع مفهومهم للفتوة،

والأنوثة والرجولة. شد الوجه، شفط الدهون وثنايا البطن، عمليات تجميل الأنف والذقن، مجرد بنود فى قائمة تطول للإجراءات والعمليات المتاحة للأغنياء الراغبين فى إعادة تشكيل أجسادهم. منذ ستينيات القرن الفائت، أجريت فى الولايات المتحدة أكثر من مليون عملية زرع أثداء لنساء رغبن فى أجساد أكثر «أنوثة»، وثمة عدد متزايد من الرجال تأسى بهن بحثا عن مظهر أكثر فتوة. عمليات تضخيم القضيب متوفرة أيضا للراغبين فى أجساد «رجولية أكثر اكتمالا» (Grant,1992).

تثير الجراحة التجميلية بشكل حاد وعلى نحو خاص مسألة ماهية الجسد، عبر تمكين المرء من إنقاص شحمه ولحمه وعظمه. فى هذا الخصوص، تنشر على صفحات الصحف والمجلات مقالات عديدة تروى قصصا عن أناس أصبحوا عبر إجراء عمليات متعددة ممسوسين بحمى تغيير مظهر أجسادهم وحدودها على نحو يتسق مع صورة مثالية للذات. ربما نعثر على أفضل الأمثلة التى حظيت بتغطية إعلامية فى ملامح مغنى «البوب» مايكل جاكسون التى طرأت عليها تغييرات حاسمة.

أما بالنسبة لغير الراغبين أو غير القادرين على مواجهة مخاطر الجراحة، فثمة نشاط تزداد حدة رواجه: كمال الأجسام؛ وهو نشاط كان فيما مضى على تخوم صناعة التمارين الرياضية المنحرفة جنسيا. كمال الأجسام مثال توضيحى جيد على الجسد بوصفه مشروعا، لأن نوعية وحتى مجرد حجم العضلات الناجمين عن تلك العملية تتحديان مفاهيم نقبلها بخصوص ما هو طبيعى نسبة لأجساد الذكور والإناث. فى وقت تحل الآلات بشكل مطرد بديلا للعمل اليدوى الذى كان يقوم به الرجال فى المصانع، وتواصل المرأة تحديها دور الزوجة والأم المحدود الذى يعده المجتمع لها، يبدو أن بناء وعرض أجساد ضخمة «بشكل غير طبيعى» أو محددة بدرجة عالية يمكن الناس من الجهر بأحكام شخصية قوية تتعلق بماهياتهم (Fussell,1991). وكما علقت امرأة فى دراسة روزن لنساء يهتممن بكمال أجسامهن، «عندما أنظر فى المرآة أرى شخصا يجد نفسه؛ شخصا قال مرة وإلى الأبد إن الدور الذى ألزمنى المجتمع بالقيام به لم يعد مهما. بمقدورى أن أقوم بما أرغب فى القيام به، وإننى لأشعر بالاعتزاز لقيامى به» (Rosen, 1983:72).

مشاريع الصحة والعمليات الجراحية وكمال الأجسام مجرد ثلاثة أمثلة على كيفية إيلاء الفرد الحداثى أهمية متزايدة لجسده. على ذلك، فإنها تبين الفرص والقيود المصاحبة لتوثيق عرى العلاقة بين الجسد والهوية الذاتية. يوفر مشروع



استثمار الجسد للمرء وسيلة للتعبير عن النفس والشعور بالغبطة وزيادة درجة التحكم فى جسده. إذا شعر المرء أنه عاجز عن إحداث تأثير فى مجتمع تزداد درجة تركيبه، فإنه يستطيع على الأقل أن يحدث تأثيرا فى حجم جسده وشكله ومظهره. قد يتم التحفظ بخصوص هذه الفرصة فى غياب معيار حاسم لتحديد الكيفية التى يتوجب وفقها معاملة الجسد، أو حتى لتحديد ماهيته، غير أنه لا يبرر التغاضى عن مناقب قد ينتفع بها الناس بسبب ظهور الجسد بوصفه مشروعا فى المجتمع الحديث.

أيضا فإن لاستثمار الجسد حدوده. الحال أن الجهود التى يبذلها المرء على جسده مآلها أن تخفق، فالأجساد تشيخ وتتفسخ، وواقعية الموت المحقق تبدو مزعجة بشكل خاص للفرد الحداثى الذى تشغله هوية ذاتية مؤسسة على الجسد. وفى نهاية المطاف، أى شىء أكثر إيحاء يشى بحدود انشغالنا بجسد فتى لائق صحيا، مثالى الرجولة أو الأنوثة، من حقيقة مرة مفادها خصر متخثن، ولحم يترهل، وموت محقق؟

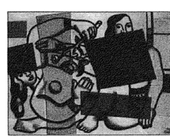
ثمة قيود تفرض على الجسد ليس فقط بمعنى أنه مقضى عليه أن يقضى نحبه، بل أيضا بسبب مقاومته المستمرة لأن يتشكل وفق مشيئتنا. سيوسى اورباخ (Orbach,1988) وكم شرنن (Chernin,1983) كاتبتان من ضمن عدة كتّاب أشاروا إلى الصعوبات التى تواجهنا فى تغيير شكل الجسد عبر الحميات. أيضا توضح امالى مارتن (Martin, 1989 [1987]) كيف أن النساء غالبا ما يكتشفن أن أجسادهن قد غدت بطرق متعددة خارج نطاق السيطرة، فيما يستبان أن محاولات تغيير حجم وشكل الجسد محفوفة بالمخاطر (مثال ذلك، يشهد حشد متزايد من الأدلة على المخاطر المرتبطة بالعمليات الجراحية والحميات المتكررة). ثمة مشكلة أخرى تتعلق بانشغالنا الانعكاسى بالجسد تتعين فى آثار هذا الانشغال المحتملة على أبنائنا. يقلق المرء على شكل جسده ووزنه حين يكون فى مقتبل العمر. وهناك أبحاث تفيد بأن عددا كبيرا من الفتيات والفتيان لم تتجاوز أعمارهم التاسعة غير راضين عن أجسادهم (Hall,1992). لا غرو إذن أن انشغالنا المعاصر بالجسد قد ارتبط بارتفاع مقلق فى حدة الاضطرابات الهضمية (Gorden, 2001; Grogan, 1999).

بهذا المعنى يضع الجسد القيود بقدر ما يوفر التسهيلات إبان فترة حياته وليس فقط لأنه يموت. على ذلك، تسرى إشارة زجمنت برومان إلى علاقة الجسد بالموت بوجه عام على انشغالنا بالجسد بوصفه مشروعا. وفق ما يجادل برومان، فى حالة الموت وحميات الرعاية ـ الذاتية، الانشغال الحداثى بالجسد «محاولة لتخطى حدود الجسد النهائية عبر خلاص متعاقب من قيوده الخاصة التى تتم مواجهاتها فى الوقت الراهن» (Bauman, 1992a:28). إن هذا التركيز البراجماتى محاولة لتأجيل مسائل وجودية تشغلنا تتعلق بقيد الجسد النهائى (الموت) و السبب الذى يلزم بجعل الجسد مهما للهوية الذاتية، كما تتعلق بماهية الجسد.

ثمة قيد آخر يرتبط بظهور الجسد بوصفه مشروعا يتعين فى إمكان تسخير الصور الفردية للجسد المرغوب فيه فى إدامة إجحاف اجتماعى راهن. فى هذا الخصوص، تبدو الطريقة التى أصبح بها الجسد مشروعا عند بعض النساء أقرب إلى أن تكون انعكاسا لتصميمات وتخيلات ذكورية منها لأن تكون تعبيرا عن الفردانية. مثال ذلك، قد نجادل بأن التمثيل وعرض الأزياء يشجع النساء على تغيير أجسادهن وفق تصور الذكور للجمال. وكما يلحظ روبرت جربر (Robert Gerber, 1992: 46)، «لقد أصبحت المرأة فاحشة الثراء التى أجريت لها عمليات جراحية تجميلية نقطة مرجعية فى الموضة».

علم الاجتماع والجسد

لهذه الأسباب، ولأسباب أخرى، أصبح الجسد مسألة اجتماعية مهمة. غير أن الجسد لم يصبح مركزيا فى الجدل النظرى العام فى أوربا وأستراليا إلا مؤخرا، بينما توجد درجة عالية من التردد فى تناول هذا الموضوع فى شمال أمريكا. تنزع التفسيرات المعاصرة «لوصول» الجسد المتأخر وغير المكتمل إلى عزوه إلى المقاربة اللاجسدية التى تبناها علم الاجتماع الكلاسيكى تقليديا فى هذا المجال. يتبنى بريان ترنر ضمن آخرين هذا الموقف فى



كتابه Regulating Bodies (Turner, 1992a). إن تأثر علم الاجتماع الشديد بالفكر الديكارتى حدا به إلى تبنى موروث قديم فى الفلسفة عبر قبول مثنوية العقل/الجسد والتركيز على العقل بوصفه مكمن تفرد الإنسان كائنا اجتماعيا.

يحوز هذا التفسير قدرا لا يستهان به من القيمة، وهو يصف بدقة كيف نزع قطاع كبير من علم الاجتماع إلى مقاربة علاقة الجسد بالعقل. غير أنه لا يفى حق مقاربات بعينها تبناها علم الاجتماع فى تناوله الجسدية موضوعا مستقلا. ثمة قصور مشابه تعانى منه الرؤية التى تقر أنه بالمقدور «استعادة» الجسد بسهولة عبر إعادة النظر فى الكلاسيكيات (Williams and Bendelow,1998). على أقل تقدير، ثمة حاجة إلى بذل جهود شاقة فى التفصيل والتطوير قبل أن يتسنى لنا صياغة نظريات اجتماعية كلاسيكية شمولية فى الجسد. فى مقابل هاتين المقاربتين، أقترح أن تحرى الدقة يلزمنا بوصف علم الاجتماع الكلاسيكى على أنه يعرض مقاربة مزدوجة للجسد. عوضا عن أن يكون قد أغفل نهائيا، كان الجسد الحاضر الغائب فى علم الاجتماع. لقد كان الجسد غائبا عن علم الاجتماع الكلاسيكى بمعنى أن هذا الفرع المعرفى نادرا ما ركز بطريقة ثابتة على الجسد بوصفه مجالا مستقلا للبحث. مثال ذلك، نادرا ما تأخذ النظرية السوسيولوجية فى حسبانها حقيقة أن لدينا أجسادا من لحم ودم تمكننا من تذوق وشم ولمس وتبادل سوائل جسدية (Connell and Dowsett,1992). على ذلك، فإن انشغال علم الاجتماع الكلاسيكى ببنى ووظائف المجتمعات وطبيعة الفعل البشرى حتمت عليه التعامل مع جوانب مهمة من الجسدية البشرية.

بشكل متكرر، ظل اهتمام علم الاجتماع الكلاسيكى بالجسد ضمنيا بدلا من أن يكون صريحا. فضلا عن ذلك، نزع إلى التركيز على جوانب منتقاة من الجسدية البشرية. مثال ذلك، ركز علم الاجتماع على قضايا من قبيل اللغة والوعى دون ملاحظة أن هاتين القدرتين نفسيهما قدرات جسدية. وكما جادل نوربرت الياس (Elias,1991) فإن قدراتنا المتعلقة باللغة والوعى متضمنة فى أجسادنا وتشكل جزءا منها، كما أنها مقيدة بها. ثمة أمر آخر يتعلق بإغفال علم الاجتماع الكلاسيكى للجسد بوصفه جزءا مكملا للفاعل البشرى. أجسادنا هى التى تمكننا من الفعل والتدخل فى تيار الحياة اليومية وتغييره. الحال أنه لا سبيل للحصول على نظرية مناسبة فى الفعل البشرى لا تأخذ الجسد فى اعتبارها. بمعنى غاية فى الأهمية، الشخص الفاعل جسد فاعل.

❝ أصبح مشروعا قبول أن مظهر الجسد، وحجمه وشكله، وحتى محتواه، قابلة لإعادة البناء وفق تصميمات صاحبه ❞



على ذلك، فى حين لم يتعامل علم الاجتماع الكلاسيكى بطريقة ملائمة مع كل مترتبات الجسدية البشرية، فإن هذا لا يبرر الحكم بأن علم الاجتماع تبنى مقاربة لاجسدية كلية فى تناول موضوعه. مثال ذلك، عنى كارل ماركس (Marx,1954 [1887]) بمسألة استيعاب الجسد فى التقنية الرأسمالية. أيضا كتب جورج سيمل (Simmel,1990 [1907]; 1950) عن الميول الجسدية التى تدفع الناس نحو بعضهم البعض، والعواطف الاجتماعية التى أسهمت فى الحفاظ على العلاقات الاجتماعية، كما تقصى آثار اقتصاد المال الضارة على تلك العواطف. أعمال ماكس فيبر (Weber, 1985 [1904-05]; 1948 [1915]) تبدى اهتماما بعقلنة الجسد، و«الملاجئ» التى يوفرها الفن والحب والشهوة الجنسية، فيما يعتبر إميل دوركايم (Durkheim,1995 [1912]) الجسد مصدر وموضع تلك الظواهر الدينية التى أسهمت فى تماسك الأفراد فى كليات أخلاقيات. الواقع أن حضور الجسد الضمنى فى علم الاجتماع إنما توضحه حقيقة أن كثيرا من الأعمال الراهنة فى الجسد استطاعت أن تركن بشكل منتج إلى تركة علم الاجتماع الكلاسيكى. أعمال بيير بورديو فى الجسد، على سبيل المثال، إنما تطور انشغالا ماركسيا بالطبقة الاجتماعية والتكاثر الاجتماعى واهتمام دوركايمى بالوظائف الاجتماعية والمعرفية التى تقوم بها «التمثلات الجماعية» و«التصنيفات البدائية»، وتركيز فيبرى على أساليب الحياة الخاصة ومفاهيم الشرف والعار التى تسهم فى تحديد الرتب الاجتماعية (Brubaker, 1985; Shilling,1992).

يستبان أن دفع تهمة تبنى مقاربة لاجسدية كلية عن علم الاجتماع الكلاسيكى لا تعنى بحال التصديق على طريقته فى تناول موضوعة الجسد. فى هذا الخصوص، من المهم أن نذكر بعض منظِّرى علم الاجتماع الأحدث عهدا الذين حاولوا التغلب على المقاربة المزدوجة التى تبناها علم الاجتماع تقليديا. مثال ذلك أن ارفنج جوفمان وميشيل فوكو يضعان الجسد على التوالى فى قطب رحى تحليلات «نظام التفاعل» والأنساق البينية.

مارس هذان الكاتبان تأثيرا غاية فى القوة على التحليلات المعاصرة للجسد بوصفه ظاهرة مشكَّلة اجتماعيا. ولكن، عوضا عن التغلب بشكل كامل على أوجه قصور علم الاجتماع الكلاسيكى، يمكن اعتبار أن كثيرا من أعمالهما إعادة انتاج فى صورة مغايرة للمقاربة المزدوجة التى نزع علم الاجتماع إلى تبنيها فى موضوعة الجسد. إن

أبعـــاد الجســـد!

التنظير الذى يحمل محمل الجد حشدا هائلا من العوارض إنما يربك الفهم، عوضا عن التمكين منه. ذلك أن الإمعان فى التفاصيل يورث الشواش، ويوجب من ثم الحاجة إلى هدرها. ولأن الفهم لا يكون إلا برد الأكثر إلى الأقل كثرة، ولأنه غاية كل تنظير ومعيار سلامته، فإن مآل كل منظِّر يتقن عمله أن يتغاضى عن عرض بعض «الحقائق». وفق هذا، ثمة خطران يتهددان كل عملية تنظير: الهذر ـ الإبقاء على ما حقه الهدر ـ والاختزال ـ هدر ما حقه البقاء.

ما كان لقدرة الإنسان على فهم العالم من حوله أن تتنامى لو أنه أهدر أكثر مما يتوجب هدره من تفاصيل، وما كان له أن يمضى قدما فى فهم العالم لو أنه أبقى عليها. فما تاريخ الفكر الإنسانى إلا محاولة مستمرة لرصد الثابت فى المتحول، والاحتفاء بالجوهرى على حساب العارض.

يمكن معايرة النظرية بتحديد «التصنيفات البواقى» التى تخفق فى تفسيرها. إذا عجزت مقاربة سوسيولوجية فى الجسد عن تفسير الأهمية التاريخية التى يحظى بها فى الأنظمة الاجتماعية، أو فشلت فى تبيان لماذا أصبح الجسد يشغل إلى هذا الحد الكثير من أشياع الحداثة، فإن هذا إنما يثبت عجزها ويشى بهدرها من التفاصيل ما حقه الإبقاء.

اقترن توحيد تاريخ الأرض، هذا الحلم الإنسانى الذى أراد الله لأمر أن يتحقق، بعمليات اختزالية، فحتى قصص العشق الكبرى تنتهى بتقلصها إلى ذكريات هزيلة. طابع المجتمع الحديث يعزز هذه اللعنة: وهكذا تتقلص حياة الإنسان إلى وظيفته الاجتماعية، وتاريخ الشعوب إلى عدد من الأحداث، تتقلص بدورها إلى تفسير متحزب، فيما تختزل الحياة الاجتماعية بأسرها إلى صراع سياسى، وهذا الأخير إلى مواجهة بين قطبين (كونديرا).

تمارس الأنظمة الشمولية اختزالا مفهوميا وجسديا للرعية فى شخصية المستبد، بحيث يصبح الحاكم رمزا أوحد للوطن، وينكل بصاحب كل رأى مناوئ؛ فيما تختزل النزعات العرقية الجنس البشرى إلى عرق دون سواه، وتنتهك الشوفينية الذكورية حقوق الإناث، وتكرس النزعات الدوجماطيقية فهما بعينه للعالم تنكر كل ما عداه.

هكذا يصادر بعض المفكرين على أيديولوجيات ومفاهيم تكرس ضروبا بعينها فى فهم الوعى وفى تحديد محتواه، وتوجه بعض التيارات السياسية تهم عوز الوعى أو زيفه ضد من تعادى توجهاتهم الأيديولوجية. بالمقدور دوما تفريغ الوعى من الدور الفاعل الذى يقوم به فى التمكين من فهم العالم واستيعاب القضايا التى تشغل الأفراد، عبر اختزاله فى سردية كبرى، وقد يبلغ الاختزال درجة المماهاة بين الوعى الحقيقى واتخاذ مواقف دون سواها. لكن هذه ليست سوى أمثلة أخرى على خطر فعل الاختزال.

ثمة مستويات متعددة تتم عبرها عمليات الرد، تتدرج فى رتبها من حيث قدر تجريدها، لكنها تتفق فى إجماعها على تحديد القواسم المشتركة فيما يلحظ من ظواهر ومحاولة توظيف تلك القواسم فى إنجاز عملية الفهم. فى أكثر مستويات الرد تجريدا، نعثر على نماذج تقليدية لعملية رد الواقع بأسره إلى حد أدنى من الجواهر. من أشهر هذه النماذج النزعة المادية التى ترجع كل ما ليس بمادى إلى أصول مادية، والمثالية، التى ترجع كل مادى إلى أصول غير مادية، والثنائية، التى تقر وجود العقول بوصفها جواهر ذهنية تشكل موضوعات خارج المجال المادى وغير قابلة للرد إليه.

على مستوى أقل تجريدا، ثمة دعوة إلى وحدة العلوم تقر أن مآل كل العلوم أن ترد، دون أن تختزل، إلى أصول فيزيائية صرفة. هناك أيضا مستوى آخر أكثر عينية، لكنه يظل يحتفظ بقدر كاف من التجريد، يتعين فى رد نمط تفسيرى لكينونة بعينها إلى نمط تفسيرى آخر.

هذا الكتاب دراسة نقدية متميزة لمحاولات تندرج فى هذا الصنف الأخير، محاولات لرد البيولوجى فى الظاهرة الجسدية إلى الاجتماعى، ورد الاجتماعى فيها إلى البيولوجى، وهو يوجه تهمة الاختزال إلى تلك المحاولات، مؤكدا وجود علاقة تآثر بين المجالين، ومحاولا تبيان كيف أن الجسد ظاهرة بيولوجية واجتماعية فى آن. المقاربات الطبائعية لا ترى فى الجسد إلا أبعاده البيولوجية، وهى تبدى استعدادا مستمرا لتفسير كل ظاهرة اجتماعية بالركون إلى تلك الأبعاد. أما المقاربات السوسيولوجية فتختزل البيولوجى إلى الاجتماعى، حيث يتنزل الأخير عندها مرتبة محرك الأول.

وكما يقر مؤلف الكتاب، إذا كان جماح شطط المقاربات الطبائعية للجسد التى تختزل الاجتماعى إلى البيولوجى يظل فى حاجة إلى كبح، فإن النزعات التى تستبان فى كثير من المقاربات الثقافية، والتقنية، والسوسيولوجية للجسد، وتروم اختزال البيولوجى إلى السوسيولوجى، ليست أقل حاجة إليه.

تجمع المقاربات التى ينكرها المؤلف على أن الجسد ليس مهما إلا بقدر ما يقضى عليه بأن يكون كذلك من قبل عوامل خارجة عنه، أكانت بيولوجية أم سوسيولوجية. ليس لدى أشياع مثل هذه المقاربات إحساس بالجسد جزءا مكونا للفاعلية البشرية، وثمة نزوع عندهم نحو تبنى رؤى اختزالية فى الجسد، تخفق فى فهم أهمية الجسدية البشرية لتشكيل الأنظمة الاجتماعية. بيد أن خطل رؤية الجسد ظاهرة بيولوجية قبل ـ اجتماعية لا يقل ضررا عن خطل اعتباره كينونة اجتماعية بعد ـ بيولوجية.

هذا الكتاب محاولة لاستعادة الجسد كيانا فاعلا فى المجتمع، تحجم عن التغاضى عن العوامل الخارجية التى تسهم فى تشكيله. إنه يؤمّن نظرية اجتماعية يتعين واحد من أهم استحقاقاتها الأساسية فى دراية مكينة بالفلسفة والتاريخ وعلم النفس والأنثروبولوجيا. المقاربة التى يطرحها إنما تعنى بالجسد المهان، الجسد المدنس والمقموع، الجسد الذى يباع ويشترى رقيقا أبيض وأسود، الذى لا يعترف بكرامته وقدسيته إلا حين تلفظ روحه أنفاسها.

علم الاجتماع التطبيقى، الذى يركن إليها البعض تنكبا لأعباء التنظير، وإن ظل مهما، إنما يتأسس على رؤى النظرية الاجتماعية. والتغير الحقيقى الذى تستهدفه كل تنمية اجتماعية إنما يرتهن بمثل هذه الرؤى. ولأن ثقافتنا العربية المعاصرة لا تكاد تولى أى اهتمام كاف بالتنظير السوسيولوجى، ولأن رؤيتها فى الجسد تظل غالبا أسيرة للكثير من التابوهات، فإننا نعتبر ترجمة هذا الكتاب إلى العربية أقرب إلى الواجب المعاقب على تركه منها إلى النافلة المثاب على فعلها.

لن نفصل فى محتويات هذا الكتاب، فمؤلفه يحمل عنا هذا العبء فى فصله الأول. بيد أن هناك قصيدة لادواردو جوليانو تكاد تلخص التوجه العام الذى يكرسه هذا الكتاب، وتبين تعددية أبعاد الظاهرة الجسدية:

تقول الكنيسة: الجسد .خطيئة

يقول العلم: الجسد آلة

تقول الإعلانات: الجسد مشروع تجارى

يقول الجسد: أنا مهرجان.

المترجمـــان

نظريات الرؤى البنائية فى الجسد إنما تنحو شطر إخبارنا بالكثير عن كيف غزا المجتمع وشكل وصنف الجسد وأعطاه أهمية، لكنها تخبرنا أقل من ذلك بكثير عن ماهية الجسد وعن سر اقتداره على الاستحواذ على مثل هذه الأهمية الاجتماعية. يعتبر الجسد فضاء نظريا، لكنه غالبا ما يتم التغاضى عنه بوصفه موضوعا واقعيا للتحليل. ربما يكون من الأدق أن نصف رؤى البنائية الاجتماعية الأكثر تطرفا فى الجسد بأنها أعراض للانشغال الحداثى بالجسد، عوضا عن أن تكون تحليلات له.

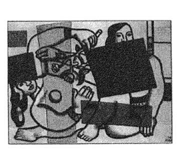
يتوجب أن يتضح من هذا أننى أعتقد أنه لم يتسن حتى الآن للمقاربات البنائية الاجتماعية طرح رؤى مرضية بشكل كامل فى الجسد. لا تثريب على إقرار أن الجسد مشكل اجتماعيا، لكن هذا لا يخبرنا الكثير عن خصائص الجسد العينية. ما الذى يتم بناؤه على وجه الضبط؟ عوضا عن مواجهة هذا السؤال، وتمكيننا من فهم كيف تشكل القوى الاجتماعية ذواتنا المادية، تنزع البنائية إلى إخلاء الفاعل الجسدى من النظرية الاجتماعية. إننى أتفق فى هذا الخصوص مع ترنر حين يجادل بأننا فى حاجة إلى نظرية تأسيسانية فى الجسد (Turner, 1992a). الشروع فى إنجاز تحليل مناسب للجسد إنما يتطلب اعتباره ظاهرة مادية، فيزيقية وبيولوجية غير قابلة لأن تختزل إلى عمليات أو تصنيفات اجتماعية مباشرة. فضلا على ذلك، حواسنا، ومعارفنا، وقدراتنا على الفعل إنما تتعلق بشكل تكاملى بحقيقة كوننا كائنات جسدية. قد تؤثر العلاقات الاجتماعية بشكل قوى فى تطور أجسادنا فى كل جانب تقريبا: من حيث الحجم والشكل ومن حيث الكيفية التى نسمع بها ونلمس ونشم ونفكر (Duroche, 1990; Elias,1991)، لكنه لا سبيل للاستغناء ببساطة عن الجسد عبر هذه العلاقات. الأجساد البشرية تتغير نتيجة للعيش فى مجتمع، لكنها تظل كيانات مادية، فيزيقية، وبيولوجية.

علم الاجتماع الجسدى

بعد أن تطرقت إلى بعض المحاور الرئيسة التى تعنى بها فى هذه الدراسة، سوف أحاول أن أعرض مخططا للأهداف الخمسة الأساسية التى يتغياها هذا الكتاب، وبطرح وصفا موجزا لكل فصل من فصوله.

أولا، يطرح تحليل متميز لوضع وطريقة تناول موضوعة الجسد فى علم الاجتماع يجادل بأن الجسد كان تقليديا الحاضر الغائب فى هذا الفرع المعرفى.

ثانيا، يحاول الكتاب أيضا أن يطرح رؤية شاملة وواضحة ونقدية لبعض



المقاربات والنظريات الرئيسة المتعلقة بعلم اجتماع الجسد. محاولا تنظيم وتقصى بعض الدراسات المتنوعة إلى حد كبير التى نشرت فى السنوات الأخيرة والمتعلقة بعلم اجتماع الجسد.

فى معرض تقويم تلك المقاربات، أعنى خصوصا بفحص ما تمكننا وما تخفق فى تمكيننا من قوله عن الجسد فى المجتمع. ما الذى تكشف النقاب عنه بخصوص الجسد وما الذى تسكت عنه؟ وعلى حد تعبير تلكوت بيرسون (Pearson, 1968 [1937]:17)، ما «التصنيفات البواقى»: الحقائق أو الملاحظات التى لا يمكن تفسيرها أو أخذها فى الحسبان عبر «التصنيفات المحددة إيجابيا» فى مقاربة الجسد؟ مثال ذلك، هل تسمح لنا مقاربة بعينها فى الجسد أن نأخذ فى الاعتبار أهمية الجسد نسبة إلى الفاعل؟ هل تستطيع أن تفسر أهمية الجسد التاريخية المتغيرة فى الأنظمة الاجتماعية؟ هل تعين على تفسير لماذا أصبح الجسد يشغل إلى هذا الحد الكثير من الحداثيين؟ هل تمكننا مقاربة بعينها للجسد من معرفة لماذا تظل النظم الاجتماعية فى الغرب كأنها منشغلة بالحفاظ على رؤية فى جسد المرأة تختلف وتعد دونية نسبة إلى جسد الرجل؟

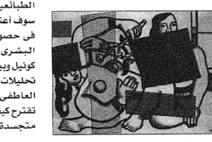
قد ينتقد نهجى هذا من قبل أولئك الذين يفضلون قائمة أنيقة من المعايير المعدة سلفا تقوم النظريات وفقها. غير أن منقبة هذا النهج إنما تتعين فى تسهيل عرض رؤية شاملة وواسعة لمواطن قوة وضعف مقاربات بعينها للجسد فى وقت يظل علم اجتماع الجسد غضا نسبيا.

يتضمن الهدف الثالث من هذا الكتاب محاولة تجاوز وصف وتحليل المقاربات الراهنة للجسد فى علم الاجتماع، عبر تطوير مخطط ما أعتبره نهجا أكثر ملاءمة. يركن هذا النهج إلى المكاسب التى لا يستهان بها والتى تحققت عبر تحليل الجسد فى علم الاجتماع والأنثروبولجيا الفلسفية، وقد قاربت هذا النهج عبر انتقاء ما أعتبره الأكثر فائدة فى المقاربات التى يتم عرض مخططاتها فى الفصول الأولى من هذا الكتاب. سوف أوظف وصفى وتقويمى للأعمال الراهنة فى علم اجتماع الجسد فى تطوير رؤاها شطر توجه جديد، ورغم أننى لا أنوى تطوير نظرية كاملة فى

الجسد فى هذا الكتاب، من المفيد أن أقول شيئا مختصرا عن النهج الذى سوف أعمل على ترويجه.

سوف أجادل بأن أفضل طريقة لمفهمة الجسد هى أن نعتبره ظاهرة بيولوجية واجتماعية غير مكتملة تتغير، ضمن قيود بعينها، نتيجة ولوجها ومشاركتها فى المجتمع. إن هذه النوعية البيولوجية والاجتماعية هى التى تجعل الجسد فى آن ظاهرة واضحة وغامضة إلى هذا الحد. من جهة، «كلنا يعرف» أن الجسد يتكون من لحم وعضلات وعظم ودم، وأشياء أخر، ويحتوى على قدرات تختص بالنوع تجعلنا بشرا. من جهة أخرى، حتى أكثر جوانب الجسد «طبيعية» تتغير عبر فترة حياة الفرد. مثال ذلك، حين يتقدم بنا العمر، تتغير وجوهنا، تضعف قدرتنا على الإبصار، تصبح عظامنا هشة، ويشرع لحمنا فى الترهل. حجم وشكل وطول الجسد تختلف وفق ما يحصل عليه من رعاية وغذاء، فى حين أن انفتاحية الجسد على العلاقات والبيئات الاجتماعية تسهم فى غموضه. مثال ذلك أن تنشئتنا تؤثر فى أجسادنا عبر عدد لا يحصى من السبل: تطور المرء بوصفه فتاة أو فتى يمشى ويتكلم وينظر ويجادل ويتشاجر ويتبول، إنما يرتهن بأنماط تدريب الجسد التى تعلمها من والديه وآخرين (Haug,1987). أيضا فإن التدخل الطبى والتقنى بوجه عام فى الجسد يسلط الضوء على الخصائص البيولوجية والاجتماعية التى يختص بها الجسد، وقد أسهمت فى جعل فهم ماهية الجسد مهمة أكثر صعوبة.

يشير التكوين البيولوجى والاجتماعى للجسد إلى مكون آخر فى النهج العام فى مقاربة الجسد الذى يروج له هذا الكتاب. فى محاولته تنكب عثرات النزعة الاختزالية البيولوجية، دأب علم الاجتماع تقليديا على اعتبار «الطبيعة» و«الثقافة» مجالين منفصلين، تنتمى تحليلاتهما إلى فرعين معرفيين مختلفين. وكما أشار آرثر فرانك (Frank,1991)، فإن هذا التقسيم يعكس بطريقة بائسة تشعيب الطبيعة/الثقافة الذى يسود أدب الجسد، والذى ينزع إلى افتراض أنه بالمقدور تحليل الجسد وتفسيره دون إشارة إلى خصائصه ونزوعاته «الطبيعية». بيد أن مثنوية الطبيعة/الثقافة



تفرقة لا مدعاة لها ولا نفع منها. لقد تطور الجسد البشرى عبر آلاف السنين وهو يؤسس أساسا صلبا للعلاقات الاجتماعية. فى مقابل البنائية الاجتماعية، من المفيد أن نلحظ أن الجسد ليس مقيدا أو مشحونا بالعلاقات الاجتماعية فحسب، بل يشكل أيضا قاعدة ويحوز قدرات منتجة تسهم فى تشكيل هذه العلاقات. قدرات الجنس البشرى التى نحصل عليها فى الولادة، من قبيل القدرة على المشى المنتصب، والقدرة على الكلام واستخدام الأدوات، تمكننا من تكوين علاقات اجتماعية، وتسهم فى تشكيلها. مثال ذلك، تعنى جسديتنا أننا لا نستطيع أن نكون فى مكانين فى الوقت نفسه، كما تفرض قيودا على عدد من نستطيع مقابلتهم والاتصال بهم فى أى وقت بعينه (Giddens,1984). قد يكون بمقدور العلاقات الاجتماعية أن تحدث تغييرات فى قدراتنا الجسدية بسبل عديدة، غير أنها تظل تحوز على أساس فى الجسد البشرى.

بالترويج لنهج عام فى دراسة موضوعة الجسد، أرغب أيضا فى اقتراح وجوب أن يقول علم اجتماع الجسد شيئا عن علاقة العقل/الجسد. هذا موضوع يغفله عادة علماء الاجتماع الذين يركزون على الجسد بوصفه لحما ودما، دون تطوير ذلك فى شكل رؤية فى الجسدية البشرية بوجه عام. وكما سوف يتضح، فإننى أفضل رؤية فى العقل والجسد تعتبرهما مرتبطين على نحو لا فكاك منه بسبب موضع العقل ضمن الجسد. على ذلك، لن أتقصى بأى تفصيل الجدل الفلسفى الطويل والمفصل الذى يركز على هذا الموضوع. عوضا عن ذلك، وبالتعويل على أعمال جورج لاكوف، مارك جونسون، وبوب كونيل، سوف أعنى بالمترتبات الاجتماعية الناجمة عن العلاقة الوثيقة القائمة بين هذه المقولات والمخططات التصنيفية التى نتعامل معها من جهة، ووجودنا الجسدى من أخرى. سوف أنجز هذا عبر نقاش صريح للقضايا المعنية فى الفصل الخامس، وعبر انشغال ضمنى بالنتائج الاجتماعية لموضع العقل ضمن الجسد فى الفصول السادس والسابع والثامن.

فى سياق تأسيس مخطط هذا النهج العام فى مقاربة موضوعة الجسد، يعد الفصل الخامس فصلا أساسيا، فهو يروم تجاوز ما أعتبره قصورا فى مقاربتى النزعة الطبائعية والبنائية الاجتماعية للجسد. سوف أعتبر بشكل موجز دور تطور البشر فى حصولنا على قدرات خاصة بالجنس البشرى، وأركن بحرية إلى أعمال بوب كونيل وبيتر فرند. لقد طرح هذان الكاتبان تحليلات مهمة «للجسد المجندر» و«الجسد العاطفى». إذا اعتبرنا أعمالهما معا، فإنها تقترح كيف تصبح التقسيمات الاجتماعية متجسدة فى النساء والرجال. يتعرض

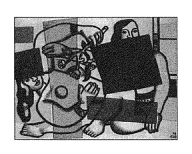
منذ ستينيات القرن الفائت، أجريت فى الولايات المتحدة أكثر من مليون عملية زرع أثداء لنساء رغبن فى أجساد أكثر «أنوثة»



الفصلان السادس والسابع لحجة أكثر إثارة للخلاف مفادها أنه يمكن توظيف أعمال بيير بورديو ونوبرت الياس فى التغلب على مثنويات البيولوجيا/المجتمع، العقل/الجسد، والثقافة/الطبيعة البارزة فى مقاربات النزعتين الطبائعية والبنائية للجسد. فضلا عن ذلك، عوضا عن الاقتصار على عرض مقاربات منهجية للجسد، يمكن تأويل تلك الأعمال على اعتبار أنها تطرح نظريات فعلية فى الجسد فى المجتمع.

سبق أن تم تأويل أعمال بورديو والياس بطرق عديدة، غير أنه لا يظن عادة أنها تطرح نظريات فى الجسد، رغم أن علماء اجتماع الجسد قاموا بتوظيفها. على ذلك، يتعين هدفى الرابع من هذا الكتاب فى عرض اقتراح مفصل مفاده أن لب أعمالهما إنما يتعين فى رؤى محددة فى الجسد تحمل محمل الجد المترتبات الاجتماعية الناجمة عن الجسدية البشرية بوصفها ظاهرة مادية. لقد سبق أن اقترحت أن علم الاجتماع التقليدى تبنى مقاربة مزدوجة فى دراسة الجسد، ولا ريب أن هذه المقاربة تظل تهيمن إلى حد كبير على علم الاجتماع المعاصر. غير أن هناك استثناءات، وأقترح أنه بالإمكان اعتبار أعمال بورديو نظرية فى الجسد كرأس مال مادى، فى حين تعنى أعمال الياس أساسا بالتفصيل فيما أسميته بنظرية الجسد المتحضر. إن كل من هذين الكاتبين يطرح لعلماء الاجتماع مقاربات فعالة متقابلة للجسد تعين على تجاوز المقاربة المزدوجة التى تبناها علم الاجتماع التقليدى فى دراسته لموضوعة الجسد. أيضا فإن لديهما الكثير لقوله بخصوص موضع الجسد فى المجتمع وتأثيره على إحساس الناس بهوياتهم.

يشير مفهوم بورديو للجسد بوصفه نوعا من رأس المال المادى إلى شيوع عملية تسليع الجسد؛ وهو موقف يربط هويات البشر بالقيم الاجتماعية التى يحصلون عليها بسبب حجم وشكل ومظهر أجسادهم. فى المقابل، يبين الياس كيف أصبح الجسد بشكل متصاعد فردانيا يعزل المرء عن أغياره. إنه يجمع بين هذا وتحليله لكيف أن كثيرا من الصراعات التى كانت تحدث بين الأجساد أصبحت تحدث الآن داخل الفرد الجسدى بسبب متطلبات التحكم فى العواطف. إن هذه العمليات تجعلنا نعيش وحيدين مع أجسادنا؛ بحيث نبذل المزيد من الجهود فى مراقبتها، وترويضها والعناية بمظهرها، مع فقد الرضا الذى كنا نتمتع به بسبب الانغماس فى الملذات وإشباع حاجات الجسد. إن لدى الياس أكثر مما لدى بورديو بخصوص «الجسد المعاش»، وكيفية اختبار أنفسنا وبيئتنا عبر أجسادنا. على ذلك، يمكن إقرار أن أعمال هذين المنظرين تقر الكثير



عن النزوع الحداثى لدينا شطر درجة عالية من التأمل فى أجسادنا، وعن السبب الذى يجعل الموت فى هذا السياق شيئا مزعجا للفرد الحداثى.

يحيلنى هذا إلى الهدف الخامس والأخير من هذا الكتاب: الترويج لتحليل الموت بحسبان أهميته المركزية فى علم اجتماع الجسد. خلافا لدراسات أخرى أجريت على موضوعة الجسد، أقترح أننا لا نستطيع فهم الظروف المرتبطة بالحياة كأشخاص جسديين فى عصر الحداثة العالية فهما تاما إلا باعتبار إمكان الموت.

وضع مخطط الجسد

رغم أن هذا الكتاب لم ينظم فى شكل أبواب، فإن محتواه ينقسم بوجه عام إلى أربعة مجالات مرتبطة. أولا، يطرح الفصل الثانى رؤية شاملة لوضع وصورة الجسد فى علم الاجتماع. ثانيا، يتقصى الفصلان الثالث والرابع مقاربات منهجية منفصلة لتحليل الجسد فى المجتمع. ثالثا، فى حين تواصل الفصول السادس والسابع والثامن والتاسع المقارنة بين مقاربات مختلفة للجسد، فإنها تحاول تفسير لماذا أصبح الجسد مشروعا عند كثير من الناس فى الفترة الراهنة من الحداثة العالية، وتحلل حدود هذا التوجه شطر الذوات المادية. رابعا، يحلل «التعقيب» ما آلت إليه مشاريع الجسد فى سياق ابتكارات تقنية أنجزت مؤخرا، كما يحلل مفاهيم بديلة للجسد والهوية الذاتية، ويروم إحداث المزيد من التطوير على النهج الواسع الذى يتبناه هذا الكتاب. يتضمن هذا إعادة تقويم بعض النظريات الأساسية التى سبق فحصها فى الأجزاء الرئيسة من الكتاب، وتحديد ما أعتبره توجها جديدا مهما فى عملية التنظير للجسد.

يطرح الفصل الثانى تقصيا مفصلا للمنزلة المزدوجة التى يتنزلها الجسد فى علم الاجتماع وظهور الجسد بوصفه موضوعا للدراسة. بعد فحص حضور الجسد الغائب فى علم الاجتماع المعاصر والكلاسيكى، ويبحث عن بعض الأسباب التى تفسر رواج الجسد المتصاعد فى علم الاجتماع. يتضمن هذا ظهور نسوية «الموجة الثانية»؛ تقدم السن بسكان المجتمعات الغربية؛ التحول الذى طرأ على بنية الأنظمة الاجتماعية الرأسمالية المتقدمة؛ المشكلة آنفة الذكر المتعلقة بمعرفتنا بماهية الجسد، والمرتبطة بعقلنة الجسد فى عهد الحداثة. تنعكس هذه «الأزمة» فى أعمال بعد - حداثية متأخرة فى الجسد تخلت، رغم تركيزها المثمر على الاختلاف، عن محاولة فهم الجسد بوصفها ظاهرة مادية. أيضا فإنها تنعكس فى تمثيلات الجسد فى الثقافة الشعبية.

يفحص الفصلان الثالث والرابع موروثين من أهم موروثات التفكير التى عنيت بها الدراسات المعاصرة فى الجسد، وركنت إليها واستجابت ضدها. يركز الفصل الثالث على الرؤى الطبائعية فى الجسد. المقاربة الطبائعية مظلة ينضوى تحتها نطاق واسع من الرؤى التى تمفهم الجسد بوصفه قاعدة بيولوجية تتأسس عليها بنى المجتمع الفوقية. المجتمع إنما ينبثق من الجسد وهو مقيد بالجسد، الذى يتشكل بدوره بواقعيات الطبيعة الثابتة. وفى حين أن الرؤى الطبائعية ترتبط غالبا بعلم الاجتماع، فإن لها تاريخا طويلا ومتنوعا، وقد أثرت، سلبا فى أغلب الأحيان، فى مفهوم علماء الاجتماع المعاصرين للجسد. تظل تلك الرؤى تحدث أثرها العميق فى التمكين من حدوث إجحاف اجتماعى، غير أنه تم تبنيها من قبل جماعات مضطهدة لتبرير اعتبار جسديتها منقبة.

على ذلك، استجابت معظم الأعمال السوسيولوجية المتأخرة بطريقة سلبية ضد الرؤى الطبائعية وركنت عوضا عنها إلى ما يبدو جملة مختلفة جذريا من الأعمال. فى الفصل الرابع أتقصى مجموعة منتقاة من رؤى البنائية الاجتماعية فى الجسد. تدرك هذه الرؤى معنى وأهمية وحتى وجود الجسد بوصفه ظاهرة اجتماعية. وعوضا عن أن يكون الجسد قاعدة المجتمع الطبيعية، فإنه يعد نتاج القوى والعلاقات الاجتماعية.

أثرت أربعة مصادر فى رؤى النزعة البنائية الاجتماعية فى الجسد: أنثروبولوجيا مارى دوجلاس؛ أعمال علماء التاريخ الاجتماعى فى الجسد: تحليلات ميشيل فوكو؛ ودراسات ارفنج جوفمان. بعد تحليل موجز لهذه الأعمال، يركز الفصل الرابع على فوكو وجوفمان. عادة ما يعتقد أن أعمال فوكو تطرح رؤى عميقة فى الجسد، ولا ريب أن فوكو قد بذل جهدا كبيرا فى جعل علماء الاجتماع يحملون الجسد محمل الجد. على ذلك، سوف أجادل بأن رؤيته الابستمولوجية فى الجسد، التى تقر أن الجسد لا يوجد إلا فى اللغة المستخدمة (الخطاب)، تعوق فى النهاية علم الاجتماع أكثر مما تقدم له يد العون. فى الخلاصة، أفحص نظريتين معاصرتين فى الجسد تركنان فيما يمكن أن نجادل إلى أعمال فوكو وجوفمان: نظرية ترنر فى «نظام الجسد» ومقاربة آرثر فرانك («مشاكل الفعل») للجسد.

يبدأ الفصل الخامس بالدفاع عن تجسير الهوة الفاصلة بين الرؤية الطبائعية فى الجسد بوصفه ظاهرة بيولوجية ورؤية البنائية الاجتماعية فى الجسد التى تعتبره طيعا بشكل غير محدود. بعد ذلك، يناقش الفصل أعمال بوب كونيل وبيتر فرند، وهما كاتبان تحرز أعمالهما فى الجسد المجندر والجسد العاطفى تقدما شطر تحقيق ذلك الهدف.

المقصود من تحليل أعمال بورديو والياس فى الفصلين السادس والسابع هو التأسيس على الفصل الخامس عبر فحص كيف يمكن بسط مقاربة عامة للجسد بحيث تصبح نظرية فى الجسد فى المجتمع. أعتقد أن هذين الكاتبين يطرحان نظريتين من أقوى النظريات الراهنة فى الجسد.

يروم الفصل الثامن ضم شمل محاور هذه الدراسة عبر التركيز على علاقة الجسد، والهوية الذاتية، والموت فى عصر الحداثة العالية. هنا توصف ثلاث مقاربات مختلفة، تمكننا من حمل أهمية الموت والجسد محمل الجد. تركن الأولى إلى علماء الأنثروبولوجيا الفلسفية وأعمال بيتر برجر؛ فيما تركن الثانية إلى أعمال أنتونى جدنز فى الحداثة؛ أما الثالثة فتعول على ما سبق فحصه من أعمال بورديو، والياس بشكل أكثر خصوصية.

دأب علم الاجتماع تقليديا على العناية بقضايا الحياة، عوضا عن موضوع الموت. غير أننى أقترح أنه لا سبيل لفهم أهمية الجسد فى الحقبة المعاصرة حق الفهم إلا باعتبار مواجهة الفرد الحداثى للموت. فى وقت يشهد أفول فتنة السلطة الدينية، وسرديات شمولية أخرى فى الغرب، يفضل الفرد الحداثى أن يترك وحيدا مع جسده فى مواجهة الموت. إن أجسادنا تحظى بأهمية عظيمة بوصفها حاملة حياة، لكنها تبدو هشة وعديمة الأهمية بوصفها كيانات فانية محتم أن تموت. ■

هوامش

(١) وفق بحث أجرته صحيفة التايمز (١٩ أكتوبر ٢٠٠٢)، زادت تجارة اللياقة الصحية فى المملكة المتحدة نسبة قدرها ٨١٪ فى الفترة بين ١٩٩٤ و١٩٩٩. يوجد الآن حوالى ألفى نادى صحى خاص فى المملكة المتحدة. وقد أنشئ ١٥٦ ناديا فى عام ٢٠٠١ وحده، وهذا رقم قياسى.

رشدي سعيد

جاء فى الأخبار أن شركة «تنتالوم مصر» التى كانت قد تكونت فى شهر ديسمبر سنة ٢٠٠٢ طبقًا لقانون الاستثمار رقم ٨ لسنة ١٩٩٧ مناصفة بين شركة جبسلاند الأسترالية للتعدين وهيئة المساحة الجيولوجية والمشروعات التعدينية المصرية ستبدأ فى نشاطها التعدينى لاستخراج معدن التنتالوم وعدد من المعادن الأخرى المصاحبة من جبلى أبو دباب والنويبع بسلسلة جبال الصحراء الشرقية المطلة على ساحل البحر الأحمر إلى الشمال من مدينة مرسى علم.

ويجىء هذا البدء بعد أن انتهت شركة جبسلاند المنفذة للأعمال دراسة جدوى استخراج هذه المعادن التى كانت هيئة المساحة الجيولوجية والمشروعات التعدينية قد اكتشفتها فى سنة ١٩٦٨ بالاشتراك مع الخبرة السوفيتية وبدأت فى تقييمها للاستخراج الاقتصادى بعد ذلك التاريخ وحتى عام ١٩٧٢.

وقد تذكرت عند قراءة هذا الخبر ما كنت قد كتبته عن هذا الاكتشاف الذى تم وقت أن كنت رئيسًا لهيئة المساحة الجيولوجية والمشروعات التعدينية والطريقة التى تم بها، أعيد نشره كما جاء فى الكتيب الذى أصدرته الهيئة فى سنة ١٩٧١ لأقدم به لنتائج الأعمال التى قامت بها الهيئة لتقييم هذا الخام منذ اكتشافه وحتى صدور الكتيب. وكنت قد طلبت من المرحوم الدكتور عاطف ثابت مدير مشروع التقييم أن يعد الكتيب ليعرض فيه للأعمال التى قامت بها فرق البحث الحقلى بالصحراء التى كانت تحت إشرافه، وكذلك تلك التى قامت بها فرق البحث العلمى بالقاهرة.

قصة «التنتالوم» فى مصر

بدأ مشروع استكشاف التنتالوم فى سنة ١٩٦٩ وانتهى فى أبريل سنة ١٩٧٢ وتكون من أربع بعثات حقلية قامت برفع الخرائط ودق الآبار (بمجموع ٤٤٣٦ مترًا طوليًا) وحفر الأنفاق بداخل الجبلين (بطول ١٧١٤ مترًا) والخنادق (بحجم ٧٠٠ متر مكعب) وجمعت أكثر من ٥٠٠٠ عينة كتلية وأسطوانية ومتالوجينية تم تحليلها معدنياً وكيميائيا وطيفيا كما تم القيام بمسح جيوفيزيقى شمل قياسات جاذبية أرضية ومغناطيسية وكهربية وإشعاعية.

وعندما كنا نقوم بهذه الأعمال كان الأمل يحدونا لكى نبنى هيئة علمية متقدمة للبحث العلمى المنظم عن المعادن فى مصر قادرة ليس فقط على استكشاف ثرواتنا المعدنية، بل ولتنميتها واستخدامها لصالح مصر ودون الحاجة لمشاركة أحد.. واليوم وبعد قرابة أربعين سنة على كتابة هذا التقديم الذى أنشره بحذافيره فيما يلى فقد تدهور الحال حتى أصبحت مصر بلا هيئة للمساحة الجيولوجية، فقد ألغيت كلية بقرار انفرد بإصداره وزير لم يستشر أحداً ممن يعرفون شيئا عن التعدين أو أهمية البحث العلمى.

اكتشاف خامات المعادن النادرة بالصحراء الشرقية
يوليو سنة ١٩٧١
القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٩١هـ - ١٩٧١م

يحتوى هذا الكتيب الذى أعده الدكتور عاطف ثابت على نتائج تقييم المرحلة الأولى لعمليات الاستكشاف التعدينى على بعض مناطق الصحراء الشرقية حول منطقة العجلة والتى أدت إلى كشف كبير عن خامات المعادن النادرة كالتاتالم والنيوبيوم والليثيوم والبريليوم وبعض الخامات المعدنية الأخرى المصاحبة كالقصدير والفلوريت وغير ذلك، وعندما تتم المرحلة الثانية المقدر للانتهاء من تنفيذها نهاية عام ١٩٧٣ فإن أغلب الظن أن مصر ستكون قد وضعت يدها على ثروة كبيرة من هذه المعادن التى يبدو أن بعضاً منها يمثل جزءاً كبيراً من احتياطى هذه الخامات فى العالم.



ويعتبر هذا الكشف الكبير فريداً من عدة أوجه. فقد جاء أولاً نتيجة جهد علمى منظم ومركب يطبق لأول مرة فى عمليات الاستكشاف التعدينى بمصر بأحدث الطرق الحقلية والمعملية، كما يمثل من الوجهة الأخرى نتيجة عمل فرق متكاملة ينتظم فيها مختلف الإخصائيين لكى يعملوا فى تنسيق كامل يعالجون فيها عدة مئات الآلاف من القياسات والتحاليل التى تتناولها الأيادى لعدة مرات كما هو واضح من حجم العمليات المذكورة بهذا الكتيب، كما يمثل هذا الكشف فتحاً لآفاق جديدة لإمكانيات التعدين بمصر، فهذه هى المرة الأولى التى تعطى فيها صخور القاعدة المصرية معادن فلزية ذات قيمة اقتصادية فى تاريخ مصر الحديث.

وإنى لأعتقد أن تاريخ هذا الاكتشاف العظيم وتجربة العمل المتكامل التى أدى إليها لتحتاج إلى تسجيل، ففى صيف ١٩٦٨ وعقب أن توليت رئاسة مؤسسة التعدين كان عقد الخبرة الفنية السوفيتية المبرم مع المؤسسة على وشك الانتهاء مما دعا الجانب السوفيتى إلى أن يقدم للسيد وزير الصناعة اقتراحًا بتوقيع عقد جديد لاستكمال الكشف التعدينى بالبلاد يتضمن عرضاً بالمعاونة فى رفع الخريطة الجيولوجية المصرية التى كانت تنقص الخبراء فى أى بحث علمى منظم عن معادن مصر، وكذلك على عرض باستكمال أبحاث فوسفات وادى النيل الذى كان يعمل فى الجزء الأكبر منه قد انتهى بالعقد السابق مع الخبرة السوفيتية.

ولما قمت بدراسة هذا الاقتراح رأيت أن العرض بالرغم من وجاهته لا يمثل ما كنت أتمناه من حيث بناء جهاز للمساحة الجيولوجية المصرية لا يتمشى والعصر، ولذلك اقترحت على السيد وزير الصناعة أن يترك لى ولزملائى من الخبراء الوطنيين عملية بناء الخريطة الجيولوجية وأن يؤجل النظر فى استكمال دراسة فوسفات وادى النيل فى الوقت الحاضر، إذ إن النتائج الأولى قد أثبتت احتياطياً كبيراً من خام قد لا تؤدى دراسته الاقتصادية إلى ما يضيف كثيراً إلى احتياطى الثروة المصرية وأن يسمح لنا بتغيير البرنامج المقترح فى العقد المذكور إلى برنامج آخر تطبق فيه طرق الاستكشاف التعدينى الحديثة والمركبة على بعض مناطق الصحراء التى تبدو وكأن بها علامات تعدين مأمولة. وقد قبل السيد الوزير اقتراحى هذا.

وفى مايو ١٩٦٩ سافرت على رأس وفد من أعضاء المساحة الجيولوجية لمناقشة الجانب الروسى فى موضوع عقد الخبرة المشار إليه وتم توقيع العقد وبه تحديد لبعض المناطق المأمولة لبدء العمل فيها بطرق الاستكشاف المعقدة هذه، وقد كان اختيار هذه المناطق أمرا تحملت مسئوليته بالكامل لأن السلسلة الطبيعية والواجبة الاتباع فى مثل هذه الأعمال هى ألا يتم الاستكشاف التعدينى لأى منطقة فى إقليم ما إلا بعد أن تتم الدراسات الأساسية العامة وترفع خرائط الإقليم الجيولوجية والجيوفيزيقية الجوية. ثم يحدد فى ضوء هذه المعلومات الأساسية المناطق المأمولة والمحدودة المساحة لإجراء عمليات الاستكشاف التعدينى الغالى النفقة والباهظ التكاليف عليها، إلا أنى شعرت أن مثل هذه السلسلة الطبيعية للأعمال ستؤخر البحث العلمى المنظم من المعادن طويلاً، خاصة أن رفع

الخرائط الجيوفيزيقية الجوية التى تم تنظيم القيام بها بين بنود العقد الجديد المقترح ستتأخر كثيراً فى ضوء ظروف الحرب التى تخوضها البلاد، كما أن عملية رفع الخرائط الجيولوجية الكاملة للجمهورية هى عملية طويلة المدى. وقد شعرت أن معرفتى بجيولوجية البلاد التى بنيتها فى تصور ذهنى قائم على المعلومات المتفرقة المعروفة عنها فيه ما يكفى للبدء فى تنفيذ عمليات الاستكشاف التعدينى المعقدة على بعض المناطق التى تخيلت أنها ولابد معطية بعض الآمال. كما رسمت بالإضافة إلى ذلك خطة المساحة الجيولوجية على أساس استمرار العمل فى موازاة للقيام بالأعمال الأساسية اللازمة، فضمنت العقد بنداً للتصوير الجوى لأجزاء كبيرة من سطح مصر التى لم تكن قد صورت جوياً حتى ذلك التاريخ، وكذلك بنداً للمسح الجيوفيزيقى الجوى لأجزاء من صخور القاعدة المصرية كما قمت بوضع برنامج لرفع الخرائط الجيولوجية الإقليمية لمصر.



وفى نهاية عام ١٩٦٩ بدأ العمل فى المناطق المختارة بالطرق الحديثة والمعقدة للاستكشاف التعدينى، ولم يكن العمل بمثل هذه الطرق سهلاً فى مصر، فالتجربة جديدة وتحتاج لنجاحها إلى فرق متكاملة يناول العاملون فيها معارفهم الواحد للآخر فى نظام ورتابة متينين، وهذا طريق جديد تماماً لعالم تعمه الفردية المطلقة حتى إن أكثر نتائج الأعمال التى تمت بالهيئة لم تكن محفوظة لديها، بالإضافة إلى ذلك فإن التجربة تحتاج إلى خبرات جديدة لم تكن فى متناولنا، فالجيولوجيون ذوو الخبرة تدربوا على فروع أخرى من العلم وفى ظل نظام فردى مطلق، والجيولوجيون الجدد خارجون من الجامعة على مستوى متواضع جداً من العلم والمعرفة العامة. كما أن عمليات البحث هذه تحتاج إلى أدوات معملية متقدمة لم تكن لدينا أو إن كانت فقد رتبت للاستفادة منها فى أحجام صغيرة لا تتناسب أبداً وحجم العمل المنتظر، فقسم المعادن مثلاً لم يكن يعالج أكثر من خمسين عينة فى الشهر، وكذلك الحال بقسم التحليل الطيفى، كما أن المعامل الكيماوية كانت تعمل فى

خطوط تقليدية تختلف كل الاختلاف عما ينتظرها وهى تعالج تحاليل الفلزات وغيرها من المعادن التى لم تدخل أبداً فى خبرتها، وبدا العمل فى أوله عسيراً لدرجة مزعجة، إلا أن التعاون الصادق الذى رأيته من الجانب السوفيتى وتحت القيادة الرشيدة لدكتور عاطف ثابت الذى أخذ على عاتقه مسئولية القيام بهذه الأبحاث قد حلت معظم هذه المشاكل وبدأ العمل ينتظم فى شهور وانتقلت بذلك المساحة الجيولوجية المصرية إلى جهاز متقدم للبحث الجيولوجى فى ظرف أقل من سنة واحدة.

بدأنا العمل بمجموعة من الجيولوجيين والكيميائيين والجيوفيزيقيين المبتدئين اخترناهم فى امتحان شفاهى من بين مائة متقدم للإعلان عن وظائف ليس من بينهم أفضلهم علماً، ولكن من بين أفضلهم حباً للصحراء وتطلعاً للعمل المنظم فى فريق متكامل لا يعرف كل واحد فيه العمل الموكل إليه على وجه التحديد فقط، بل ومكانه وسلسلة قياداته وطريقة تسجيل معارفه ومناولة عيناته. وعلى مدى الشهور الأولى وفى ظل هذا الجو المنظم وبإذكاء روح الفريق استطعنا أن ننقل أبناءنا الجدد فى أقل من عام واحد ليس فقط إلى شباب يتقنون أعمالهم التى بدأوها بل وإلى مجموعة طيبة من العاملين فى فريق. وفيما يلى أسماء من تميزوا من هؤلاء الأبناء.

إخصائيون:

دكتور حسن الحكيم
جيوفزيائى وليم كامل عوض
جيوفزيائى محمد أحمد شعبان
جيولوجى محمد أحمد البديوى
جيولوجى سعد عوض
جيولوجى غبريال أسعد غبريال
جيولوجى عبدالله عبدالنبى
مهندس بديع مرجان
مهندس محمد عبدالمطلب
جيولوجى إبراهيم أبوالليل
جيولوجى إبراهيم خلف
جيولوجى عادل زخارى
جيولوجى سيد ضيف عزاز

كتبة:

سيد طه
حميدو أبوالعلا

سائقون:

سيد محمد على
عمر على حامد
حسن دهب

عمال مناجم:

عمر عرابى كرار
خلف الله العشابى

ومن الناحية الأخرى بدأنا نبنى معامل جديدة بالقاهرة تستطيع أن تجابه سيل العينات القادمة من الحقل، ولم يكن ذلك سهلاً فايجاد المكان الجديد لتكسير وطحن وإعداد هذه العينات ثم معالجتها بالفصل ثم شراء أجهزة المعامل الجديدة وإصلاح ما تعطل منها وتعيين الفنيين المطلوبين لهذه العمليات وتدريبهم لم يتم إلا بشق الأنفس. ولكننا استطعنا فى أقل من عام واحد أن ننقل معاملنا من معامل متواضعة لا تعالج إلا ألفاً واحداً من العينات إلى معامل تعالج عشرات الآلاف من العينات. وعلى سبيل المثال فقد تم خلال عام ١٩٧١/٧٠ معالجة ٢١٥٢٩ عينة بالتحليل الطيفى لعدد ٢٤٥٨٦١ عنصراً، وعدد ٥٣٤٠ عينة للتحليل المعدنى لعدد ٣٤٨٩١ عنصراً بزيادة تزيد على عشرة أضعاف ما درجنا عليه فى العام الذى سبقه فقط.



وفى يونية ١٩٧١ كانت نتائج الفحوص والتحاليل المعملية لعينات الحقل قد بدأت تأتى فى كمية كافية لتبين أن إحدى المناطق التى اخترناها للقيام بأعمال الاستكشاف التعدينى عليها تحتوى كشفاً اقتصادياً كبيراً من بعض المعادن النادرة التى يمكن بحق تسميتها معادن المستقبل، ليس هذا فقط، بل إن هذه المعادن موجودة بكميات تبشر بالإمكانيات الهائلة لمستقبل باهر فى ميدان استخراجها، ولعلى لا أبالغ هنا عندما أقول إن مصر توشك بهذا العمل أن تضع يدها على ثروة عظيمة لن يقل أثرها على مستقبلها عن أثر البترول فى إمارات الخليج أو الكويت، فقائمة المعادن المكتشفة من الندرة والأهمية والقيمة الاستراتيجية ما لا يحتاج إلى بيان.

وإذا كان لهذه القصة من مغزى فهى أن أرض مصر بالرغم من قدمها وكثرة مرور المغامرين عليها مما عراها تعرية تكاد تكون تامة من كل ثروة معدنية سهلة الاستخراج على سطحها، لازالت بكراً أمام إنجازات العلم الحديث وكفاءة الإنسان التنظيمية وفكره الخلاق. ■

«النيوبيوم»..

فى أثناء عمليات المسح الجيولوجى لمنطقة وسط الصحراء الشرقية بواسطة فريق مشترك بين المساحة الجيولوجية المصرية ومجموعة الخبراء السوفييت عام ١٩٧٠ اكتشف وجود نوع فريد من الصخر اسمه Apo Granite يتميز بلونه الأبيض وبلوراته السكرية المظهر وسط صخور داكنة ويشغل مساحة لا تزيد على ٢ - ٣ كم². عند إجراء عمليات التحليل الطيفى Spectral Analysis لهذه الصخور اكتشف وجود معدن النيوبيوم ومعدن التنتاليوم بنسب بلغت ٠,٠٨٪ وهى نسبة عالية نسبياً - فى هذا الوقت كان السوفييت يهتمون بمعادن العناصر الأرضية النادرة فى بلادهم لاستخدامها فى الصناعة الإلكترونية والمعادن التى تصلح فى أبحاث الفضاء - ومن هنا كان الاهتمام بالكشف المصرى لوجود هذين المعدنين.

أسفرت الدراسات البتروجرافية والمعدنية عن أن الصخر الذى يحتوى على هذين المعدنين المهمين مكون من معادن الفلسبار الأبيض (الألباتيت والبلاجيوكليز) وهى خامات أساسية فى صناعة السيراميك مع نسبة عالية من معدن الكاسترييت (كبريتيد القصدير) الذى ينتج منه القصدير. ولهذا الغرض تم حفر نفق أفقى طوله ٢٠٠ متر يخترق جسم الخام وتم جمع عينات منه أوصلت إلى النتائج الأولية التى أعلنت فى حينه.

فى ذلك الحين عام ١٩٧٠ أصدر الدكتور رشدى سعيد، رئيس الهيئة فى ذلك الوقت كتيباً باللغة العربية شارحاً فيه أهمية هذا الكشف الجديد ومستقبله وأنه يمثل أكبر احتياطيات للخام من هذا النوع ربما على مستوى العالم. إلا أن خروج السوفييت من مصر عام ١٩٧٢ ودخول البلاد فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وترك الدكتور رشدى سعيد لمنصبه بعد ذلك أدى إلى توقف كافة الجهود للسير فى تنمية هذا الكشف المهم وخاصة أنه لم يكن لهيئة المساحة الجيولوجية فى ذلك الوقت وحتى عام ١٩٨٤م سياسة واضحة لإقامة مشروعات مشتركة مع جهات خارجية متخصصة.

فى عام ١٩٩٢ عرضت الحكومة الإيطالية من خلال برنامج التعاون الدولى بها تقديم منحة مقدارها مليون دولار لإجراء استكشاف تفصيلى شمل: إجراء عمليات حفر من داخل النفق المشار إليه عاليه لأعماق ٥٠ - ١٠٠م إلى أعلى النفق وأسفل النفق ثم على مسافات محددة إلى يمين ويسار النفق حتى نهايته وذلك بفريق بحث حقلى مشترك بين جيولوجيى الهيئة وجيولوجيين إيطاليين.

وعلى أثر هذه العمليات الحقلية تم جمع عينة تكنولوجية مركبة أرسلت إلى معامل شركة جيومنوريريا الإيطالية بجنوب إيطاليا لإجراء عمليات تركيز وفصل لمعادن النيوبيوم والتنتاليوم والقصدير. وقد تم على النطاق المعملى فصل هذه المعادن بدرجة نقاوة عالية وقدم عن ذلك تقرير تفصيلى مودع فى وثائق هيئة المساحة الجيولوجية منذ ذلك التاريخ.

خلصت نتائج هذه الدراسة إلى ما يلى بافتراض إنتاج ٢٠٠ ألف فدان من الصخر الحاوى على هذه المعادن سنوياً:

١ - إنتاج ٦٠ طناً من معدن النيوبيوم ومثلها من معدن التنتاليوم.
٢ - إنتاج ١٨٠ طناً من القصدير النقى (مصر تستورد قصديراً بحوالى ٢٥٠ طنا سنوياً).

أما بالنسبة للصخر الحاوى على هذه الخامات النادرة فقد أثبتت الدراسة المعملية أنه من كمية الـ ٢٠٠ ألف طن المشار إليها عاليه يمكن الحصول على:

١ - ٩٠ ألف طن من الفلسبار عالى الجودة Ceramic grade لصناعة السيراميك والخزف الصينى.
٢ - ٣٠ ألف طن من الكوارتز - السيلكا النقية - التى تصلح لإنتاج الزجاج المتعادل.

بعد تقديم هذا التقرير المتفائل سعت هيئة المساحة الجيولوجية عن طريق التعاون الدولى الإيطالى للحصول على منحة قدرها ١٠ ملايين دولار لإقامة مشروع رائد Pilot للتحقق الاقتصادى من النتائج سالفة الذكر. إلا أن هيئة المساحة الجيولوجية لم تتمكن من الحصول على هذه المنحة، حيث لم تكن أسعار النيوبيوم والتنتاليوم قد ارتفعت فى السوق العالمية إلى ما هى عليه الآن وتوقف المشروع منذ عام ١٩٩٣م.

فى عام ٢٠٠٤م وبعد تكون ما يسمى (شركة الثروات المعدنية) تابعة لهيئة المساحة الجيولوجية تقدمت شركة جيسلاند للحصول على حق استغلال هذه المنطقة وأعلن عن قيام شركة مشتركة وفقاً لقانون الاستثمار بين شركة الثروات المعدنية وهيئة الثروة المعدنية وليس من القانون ٨٦ لسنة ١٩٥٦ الخاص بالمناجم والمحاجر

و «التنتاليوم»

مما يعد هروباً من التزامات واشتراطات هذا القانون. وعلى مدى ثلاث سنوات من التعاقد مع هذه الشركة لم تقم هذه الشركة بأعمال ذات قيمة بالموقع إلا أنه بدأت مؤخراً أعمال حفر آبار جديدة بالمنطقة وتجهيز عدد من الطرق التى تربط موقع الخام بشاطئ البحر الأحمر كما أفاد المسئول عن هذه الشركة ومن خلال تقارير دورية تقدم لشركة الثروة المعدنية وإلى هيئة الثروة المعدنية.



وقد أثيرت القضية مؤخراً فى الاعلام المصرى ونود أن نوضح مجموعة من النقاط بشأنه

١ ـ أن منطقة أبو دباب تقع بالصحراء الشرقية ـ شمال مرسى علم وليس منطقة أبو ضباب التى ذكر إنها فى سيناء وأن ما ورد بالتحقيق أن هذه المنطقة لم يسمع عنها أحد، فهذا مخالف للحقيقة كما أوردنا سابقاً، فالمنطقة وغيرها معروفة منذ ما قبل عام ١٩٧٠م كما أوضح أستاذنا الدكتور رشدى سعيد الذى كان له الفضل فى ذلك الوقت للتنبيه لأهمية هذا المعدن ورفيقه المسمى نيوبيوم.

٢ ـ الشركة الأسترالية جبسلاند هى شريك متعاقد وفقاً لقانون الاستثمار بين هيئة الثروة المعدنية والشركة المصرية للثروات المعدنية ومنحت هيئة الثروة المعدنية هذه الشركة المشتركة حق استغلال خامات أبو دباب منذ عام ٢٠٠٤ دون وجه حق على أن تتولى شركة جبسلاند الإنفاق على الأبحاث والدراسات وعمليات الاستخراج والتسويق واقتسام العائد.

(رأى شخصى ـ هذه الشركة الثلاثية والتى صدر قرار بتشكيلها طبقاً لقانون الاستثمار لم تمنح ـ فى إطار القنوات الشرعية ـ حق استغلال هذه الخامات والتى هى أصلاً طبقاً للقانون ٨٦ لسنة ١٩٥٦م الخاص بالمناجم والمحاجر وطبقاً للدستور تعتبر من أموال الدولة لا يجوز منح حق استغلالها إلا فى إطار القانون وطبقاً لنصوصه أو تطبيق المادة ٥٠ منه إذا ما أريد الحصول على تيسيرات غير واردة بالقانون وهذه المادة تستلزم أن يصدر عقد الاستغلال بقانون حماية لأموال الدولة).

٣ ـ يعيب الترخيص لهذه الشركة الثلاثية ما يلى:

(أ) أن الدولة أنفقت على هذا الموقع والخام من أموالها بالإضافة إلى المنحة التى حصلت عليها مما زاد فى قيمة المنطقة، الأمر الذى يحتم طبقاً للقانون الإعلان عن استثمارها بمزاد أو حسب نظام الاتفاقيات التى تصدر بقانون فهذه الخامات فى الأصل ملك الدولة ومن أموالها العامة.

(ب) أن تشكيل هذه الشركة الثلاثية لا يعفى الشركة من الحصول على عقد استغلال طبقاً للقانون وهو ما أعتقد أنه لم يحدث حتى الآن.

(ج) صرحت هيئة الثروة المعدنية لهذه الشركة المشتركة والمنشأة طبقاً للقانون رقم ٨ الخاص بالاستثمار بالعمل دون سند من القانون الواجب التطبيق، الأمر الذى يستلزم المراجعة.

٤ ـ مناطق الذهب والنحاس الممنوحة للشركة الثلاثية أجرت عليها هيئة المساحة الجيولوجية أيضاً أبحاثاً عديدة فى فترات سابقة وليست كما ذكر بالمقالة المنشورة أن هذه الشركة سوف تبدأ حيث انتهى الفراعنة، ففى ذلك انتقاص لجهد استمر أكثر من نصف قرن على الأقل.

٥ ـ ما تم إجراؤه فى منطقة أبو دباب حتى الآن وبعد توقف دام سنوات هو إجراء عمليات حفر استكشاف وفتح بعض الطرق الرابطة للخام بالبحر وما عدا ذلك فليس هناك أى مرافق أو معدات تتناسب مع ما تدعيه الشركة التى تم إنشاؤها بالمقال مما يعنى أن الإنتاج قد لا يبدأ قبل بضع سنوات.

٦ ـ المطلوب من شركة جبسلاند قبل التهويل باستكشاف خام لم تجر عنه دراسة جدوى اقتصادية واللجوء للبنوك للاقتراض كما ادعت أن تعد دراسة جدوى اقتصادية مقبولة عالمياً يتحدد على أثرها كمية الخام المتاح وطريقة وجوده وكيفية استخراجه وتكاليف عملية الاستخراج وتحقيق ومراجعة هذه النتائج بواسطة شركات عالمية محايدة قبل التورط فى قروض وحتى لا تتكرر مأساة أبو طرطور.

أحمد عاطف دردير

رئيس هيئة المساحة الجيولوجية الأسبق



قصة التفريغ الثقافى

محمود محمد شاكر

إن جيلنا، جيل المدارس المفرغ، كان فى خلال ذلك قد كبر، وانفلق عن فريقين: فريق قانع بما تجود به عليه أقلام الأساتذة الكبار من «تلخيص» و«تجديد»، فهو لايزال إليهم متطلعاً، وبهم متعلقاً، ثم لا يزيد، وفريق يسر الله له السبيل إلى معرفة المنبع، فرأى نفسه قادراً على أن يغترف من حيث اغترف أساتذته. لقد اطلع على أصول ما كانوا يلخصونه، وما كانوا «يجددون» به مكتوباً بلغته أو بلغاته على الأصح. وأحس أيضاً أن «الأصل» الذى يقرؤه بلغته، مضىء حىٌّ، مكثفٌ، عميق الدلالة، وأن تلخيص الأساتذة وتجديدهم كاب لونه خامدة حياته، متخلخل، قريب المتناول.

ومع هذا الذى أحس به، فإنه من حيث لا يدرى يشعر بتفوق هؤلاء الأساتذة الملخصين المجددين عليه، ولكنه لا يستطيع أن يجد تفسيراً لهذا التفوق، مع أن تفسيره يسير هين. وذلك أن علائق الأساتذة بثقافة أمتهم كانت علائق لم تمزق كل التمزيق، وبفضل هذه العلائق استطاعوا أن يعطوا تلخيصهم نفحة من سر أنفسهم يمتازون بها، وأن يكونوا أقدر منهم على «التجديد»، لأن ما عندهم كان يمكنهم من الاختيار، ثم من نفى ما هو غث أو ساقط، ومن إخفاء «السطو» إخفاء فيه ذرو من المعرفة. أما هم، فقد فُرغوا تفريغاً يكاد يكون تاماً من أصول ثقافتهم التى ينتمون إليها «بالوراثة»، ولذلك فهم يحسون فى أنفسهم ما يشبه العجز، إذا ما قارنوا بين أنفسهم وبين هؤلاء الأساتذة.

وهذا هو الموقف العصيب الذى كان فيه جيلنا يومئذ، ثم استمرت عليه الأجيال بعدنا، وهى تشعر شعوراً واضحاً بتفوق هذا الجيل من الأساتذة الكبار «الملخصين» و«المجددين» مع أن الأمر، كما قلت، قائم فى الحقيقة على «السطو» البين أو الخفى، على أعمال ناس آخرين يكتبون فى لغاتهم بألسنتهم، ويعبرون عن أنفسهم وعن حضارتهم وعن ثقافتهم، لا عن أنفسنا أو عن حضارتنا أو عن ثقافتنا نحن!



عمـــــاد الغـــزالي

أســئلة المســ

■■ منطقة شائكة تلك التى يقترب منها مؤلف هذه الرواية، وهو باحث متخصص فى التراث ويشغل منصب مدير مركز المخطوطات فى مكتبة الإسكندرية، فالموضوع الذى اختاره لروايته يمس بصورة مباشرة صلب عقيدة «التثليث»، ويستعيد الجدل الدامى فى تاريخ الكنيسة حول «ألوهية المسيح، والذى راح ضحيته كثيرون من العوام والقساوسة، مستخدما عدة حيل فنية سنشير إلى بعضها حالا، كى يتم التعامل مع الرواية فنيا وأدبيا، لادينيا وتاريخيا، برغم الوثائقية الوفيرة التى لاينكرها، وبرغم صدقية الوقائع التى لاشك أنه اختبرها بالرجوع إلى المصادر الأصلية ذات الصلة بالموضوع.

يتخفى المؤلف خلف المترجم، ويتخفى المترجم خلف الراوى، والأخير راهب مصرى يدعى «هيبا» ترك مجموعة من اللفائف (الرقوق) تم اكتشافها قبل عشر سنوات فقط بالخرائب الأثرية الواقعة إلى الشمال الغربى من مدينة حلب فى صندوق خشبى محكم الإغلاق، وهى مكتوبة بالسريانية، يحكى فيها سيرته وما لاقاه فى حياته من أهوال وما كان شاهدا عليه من حوادث، بما يعنى أن دور المؤلف - المترجم - يقتصر فقط على الترجمة العربية الأمينة للرقوق، وأنه لم يتدخل - بحسب ما يؤكد فى مقدمته - إلا لترجمة أسماء بعض المدن القديمة إلى مسمياتها المعاصرة، أو تحويل تواريخ قبطية إلى ما يقابلها من أيام وشهور وسنوات على النحو الذى باتت معروفة به اليوم.

وزيادة فى الإيهام، فإن المؤلف - المترجم - يتدخل بتعليقات موجزة فى الحواشى لشرح ما يغمض على القارئ فى النص الأصلى، من ذلك مثلا كتابته فى الرق السابع... «أن هذا هو المكتوب فقط فى هذا الرق، وبين السطور شطب كثير ودوائر متداخلة، وعلى الحواف وبأيد مضطربة رسم الراهب هيبا فى الفراغ المحيط بالكلمات صلبانا كثيرة متفاوتة الحجم».

أو أن يكتب فى حاشية أخرى: هذا الموضع من المخطوطة فيه اضطراب ملحوظ فى رسم الكلمات، أو أن يشرح لنا بوصفه مترجما بعض الكلمات التى ترد فى الرقوق مثل كلمة «متنيح» التى تعنى «متوفى»، أو بعض الوصفات الطبية التى يوردها هيبا بوصفه معالجا واستخداماتها، أو يخبرنا أنه بحث عن اسم «هيبا» هذا فى المراجع القديمة والحديثة فلم يجده، وإن تأكد بصورة حاسمة من صدق الوقائع التى أوردها فى رقوقه ودقتها بما يعنى أن الوقائع الواردة صحيحة من الناحية التاريخية، أما ما يخص المؤلف منها وما يتعلق بحياته الشخصية وارتباكاته ومساعيه وآرائه فلا يمكن التحقق من صدقيتها لأنها روايته دون غيره.

وبهذا القدر من الإيهام، فإن على قارئ الرقوق أن يتعامل معها على مستويين، مستوى وثائقى لايمكن الشك فى محتواه بعدما استوثق المترجم - المؤلف - شخصيا منه، ومستوى سردى لابد من قبوله كما رواه لنا صاحب الرقوق بوصفه سيرة ذاتية.

والحقيقة أن القدرة الفنية العالية للمؤلف تتبدى فى هذا المزج البديع بين المستويين، بلغة جميلة وأسلوب لايخلو من تشويق وحرفية.

يبدى المؤلف «تعاطفا واضحا مع «النسطوريين»، وهم أتباع «نسطور»، القس الإنطاكى الشهير من بلدة «جرمانيقى» وهى بلدة فى الشام صارت تعرف اليوم باسم «مرعش»، وهم يرفضون الفكرة القائلة بألوهية المسيح، فهو برأيهم مولود من بشر، والبشر لا يلدون آلهة. يقول نسطور مخاطبا «هيبا»: كيف نقول أن السيدة العذراء ولدت ربا، ونسجد لطفل عمره شهور لأن المجوس سجدوا له، المسيح معجزة ربانية، إنسان ظهر لنا الله من خلاله وحلَ فيه ليجعله بشارة الخلاص وعلامة العهد الجديد للإنسانية.

وكانت آراء نسطور تلك هى التى أدت إلى عزله من الأسقفية ونفيه بقرار من المجمع المقدس الذى انعقد فى مدينة «أفسوس» بروما، وشهده الامبراطور الرومانى نفسه فى ٢٧ سبتمبر من عام ٤٣١ ميلادية.. «وهى السنة المشئومة التى حرم فيها وعزل الأسقف المبجل» نسطور «واهتزت أركان الديانة»، بحسب ما يقول «هيبا». ومثّل عزل «نسطور» ونفيه انتصارا لكنيسة الإسكندرية برئاسة الأسقف «كيرلس» فى مواجهة كنيسة انطاكية، متأسيا بما فعله قبله الامبراطور «قسطنطين» الذى عرف فى تاريخ الكنيسة بمحبوب الإله وحامى الإيمان ونصير يسوع، والذى سبق له أن حرم الأسقف «أريوس» لقوله إن المسيح إنسان لا إله، وأن الله واحد لاشريك له فى ألوهيته قبل «نسطور» بنحو مائة عام، وقد جرى ذلك فى المجمع المسكونى الذى عقد فى مدينة «نيقية» الواقعة اليوم على حدود تركيا، والتى صارت تعرف باسم «أزنيق» عام ٣٢٥ ميلادية.

وما جرى من الإمبراطور «قسطنطين» برأى «نسطور» كان تلبيسا، يقول نسطور مخاطبا هيبا: إبليس هو المحرك الرئيسى لكل ماجرى، وأعنى بإبليس شيطان السلطة الزمانية التى تغلب سكرتها الناس، فينازعون الرب فى سلطانه ويتمزعون فيما بينهم فيفشلون وتذهب ريحهم بددا، تغلبهم أهواؤهم فيتحامقون ويخالفون روح الديانة سعيا لامتلاك حطام الدنيا الفانية.

وبرأى «نسطور» فإن قسطنطين بعدما فرغ من تثبيت سلطته بالحرب ضد قدامى رفاقه العسكريين، أراد الظفر بالولاية الدينية على رعاياه، فدعا كل رؤوس الكنائس للمجمع المسكونى وأدار جلساته وتدخل فى الحوار اللاهوتى ثم أملى على القساوسة والأساقفة القرارات.



وبرغم أنه وصف الخلاف بين الأسقف «آريوس» وأسقف الإسكندرية فى زمانه «إسكندر» حول طبيعة المسيح بأنه تافه وسوقى وأحمق ووضيع، فإنه انتصر لأسقف الإسكندرية ليضمن قمح مصر ومحصول العنب السنوى.

وتحتشد الرواية بصور عديدة للمذابح التى جرت فى الإسكندرية، والأهوال التى لاقاها الوثنيون واليهود على أيدى المسيحيين، حين صارت المسيحية هى ديانة الامبراطورية الرومانية الرسمية وغالبية العائشين فى الإسكندرية.

ولعل مشهد سحل «هيباتيا» أستاذة الرياضيات المشهورة والجميلة أيضا فى شوارع المدينة، ثم حرقها بعد أن تمزّقت أعضاؤها وانسلخ جلدها عن لحمها، وكذلك قتل أسقف المدينة «جورج الكبادوكى» الذى مزّقته جماعة «محبى الآلام» بالسواطير فى الحى الشرقى عام ٣٦١ ميلادية، أبلغ الدلائل على الوحشية التى تعاملت بها كنيسة الإسكندرية مع مخالفيها.

أما قتل «هيباتيا» فقد جرى فى أعقاب خطبة حماسية للأسقف «كيرلس» ارتجت لها الجموع التى احتشدت لسماعها وأثارها ما قاله عن تطهير المدينة من الوثنيين واليهود كى لا يبقى فيها غير شعب الرب.

كتب «هيبا» فى رقوقه..

«سحبها بطرس من شعرها إلى وسط الشارع وحوله أتباعه من جند الرب يهللون. حاولت هيباتيا أن تقوم فرفسها أحدهم فى جنبها، فتكومت ولم تقو على الصراخ. أعادها بطرس إلى تمددها على الأرض بجذبة قوية من يده الممسكة بشعرها الطويل. الجذبة القوية انتزعت خصلات من شعرها فرماها، وأمسك شعرها بكلتا قبضتيه وسحبها خلفه، ومن خلفه أخذ جنود الرب يهتفون هتافهم ويهللون له وهو يجر ذبيحته».

وحين حاولت «أوكتافيا» إنقاذها بأن ألقت بنفسها فوقها لتحميها، اندست فيها الأذرع فرفعتها عن «هيباتيا»، وألقتها بقوة على جانب الطريق، اصطدم رأسها بالرصيف وانسحج وجهها فتلطخ بالدم والتراب، حاولت المرأة أن تقوم فضربها أحدهم على رأسها بخشبة عتية بأطرافها مسامير فترنحت المرأة وسقطت من فورها على ظهرها والدم يتفجر من أنفها وفمها ويلطخ ثوبها.

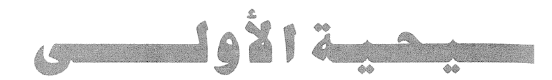
أما «هيباتيا» فقد صرخت عجوز من بعيد «اسحلوا هذه العاهرة» فانطلقت الأيدى تنزع عنها رداءها حتى صارت عارية تماما ثم أتوا بحبل خشن ولفوه حول معصمها وأخذوا يجرونها فى شوارع الإسكندرية، ثم أمسكت الجموع بأصداف البحر وراحوا ينزعون به لحمها قطعة قطعة حتى إذا بلغ نحيبها من فرط الألم عنان السماء، وحين سكنت صرخاتها، ألقوها فوق كومة كبيرة من قطع الخشب ثم أشعلوا النار.

ما يسرده «هيبا» فى رقوقه من وقائع تتجاهلها بعض الكتب التى تؤرخ للكنيسة، وتذكرها بعضها بتأويل مختلف، فالأسقف «ثيو فيلوس» أسقف الإسكندرية (٣٨٥ م) نما فى جو من

عزازيل
يوسف زيدان
القاهرة: دار الشروق - ٢٠٠٨

«عزازيل» رواية تثير تساؤلات فلسفية ودينية وتكشف الصراع بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة أنطاكية فى القرن الخامس الميلادى





العلم والفضيلة، وانتشرت المسيحية فى عهده حيث بنى عددا من الكنائس لتفى بحاجة المؤمنين فى المدينة، وأنشأ عددا كبيرا من الأديرة، واستولى على المعابد المصرية ومنها معبد السيرابيوم العظيم بالإسكندرية وحولها إلى معابد مسيحية، وهى أعمال من وجهة نظر هؤلاء المؤرخين، عظيمة وتستحق الثناء.

وأما ابن أخيه «كيرلس الأول»، فهو دارس للعلوم الطبيعية والفلسفية واللاهوت، وقد ارتقى كرسى البابوية فى العام ٤١٢ ميلادية... وفى أيامه ظهرت بدعة نسطور أسقف القسطنطينية، والتى مؤداها أن للسيد المسيح أقنومين أحدهما إنسانى والآخر إلهى، وأن السيدة العذراء ليست والدة الإله بل والدة المسيح، ودحض البابا كيرلس هذه البدعة وأثبت الإيمان الأرثوذكسى الصحيح وهو أن للسيد المسيح أقنوما واحدا إلهيا اتحد بطبيعة الإنسانية اتحادا دون اختلاط أو امتزاج أو استحالة، وأن السيدة العذراء تدعى بحق والدة الإله.

وفى الوقت الذى يظهر فيه «هيبا» الأسقف كيرلس شخصا متصلبا متشددا قاسيا رافضا لأى وجهة نظر مخالفة، يراه مؤرخو الكنيسة واحدا من الآباء الكبار الذين شيدوا مجد الكنيسة وحموها من الفتن والهزات، وحين تتطرق إلى خلافه مع نسطور تؤكد على أنه تحاور معه مرات وأرسل له عشرات الرسائل كى يتوب عن ضلاله ويثوب إلى رشده إلا أنه أبى، فما كان من كيرلس الطيب إلا العودة إلى الإمبراطور لحسم الأمر، ومن ثم فلم يكن لكيرلس ذنب فى عزل نسطور ونفيه ووفاته فى منفاه، ولم يكن فى الأمر شبهة مؤامرة أو تحزّب أو استعداء!

فى الوقت الذى يتهم فيه «نسطور» صراحة «كيرلس» بالفساد والرشوة، وبحسب ما أخبر «هيبا» فقد دفع «كيرلس» رشاوى كثيرة وقدم هدايا للجنة القضائية التى أرسلها الإمبراطور للتحقيق فيما جرى لهيباتيا.

ويعدد مؤرخو الكنيسة أشكال الاضطهاد والعذابات التى لاقاها المسيحيون على أيدى الرومان دون أن تشير بالقدر نفسه من الإفاضة إلى اضطهاد المسيحيين للوثنيين واليهود وأصحاب المعتقدات الأخرى.

وفى كثير من المواضع بالرواية يصف «هيبا» أساقفة كنيسة الإسكندرية بالقسوة والغلاظة وضيق الأفق.

أما «هيبا» نفسه فقد عانى اضطرابا نفسيا وروحيا شديدا، وشهد من الأهوال فى حياته ما زاد نفسه حيرة وهزّ إيمانه وزعزع عقيدته، وهى حيرة لازمته حتى نهاية حياته.

جاء «هيبا» وهو الاسم الكنسى الذى اختاره صاحب الرقوق لنفسه عقب خروجه من الإسكندرية - وهو كما نلاحظ نصف اسم الأستاذة الوثنية التى سحلها المسيحيون فى شوارع المدينة والتى هام بها هيبا - من بلدة فى جنوب مدينة أسوان فى صعيد مصر، وتلقى تعليمه الأولى والكنسى فى نجع حمادى وأخميم، قبل أن يرتحل إلى الإسكندرية المقر البابوى للأرثوذكسية والتى كانت مقصدا لكل طالب علم وباحث فى شئون الديانة، وكان هدفه أن يواصل دراسته للطب الذى نبغ فيه، فقرأ ماكتبه أبقراط وجالينوس وغيرهما فى فن العلاج والتداوى وحفظه عن ظهر قلب، وأنهى حياته فى صومعة بدير على أطراف مدينة حلب التى ارتحل إليها بعد سنوات قضاها فى «أورشليم» تنفيذا لنصيحة القس «نسطور» الذى التقاه لأول مرة فى هذه المدينة المقدسة حين جاءها حاجا بصحبة القس تيودور المفسر وهو من أجلاء آباء الكنيسة الأنطاكية.



ولعله من المفيد هنا أن نشير إلى «نتف» من حياة هيبا قبل ارتحاله إلى الإسكندرية، فنشأته الأولى تفسر حالات الشك والقلق والتيه التى عاناها وعاينها فى حياته...

كان «هيبا» فى التاسعة من عمره حين رأى بعينيه هذا الحدث المروّع: ذبح أبيه على أيدى جماعة من عوام المسيحيين.

كان الطفل بصحبة والده فى قارب الصيد الذى يملكه سعيا للرزق بالقرب من جزيرة «ألفنتين» بنيل أسوان، وقد اعتاد الأب أن يقتسم حصاد يومه من الأسماك مع الكهنة المحاصرين المتحصنين بمعبد الإله «خنوم» منذ سنين متحسرين على اندثار ديانتهم مع انتشار عقيدة المسيح، حين برز فجأة مجموعة من عوام المسيحيين الذين كانوا يختبئون بين الصخور وقد أخرجوا من بين طيات ملابسهم الرثة سكاكين صدئة انهالوا بها طعنا على الصياد الفقير، هرولوا نحوه كأشباح مخيفة وسحبوه من قاربه وجروه على الصخور ليقتلوه طعنا بالسكاكين، كان الأب يصرخ تحت طعناتهم وكانوا هم يصرخون متهللين وهم يرددون فى نشوة: المجد ليسوع المسيح والموت لأعداء الرب.

رأى الطفل ذلك كله من مكمنه فبقى فى ذاكرته إلى الأبد، وما زاد إيلامه هو خيانة الأم، التى عرف بعدها أنها أوشت بالأب لدى قاتليه وتزوجت من أحدهم، وهى مأساة تذكرنا بتلك التى عاناها بطل شكسبير الأسطورى هاملت.

عاش الصبى فى كنف عمه، وحين بلغ الثامنة عشرة، اختار له العم خدمة الكنيسة ومهنة التداوى، ربما ليخفف عن نفسه الشقية بعض ما لاقاه فى سنى حياته المبكرة.

فى الإسكندرية سيلتقى «هيبا» مع «أوكتافيا» وهى امرأة من الوثنيين كانت تقيم بمنزل أحد التجار الصقليين الأثرياء، تولاها برعايته واتخذها ابنة له بعد ما عانته فى حياتها، وأما هى فقد هامت بـ «هيبا» عشقا، إذ كانت تنتظره وفقا لنبوءة عرافة عجوز عند البحر، وأما هو فقد استمتع معها «بالخطيئة» واكتشف رجولته للمرة الأولى، وفى لحظة المكاشفة حين قالت له أن رهبان الإسكندرية يقتلون الناس ببركات الأسقف «ثيوفيلوس» الممسوس وخليفته «كيرلس» الأشد هوسا، اعترف لها أنه راهب مسيحى فصرخت فى وجهه بعد أن تبدلت قسماتها وانقلب عشقها إلى كراهية هادرة: اخرج من بيتى يا حقير، اخرج يا سافل.

يظهر «عزازيل» فى كثير من مواضع الرواية، و«عزازيل» هو إبليس أو الشيطان الذى يوعز إليه بارتكاب الخطايا ويجمّل فى عينيه المعاصى. يتبدى فى مجادلات «هيبا» القلقة مع نفسه، ومجسدا فى هيئة أشخاص يصادفهم فى مسيرة حياته المليئة بالعذابات والمآسى، وسنلاحظ أن رحلة «هيبا» إلى اليقين لم تصل أبدا إلى منتهاها، فبقى دائما فى دوائر الشك والقلق والريبة حتى حط الجسد رحاله.

يوسف زيدان
عزازيل
رواية
دار الشروق

يتساءل «هيبا» الذى اختار حياة الرهبنة: هل أخرج غدا صباحا - يقصد من الدير - ولا أعود قط؟ لست على كل حال معتقلا بين هذه الجدران، ما معنى بقائى هنا، لقد بدأ المسيح يسوع بشارته العظمى بين الناس، لا وسط الجدران والرهبان والقسوس، كانت حوله حياة حقيقية، فلماذا نموت نحن قبل أن نموت؟.

وأرجو أن نلاحظ أن الرهبنة اختراع أصيل للكنيسة المصرية، وحين يقرر الشخص أن يترهبن فإنه يودع الدنيا بكل ما فيها ويختار لنفسه اسما غير الذى عرف به فيها، دلالة على نهاية كل ما يربطه بالحياة الفانية، فهل من يتحدث هنا هو الراوى «هيبا» صاحب الرقوق، أم المترجم، أم المؤلف نفسه؟

من حيرة «هيبا» نقرأ قوله: نظرت إلى الثوب الممزق فى تمثال يسوع، ثم إلى الرداء الموشى للأسقف «كيرلس»، ملابس يسوع أسمال بالية ممزقة عن صدره ومعظم أعضائه، وملابس الأسقف محلاة بخيوط ذهبية تغطيه كله وبالكاد تظهر وجهه، يد يسوع فارغة من حطام دنيانا، وفى يد الأسقف صولجان أظنه من شدة بريقه مصنوعا من الذهب الخالص، فوق رأس يسوع أشواك تاج الالام وعلى رأس الأسقف تاج الأسقفية الذهبى البراق، بدا لى يسوع مستسلما وهو يتقبل ضحيته بنفسه على صليب الفداء، وبدا لى «كيرلس» مقبلا على الإمساك بأطراف السموات والأرض.

وبعدما شاهد «هيبا» بنفسه ماجرى لـ«هيباتيا» انتزع الصليب الذى كان معلقا فى عنقه وألقاه على الأرض... «أحسست براحة مفاجئة حين انتزعت الصليب عن عنقى وتركته يسقط على الأرض».

وحين يسأل «نسطور» عن التناقضات بين ديانتهم القائمة على الفداء والمحبة والأفعال التى تجرى باسم المسيح فى شوارع الإسكندرية يقول له «نسطور»: يا هيبا ما يجرى فى الإسكندرية لاشأن للديانة به، إن أو ل دم أريق فى هذه المدينة بعد انتهاء زمن الاضطهاد الوثنى لأهل ديانتنا كان دما مسيحيا أراقته أياد مسيحية، فقد قتل الإسكندرانيون قبل خمسين سنة أسقف مدينتهم «جورجيوس» لأنه كان يوافق على بعض آراء «آريوس» السكندرى، وقتل الناس باسم الدين لا يجعله دينا، إنها الدنيا التى ورثها «ثيوفيلوس» وأورثها من بعده ابن اخته «كيرلس»، فهم أهل سلطان لا أصحاب إيمان، أهل دنيوية لا محبة دينية.

ومن حيرته هذه النوعية من الأسئلة التى تبرهن على غياب اليقين أو تشويشه، يتساءل «هيبا»: من الذى كان موجودا قبل وجود الإنسان على الأرض، الله، الملائكة، الشيطان، ماذا كانوا جميعا يفعلون قبل وجودنا وانشغالنا بهم؟

ويسأل: ما الأرثوذكسية، أهى ما يقررونه فى الإسكندرية أم ما يعتقدونه فى أنطاكية، هل هى إيمان الآباء الأولين الأتقياء المقدسين، أم هى الاعتقادات الوثنية التى فتك أهلها بآباء أولين، صاروا مع الأيام أتقياء ومقدسين؟

ولا يفوت «عزازيل» أن يشاكسه فى حالات مثل تلك: أنت قلق يا «هيبا»، مما فيك، وتعرف أنك ستفقد «مرتا»، مثلما فقدت من قبل ما كان لك: حلم النبوغ فى الطب، الأمل فى إدراك سر الديانة، الغرام بأوكتافيا، الولع بهيباتيا، الاطمئنان بالغفلة، الإيمان بالخرافات.

وأما «مرتا» فهى فتاة فى العشرين من عمرها عشقها «هيبا» وقت أن كان راهبا فى أحد الأديرة بأطراف حلب، وكان وقتها جاوز الأربعين من عمره، واقترف معها الخطية وحين طالبته بأن يتزوجها رفض بحجة أن ذلك محظور فى ديانة المسيح... «ففى إنجيل متى الرسول مكتوب: من يتزوج مطلقة فهو يزنى». فترد عليه «مرتا»: وما الذى كان بيننا فى الكوخ بالأمس، ألم نكن نزنى؟

وقد أدرك «هيبا» فى أخريات أيامه ماتعانيه روحه ونفسه القلقة، يقول مخاطبا نفسه: لم أر شيئا أبدا من داخله، أنا أطوف دوما بظواهر الأشياء ولا أغوص فيها(...) كل ما فىَ ملتبس، عمادى، رهبنتى، إيمانى، أشعارى، معارفى الطبية، محبتى لمرتا، أنا التباس فى التباس، والالتباس نقيض الإيمان، مثلما ابليس نقيض الله.

أما الذريعة التى يقدمها المؤلف لمناوئيه المحتملين من أبناء الكنيسة - وهى ذاتها درعه الواقى يدفع به أذى من سيخلطون حتما بين الراوى وبينه - أن الراهب «هيبا» نفسه ليس نموذجا لصفاء الإيمان ونقاء العقيدة، فسيرته التى تحكيها رقائقه المفترضة، تكشف عن إنسان موغل فى الإثم مرصع بالخطايا، ومن ثم فإن أقواله وأفعاله وترهاته وظنونه وآراءه ومعتقداته وضلالاته، هى من طبائع شخص اختار الدنيا بما فيها، وليس راهبا هجرها وودع زخارفها، وهى حجة - وحيلة - مقنعة كما نرى. ■



ماذا فعل الأساتذة الكبار؟

محمود محمد شاكر

أتلفت اليوم إلى ما أشفقت منه قديمًا من فعل الأساتذة الكبار! لقد ذهبوا بعد أن تركوا، من حيث أرادوا أو لم يريدوا، حياة أدبية وثقافية قد فسدت فسادًا وبيلاً على مدى نصف قرن، وتجددت الأساليب وتنوعت، وصار «السطو» على أعمال الناس أمرًا مألوفًا غير مستنكر، يمشى فى الناس طليقًا عليه طيلسان «البحث العلمى» و«عالمية الثقافة» و«الثقافة الإنسانية»، وإن لم يكن محصوله إلا ترديدًا لقضايا غريبة، صاغها غرباء صياغة مطابقة لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم فى كل قضية، واختلط الحابل بالنابل، قل ذلك فى الأدب والفلسفة والتاريخ والفن أو ما شئت، فإنه صادق صدقًا لا يتخلف. فالأديب منا مصور بقلم غيره، والفيلسوف منا مفكر بعقل سواه، والمؤرخ منا ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه، والفنان منا نابض قلبه بنبض أجنبى عن تراث فنه.

وأما الثرثرة والاستخفاف، فحدث ولا حرج. فالصبى الكبير يهزأ مزهوًا بالخليل وسيبويه وفلان وفلان، ولو بُعث أحدهم من مرقده، ثم نظر إليه نظرة دون أن يتكلم، لألجمه العرق، ولصار لسانه مضغة لا تتلجلج بين فكيه، من الهيبة وحدها، لا من علمه الذى يستخف به ويهزأ.

والله المستعان على كل بلية، وهو المسئول أن يكشفها، وهو كاشفها بمشيئته، رحمة بأمة مسكينة، هؤلاء ذنوبها كانوا، وأشباه لهم سبقوا، وغفرانك اللهم.



تحريم السياسة وتجريم الصحافة

صلاح الدين حافظ

بين الصحافة والسياسة علاقة مركبة فيها تنافر وتلاق، تداخل وتباعد، صداقة وعداوة، استغلال واستغلال مضاد...

هكذا يبدو الأمر من فوق السطح، لكنه يتضح بشكل مغاير إذا غصنا فى الأعماق، حيث التداخل بين الصحافة والسياسة أقوى وأعمق، وحيث التلاقى يتصاعد إلى درجة التحالف، وحيث يتقاسم الاثنان الغُنم والغُرم بدرجة من الدرجات.

الصحافة فى جوهرها تشتغل بالسياسة، والسياسة من ناحيتها تمارس الصحافة، والمعنى أن الصحفيين سياسيون بالضرورة، والسياسيين صحفيون بحكم العمل..

ربما تكون هذه هى الصورة البراقة للصحافة والسياسة فى بلاد بعيدة، أصبحنا نسميها بلاداً ديموقراطية، تتنفس بحرية فتتقدم، تحترم الإنسان وتقدره فيبدع، وتعرف أن السياسة عمل يومى، مثلما أن الصحافة تنفس طبيعى.. وضرورى..

أما فى بلادنا فالوضع مختلف، بل هو مناقض، لأن العمل بالسياسة مقصور على نخبة منتقاة، تدير الحكم وتصنع القرار، وتحتكر السلطة وتدعى الحكمة، ثم تستغل فتثرى وتفسد وتستبد، دون خوف من محاسبة أو مساءلة، ولأن الاشتغال بالصحافة مخاطرة غير مأمونة العواقب، تورد صاحبها موارد التهلكة، إن أخذ الأمور بجدية وصدق وأمانة.

ولذلك رأينا كيف استعبدت السلطة السياسية الصحافة، واحتكرتها سلاحاً من أسلحة الدفاع عن نفوذها وهيبتها وسلطانها، وكيف استنامت الصحافة إلى حد التلذذ بالتبعية للسلطة السياسية، والعمل فى البلاط الحاكم بكل التفانى..

بالطبع ليست هذه قاعدة عامة، فثمة استثناءات عديدة، وجهود شريفة لتقنين العلاقة بين الصحافة الحرة والسلطة السياسية، وهى جهود يشهد بها تاريخ الصحافة فى بلادنا بكل اعتزاز، حتى لو أدى صراع الإرادات إلى تعثر هذه الجهود فى فترات مختلفة لأسباب مختلفة...

وبالطبع أيضا فإن العلاقة المركبة للصحافة ليست مقصورة على السلطة السياسية، ولكن طبيعة المهنة ورسالتها السامية، تدق جذور علاقة الصحافة بالمجتمع بمختلف فئاته وتياراته وطبقاته، تجاوزاً حتى لاحتكار النخبة الحاكمة للسلطة السياسية..

وبقدر نزوع الصحافة للتحرر والاستقلال، بقدر حدة صدامها مع هذه السلطة السياسية، بقدر ارتباطها الوثيق بالمجتمع بتعدد تياراته وتوجهاته المتطلعة دائما للتحرر والتقدم عبر التطور الديموقراطى السليم، ومن خلال التنفس بحرية، وهو حق من حقوق الإنسان الطبيعية.

وقد أدى خضوع الصحافة لاحتكار السلطة السياسية الحاكمة، إلى ازدهار الاستبداد والفساد، وأدى بالمقابل ارتباط الصحافة الأخرى بالمجتمع إلى صعود المنحنى الديموقراطى، سواء فى الممارسة السياسية أو فى العمل الصحفى.

ومن حسن حظ مصر تحديداً، أنها دائمة الارتعاش الحيوى والنزوع الطبيعى للحرية، بفضل خصوبتها الحيوية العالية، إذ بقدر ما فيها من تركيز للسلطة عند القمة، واحتكار للرأى عبر الصحافة بشكل أساسى، فإن فيها عند القاعدة اتساعاً عريضاً من تنوع العمل السياسى وحرية الرأى والصحافة، بما يمثل وجهاً من وجوه التناقض إن شئت، وبما يمثل حيوية متمردة إن أردت.

وربما هذا ما يفسر ذلك الصراع التاريخى، بين سلطة حاكمة تعمل على إقصاء الشعب عن ممارسة السياسة بحرية، والاستمتاع بصحافة حرة، وفى سبيل ذلك تفرض القيود وتقيم السدود، فتُحرِّم العمل بالسياسة وتُجرِّم الاشتغال بالصحافة، باسم القانون والنظام، وبين حركات سياسية متمردة ترفض احتكار السلطة وتقاوم الاستبداد والفساد، ومعها صحافة تؤمن بأن رسالتها الحقيقية هى محاربة الاستبداد ومقاومة الفساد، وخدمة الشعب، قبل خدمة الحاكم، حتى لو فرض عليها التحريم والتجريم..

وقد أصبح التاريخ يجرى ضد الاستبداد والفساد فى هذا العالم، وليس فى بلادنا فقط، لأسباب عديدة، أهمها بالطبع ذلك الشوق الإنسانى الغلاب للحرية والتطور والتقدم بكل معانيه واتجاهاته السياسية والثقافية والإعلامية والاقتصادية والاجتماعية..

ولقد جاءت ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال الحديثة، لتصنع المعجزات فى هذا المجال، باعتبارها الثورة التى قلبت الأوضاع وغيرت المفاهيم، وقدمت للبشرية أسلوبا جديداً للتواصل والتعارف والاحتكاك وتبادل المعارف والخبرات والثقافات..

ورغم أن الشعب المصرى والشعوب العربية عامة، ما زالت فى مؤخرة دول العالم من حيث الاستفادة الحقيقية والاستغلال الأمثل لمخترعات ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال، إلا أن الموج الهادر من حولنا قد أجبر نظمنا الحاكمة وشعوبنا المحكومة على الإنصات والاستماع، ثم فتح النوافذ لرؤية ما يجرى خارج السدود المقامة والحدود التى كانت حتى الأمس القريب مغلقة، فإذا ما يجرى من ثورة علمية تكنولوجية معلوماتية يفوق الخيال..

ولم يعد الأمر مجرد أقمار صناعية سابحة فى الفضاء ترصد وتنقل وتصور وتحلل، ولم يعد مجرد فضائيات تليفزيونية تنقل الأحداث والحروب على الطبيعة من أرض المعارك مباشرة، ولم يعد مجرد الاستماع إلى أخبار العالم من أقصاه إلى أقصاه بسرعة فائقة، إنما الأمر تجاوز ذلك فى اتجاهين مؤثرين..

الاتجاه الأول: هو هذا التقدم التقنى الهائل فى تطوير وسائل الاتصال الأحدث، مثل الكمبيوتر والتليفون المحمول وشبكة المعلومات الدولية الإنترنت وسهولة استخدامها فى نشر الأخبار والأفكار... وطبقا للإحصاءات الدولية المنشورة، فإن منتصف عام ٢٠٠٦ على سبيل المثال، شهد استخدام أكثر من مليار من سكان العالم للإنترنت، وشهد استخدام مليارى خط تليفون محمول، وأصبح ثلثا سكان الأرض يمارسون التواصل بفضل هذا المحمول، كما شهد ٣٧ مليون صفحة خاصة على الإنترنت من المدونات، ويتم إنشاء صفحة واحدة على الإنترنت كل ثانية...

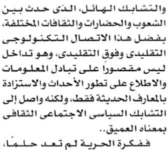
فإذا أضفنا هذه المستحدثات التكنولوجية، فوق التقليدية، إلى شبكات التليفزيون والإذاعة والصحف ووكالات الأنباء التقليدية، التى تستخدم الأقمار الصناعية، لتبين لنا مدى اتساع دوائر الاتصال والتواصل بين البشر عامة فى هذا الكون، بما يكسر كل قواعد الرقابة والقيود، ويتعدى الحدود والسدود، ويتجاوز حتى التحريم والتجريم، ويعيد رسم فلسفة القيود، فيعكس اتجاهها، من فرض النظم الحاكمة للقيود على الشعوب لحماية الاستبداد والفساد، إلى فرض منجزات هذه التكنولوجيا المعلوماتية الجديدة للقيود على استبداد النظم الحاكمة وفسادها..

أما الاتجاه الثانى: فيتمثل فى هذا التداخل

تحريم السياسة وتجريم الصحافة
صلاح الدين حافظ
القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٨

بقدر نزوع الصحافة للتحرر والاستقلال، بقدر حدة صدامها مع هذه السلطة السياسية، بقدر ارتباطها الوثيق بالمجتمع بتعدد تياراته وتوجهاته





والتشابك الهائل، الذى حدث بين الشعوب والحضارات والثقافات المختلفة، بفضل هذا الاتصال التكنولوجى التقليدى وفوق التقليدى، وهو تداخل ليس مقصوراً على تبادل المعلومات والاطلاع على تطور الأحداث والاستزادة بالمعارف الحديثة فقط، ولكنه واصل إلى التشابك السياسى الاجتماعى الثقافى بمعناه العميق..

فكرة الحرية لم تعد حلماً، والديموقراطية لم تعد سراباً بعيداً، والتقدم لم يعد حكراً، فقد انتشرت عدوى الحرية وفيروس الديموقراطية بين الشعوب، وبالتالى أصبح الاستبداد مداناً والفساد مطارداً والتحريم والتجريم مكروهين على مستوى الحضارة البشرية الحديثة، حتى لو ظلت عشرات الحكومات تمارس الجرم المشهود وترتكب هذا الإثم صباح مساء..



وهكذا لم تعد السياسة فى المجتمعات الحديثة، محرمة على العمل الصحفى، لكنها بفضل منجزات ثورة المعلومات والاتصال، أصبحت مرتبطة بالعمل الصحفى والإعلامى مباشرة، ذلك أن القرارات السياسية الصادرة عن السلطة الحاكمة، تشكل محور الاهتمام للصحف ووسائل الإعلام، كلاهما لا يستغنى عن الآخر، إذ بقدر هيمنة السلطة الحاكمة على القرار، بقدر اتساع نفوذ الصحافة والإعلام وهيمنتها على الرأى العام، الذى هو السند الحقيقى لثنائية السلطة الحاكمة والصحافة والإعلام..

وللأسف فإن بعض دوائر الحكم فى بلادنا، لم تستوعب بعد هذه العلاقة الثنائية، القائمة على الارتباط والتداخل والتواصل، ولا يزال يتصرف بمنطق الزمن القديم، معتبراً أن الصحافة ووسائل الإعلام مجرد سلاح من أسلحة الحشد والتأييد والمبايعة، وهو منطق يصطدم بالضرورة، أولا مع تيار الحرية والاستقلال والإصلاح الديموقراطى فى الداخل، وثانيا مع الموجة العالمية الغلابة والسائدة بل والمتصاعدة لحظة بعد لحظة..

والخطورة أن يستمر هذا البعض المتخلف على حاله من التخلف العقلى والمعرفى والسياسى فى أبسط صوره، محتمياً بوهم قدسية المنصب ومتحصناً بفرض قوانين التحريم والتجريم، الأمر الذى يرفع وتيرة الصدام الحتمى، أكثر مما هو مرتفع!!

وتيرة الصدام ارتفعت فى مصر المحروسة على مدى عامى ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦، سياسيا وصحفيا، وعكست وجهاً سلبياً من أوجه تعامل السلطة الحاكمة مع فئات معينة من الشعب، وأظهرت صورة سيئة من صور العلاقة بين الحكام والمحكومين، فشاعت سلبياتها فى العالم كله، بفضل الصحف والإعلام التقليدى وفوق التقليدى، وكانت النتيجة هى السوء بعينه..

فهاهى حكومة تمارس أشد أنواع العنف مع معارضيها من المتظاهرين فى الشارع المصرى، الذين أبدوا رأيا مخالفا فى شئون سياسية محددة، فى وقت اشتدت فيه الضغوط الاقتصادية والاجتماعية، وتعددت صور الفساد، واتسعت مساحات الفقر والبطالة، وتصاعد الاحتقان السياسى بسبب تعطل قنوات التواصل بين الحاكم والمحكوم، وانقطاع حبال الحوار سواء السياسى أو الصحفى، برغم كثرة الحديث المعلن عن التواصل والحوار..

لكن عنف الأمن الذى ووجهت به التحركات فى الشارع المصرى، الداعية للديموقراطية والمطالبة بإطلاق حرية الصحافة، خلق أوضاعاً جديدة، تنبئ، إن استمرت، بتصعيد الاحتقان وصولا للصدام الشامل.. حيث احتمت الحكومة بقوانين عديدة أهمها بالطبع قانون الطوارئ، لفرض التحريم والتجريم على المعارضين، واحتمى المعارضون بالشارع أملا فى تحرك شعبى أوسع، والنتيجة هى انسداد فى الشرايين وتوتر فى الأوضاع والعلاقات أكثر مما كان......

وطبقا لتوصيف الشبكة العربية لحقوق الإنسان، فإن الأمر بالغ الخطورة، فأن تكون معارضاً سياسياً أو ناشطاً حقوقياً أو صحفياً مناهضاً للفساد، فهذا أمر لا تكاد دولة فى العالم تخلو منه، ومهما كانت حدة الاختلاف أو الخلاف الذى ينشأ بين المؤسسات وأجهزة الدولة هنا أو هناك، فإن الاختلاف يعتبر شيئاً صحياً وعلامة من العلامات الجوهرية على الإصلاح السياسى والاجتماعى والاقتصادى، حيث تسهم حرية الرأى والتعبير وحرية الصحافة وحركة المجتمع المدنى، فى كشف مواطن الفساد، وتقديم حلول بديلة أو طرح رؤى أفضل لعلاج الأزمات..

ومن المؤشرات المهمة التى تحدد مستوى تقدم وديموقراطية أى دولة، هو كيفية التعامل مع خصومها السياسيين، وطريقة إدارتها لهذه الخصومة والمساحة المتاحة لحرية الرأى والتعبير...

والقبول بالحدة فى نقد الخصوم السياسيين والتى قد تصل إلى الطعن فيهم، ليس منحة يقدمها هذا الحاكم أو هذه الحكومة، بل هو حق طبيعى للشعوب فى أى دولة، وهى تمنحه بدورها للصحفيين والنشطاء لاستخدامه لصالح الشعوب، ويستوى هنا وضع كل الدول وكل الشعوب، متقدمة أو نامية، ديموقراطية أو مستبدة، علمانية أو دينية..

وطبقا لحكم محكمة النقض الشهير فى ١٩٣٤/١١/٦، فإن امن المتفق عليه فى جميع البلاد الدستورية أن الطعن فى الخصوم السياسيين يجوز قبوله بشكل أعم وأوسع من الطعن فى موظف معين بالذات، وأن الشخص الذى يرشح نفسه للنيابة عن البلاد، يتعرض عن علم لأن يرى كل أعماله هدفاً للطعن والانتقاد، وأن المناقشات العمومية، مهما بلغت من الشدة فى نقد أعمال وآراء الأحزاب السياسية يكون فى مصلحة الأمة..

الله، الله على هذا الحكم التاريخى الصادر عن قضاء مصر العظيم، محصناً للرأى المخالف، ومدافعاً عن حرية الرأى والنقد والتعبير، فالنقد مهما اشتدت حدته، لا يجب أن يخضع للعقاب، أو أن يواجه بالتحريم والتجريم..

فهل يا ترى أخذت حكوماتنا المتتالية، بهذا الحكم التاريخى، الصادر عن قمة القضاء المصرى محكمة النقض، أم مارست عكسه فى معاقبة خصومها السياسيين ومطاردة الكتاب والصحفيين، ليس فقط بأحكام الحبس السالبة للحرية، ولكن أيضا بالإهانة والإذلال والضرب والسحل وانتهاك الأعراض علانية، لمجرد أنهم عبروا عن آرائهم بصراحة؟!!



على مدى شهر واحد، ظلت عوراتنا معروضة على شاشات التليفزيونات وصفحات الصحف فى العالم، ليس فقط من باب عرض ما يجرى على الساحة المصرية من تطورات سياسية وحراك شعبى صاحبه احتقان، أو احتقان أفرز حراكا، فصداما بين فئات اجتماعية تمردت على الأوضاع السياسية والاجتماعية القائمة والمعقدة، ولكن أيضا من باب التشفى فى أوضاع متدهورة لأكبر وأهم دولة عربية، وربما شماتة فيها!

فقد جاء قرار الرئيس محمد حسنى مبارك بتعديل المادة ٧٦ من الدستور بهدف تعديل طريقة انتخاب رئيس الجمهورية من نظام الاستفتاء الشعبى العام، إلى نظام الانتخاب المباشر من بين أكثر من مرشح، ليفتح باب الحراك السياسى فى اتجاهين متعارضين...

اتجاه أراد استغلال هذه الفرصة لإطلاق العنان لحراك سياسى يهدف إلى توسيع التعديل الدستورى متجاوزاً المادة ٧٦ إلى مواد أخرى، يحقق إصلاحا ديموقراطيا دستوريا حقيقيا، واتجاه آخر أراد تحويل تعديل المادة ٧٦ إلى مجرد تعديل إجرائى وشكلى، يرسخ التمسك باحتكار السلطة ويمنع تداولها ويفرض شروطا تعجيزية على المرشح للمنصب،

اللهم إلا مرشح الحزب الحاكم وهذا ما تأكد فيما بعد بتعديل ٣٤ مادة من الدستور..

وفى حين استغل أنصار الاتجاه الأول الفرصة، ونزلوا إلى الشارع متظاهرين مطالبين بإطلاق الحريات العامة والتحول نحو ديموقراطية حقيقية، وتصدر هؤلاء الصحفيون والقضاة والمحامون، وغيرهم من المهنيين والنشطاء السياسيين، مثل حركة كفاية، فضلا عن جماعة الإخوان المسلمين الذين استغلوا المناسبة لصالح أجندتهم الأيديولوجية الخاصة..

فإن الاتجاه الثانى، الممثل للحكومة وللحزب الوطنى الحاكم، دفع بقوات الأمن الكثيفة الغليظة الأيدى، لمقاومة تظاهرات الاتجاه الأول، بكل العنف المعروف وغير المعروف فى مصر، وكانت النتيجة هى صدام هائل فى الشارع، مورست فيه كل أساليب العنف من الضرب إلى السحل وصولا لخدش الحياء وانتهاك أعراض الشباب، وخصوصا الصحفيات والمحاميات علانية أمام كاميرات الصحافة والتليفزيونات المصرية والعربية والأجنبية...

وقد سجلت الهيئات الحقوقية والمنظمات الصحفية، الفترة من ٢٤ أبريل ٢٠٠٥ إلى ٢٥ مايو ٢٠٠٦، كأسوأ فترة فى تاريخ الصحافة والحياة السياسية المصرية عموما، حيث ارتفعت حالات الانتهاكات العلنية حتى وصلت إلى ٣٥ حالة مثبتة ضد حرية الرأى والتعبير، وضد حق التظاهر والمسيرات السلمية، وحيث استخدمت قوات الأمن كل أساليب الضرب والسحل والاعتقال والتعدى على أعراض المتظاهرات، وإتلاف أدوات عمل الصحفيين والمراسلين مثل كاميرات التصوير، وتمزيق ملابس النساء والتحرش الجنسى وملامسة الأعضاء الحساسة فى الشوارع، فضلا عن الاعتقال الجماعى وممارسة أشكال التعذيب فى أقسام الشرطة والمعتقلات، وتلفيق القضايا وتغليظ العقوبات والأحكام عاجلة الصدور، وخصوصا فى قضايا حبس الصحفيين، باتهامات عامة مثل تعكير الأمن العام وإثارة الفوضى وتعطيل المرور، ارتفاعا إلى تهمة الإساءة للرئيس، وهى تهمة خطيرة لأنها ببساطة تكسر هالة التقديس وحواجز التحريم، فتنتهى بأشد صور التجريم!

وبالطبع أثمر هذا المناخ المحتقن، ثمرة فاسدة ومعطوبة، فكما نجح ترزية القوانين ضعاف الكفاءة، فى إفراغ التعديل الدستورى من هدفه الرئيسى، ووضعوا صياغة تعديل المادة ٧٦ ثم تعديل ٤٣ مادة أخرى من الدستوروفق مفاهيم وأسس تتناقض مع ما هو مبتغى، فجاءت بالضبط على قدر المقاس المطلوب..

فقد حدث الشىء نفسه مع تعديل قانون السلطة القضائية من ناحية والمواد السالبة للحرية والخاصة بعقوبات الحبس فى قضايا النشر من ناحية أخرى... فعلى عكس مطالب القضاة والصحفيين وأنصار استقلال القضاء وحرية الرأى والتعبير جاءت التعديلات، لتضع إصبعها فى عيون المطالبين بالإصلاح الديموقراطى الحقيقى..

هكذا أهدرت عمداً فرصة كانت سانحة لتغيير الأوضاع ولإزالة العبوس من على الوجوه!



ورغم بعض الايجابيات فى تعديل عدد محدود من مواد قانون العقوبات وهى أربع مواد فقط، الخاصة بالحبس فى قضايا النشر وتحديد القذف والسب، فإن السلبيات الكثيرة ظلت قائمة، وهناك ١٨ مادة فى هذا القانون ما زالت جاهزة لتوقيع عقوبة الحبس فى قضايا النشر، وهناك مواد أخرى فى قانون الصحافة رقم ٩٦ لسنة ١٩٩٦، بل هناك قوانين عديدة تنص فى موادها على هذه العقوبة السالبة للحرية، مثل قانون المطبوعات وقانون الوثائق الرسمية وقانون الأحزاب السياسية وقانون المخابرات، وفوق كل ذلك يأتى بالطبع قانون الطوارئ الذى يتجاوز كل القوانين الطبيعية، بحكم ما فيه من أحكام وسلطات استثنائية.

وانظر كيف يشكل قانون الطوارئ حاجزاً مانعا أمام حرية الصحافة وحرية الرأى والتعبير، فضلا عن حرية العمل السياسى، إذ تنص المادة الثانية من هذا القانون، على اتخاذ تدابير استثنائية ضد حرية الصحافة، منها سلطة الأمر بمراقبة الصحف والرسائل والمطبوعات وجميع وسائل التعبير والدعاية والإعلان، قبل نشرها، وضبطها ومصادرتها وتعطيلها، وإغلاق أماكن طبعها، على أن تكون الرقابة على الصحف والمطبوعات ووسائل الإعلام، فى يد وزارة الداخلية!!

وليست هذه إلا عينات من نصوص قانونية قائمة ومعمول بها، يتضاءل أمامها من حيث العدد والتأثير، ما جرى من تعديل بضع مواد فى قانون العقوبات وإلغاء عقوبة الحبس الواردة فيها بالنسبة لقضايا النشر، وفقا لما وافق عليه مجلس الشعب يوم العاشر من يوليو ٢٠٠٦.

وبقدر ما جاء هذا التعديل منقوصاً وجزئيًا، تاركا وراءه ترسانة أخرى من النصوص تعاقب وتحبس وتعرقل حرية الصحافة والرأى والتعبير، بقدر ما جاء صادماً، ليس فقط للصحفيين والكتاب الذين جاهدوا طويلا وكثيرا لإلغاء كل العقوبات السالبة للحرية فى قضايا النشر، بل لكل القوى الديموقراطية والنشطاء السياسيين وتجمعات المثقفين..

وليس سراً أنه بقدر ما كان طموح الصحفيين والقوى السياسية المختلفة، هو تحرير الصحافة وحرية الرأى والتعبير، من هذه القيود القانونية المتشددة ومن العقوبات المغلظة، تطلعاً لعهد ديموقراطى جديد واعد، بقدر ما أن القوى المتشددة والنافذة فى دوائر الحكم، جاهدت دون تحقيق ذلك، انطلاقاً من وجهة نظر ضيقة تقول إن ما يسمى حرية صحافة قد تجاوز الحدود وتخطى القوانين، وها هو نظام الحكم ممثلا فى رئيس الدولة ذاته، يتعرض لنقد جارح ولهجوم قاسٍ على صفحات بعض الصحف، بل وفى المظاهرات وما تحمله من لافتات مسيئة وما توزعه من منشورات ممتلئة بالسب والقذف، مما يعد كسراً للمحرمات وتجاوزاً للمقدسات، وخصوصا تلك التى تتعلق برئيس الدولة وسياساته وسلطاته وهيبة منصبه..

وفى الوقت الذى لا نقبل فيه التجاوز والتجريح الشخصى والإساءة غير المبررة لمكانة وهيبة رئيس الدولة، بل لأى مواطن، فإن فقهاء السلطان وحاشية السلطة، استغلوا جنوح بعض الأقلام فى صحيفة أو صحيفتين خاصتين، للتمسك بكل عناصر تحكم الدولة وأجهزتها فى الصحافة ووسائل الإعلام، ولعرقلة المحاولات الجادة لإطلاق حرية الصحافة والتعبير وفق المعايير الدولية السائدة، بل ولإجهاض وعد الرئيس حسنى مبارك الذى أطلقه فى فبراير ٢٠٠٤ بإلغاء عقوبات الحبس فى قضايا النشر..

ولم يكن هذا الموقف المتعنت مفاجئا لنا أو لغيرنا، بل كان منتظراً ومتوقعاً من البيروقراطية المصرية المتحجرة، التى نخر فيها سوس الفساد، وتشبعت عبر العهود بعبادة الاستبداد، وأبدعت فى إقامة طقوس التقديس من حول المسئول الأكبر، فحولته إلى إله أو نصف إله، تنافقه وهى تعبده، وتقهر من ينقده وتقتل من يخالفه، وتقيم من حوله سياجاً من التحريم، لا يسمح لأحد باجتيازه أو حتى الاقتراب منه، وإلا حق عليه التجريم والعقاب..

ولقد مدت هذه البيروقراطية شرايين سمومها، المعادية للحرية أساسا، إلى الأحزاب والقوى السياسية المختلفة، مثلما تغلغلت فى الصحافة والإعلام، واغتالت بالتالى وفى ضربة واحدة، حرية العمل السياسى، وحرية الصحافة، ووجدت فى الميدانين السياسى والصحفى، مجالا خصبًا لتجنيد الحلفاء والأصدقاء، وتجييش المفسرين والمبررين، واستقطاب المشتاقين والمتطلعين، فكافأتهم بالمناصب دون كفاءة، وبالثروات دون جهد، وبالوجاهة دون مبرر، وبالسلطة دون حدود، فى ظل تحالف للفساد والاستبداد، طفح بميكروباته السامة على الصحافة والسياسة وعلى المجتمع بصفة عامة، فزاد من درجات الاحتقان ومراتب الإحباط العام...

ولم يكن غريبا إذن أن تتسع حلقات الدراويش، وأن يزداد عدد حملة المباخر، وأن تتكاتف الجهود عبر النشاطات السياسية، ومن خلال الصحف ووسائل الإعلام، لتكريس تأليه الحاكم الفرد، وتقديسه، حتى والدائرة الخانقة تضيق من حوله، لكى لا يسمع إلا صوت المبررين، ولا يسمح إلا بطرب المنافقين، ولا يرى إلا أشباح الحاشية وانتهازية المستغلين ونفوذ مراكز القوى..



فى مثل هذا المناخ الخانق... كيف تتنفس، وكيف تكتب ولمن؟ فما جدوى الكتابة، ولماذا تحلم بالحرية وتتطلع إلى الديموقراطية، بينما صخب الدفوف من حولك يصم الآذان ويشل الأعصاب ويوجع القلب... قلب الوطن وقلب الإنسان؟

رغم كل ذلك، لا أظن أن الدائرة الجهنمية، ستظل دائرة إلى الأبد، فحتى الجبال تزول، والأرض تبيد والناس تموت، ويأتى خلق جديد، بفكر جديد وسلوك مغاير ونهوض مختلف، يشق صدر الزمان، بحثًا عن وطن الحرية، وعن حرية الوطن..

وعليك أن تختار وتحدد موقفك، إما عبداً فى الدائرة الجهنمية، وإما سيدا فى وطن الحرية..

والقابض على شرفه كالقابض على الجمر، خصوصا فى زمن تصطك فيه المصالح وتصطرع الثروات، بأكثر مما تفعل الأفكار والرؤى والإرادات..

وأمامك أن تختار المكان والمكانة...

موافق أو منافق، ناقد أو ناقم، متورط أو متواطئ، متبرع أو ممتنع، بارع أو ضائع، سيد أو خادم، مشاكس أو موالٍ، مفسر أو مبرر، مشاغب أو مناسب، مكابر أو مغامر، مثابر أو مقامر !! ■

تعقيبات

عودة إلى: رجاء وأدونيس

جميل حسن

.... رئيس التحرير المحترم

إنَّ لمجلتكم «وجهات نظر» قراءها المحترمين فى هذه المحافظة بالذات. وإنَّ من لا يستطيع شراءها يستعيرها من صديق أيسر حالاً. وقد دُهش كلُّ من أعرف منهم، وفوجئوا بما قرأوا للأستاذ حلمى محمد القاعود، إذ (ما هكذا تورد يا سعد الإبل).

لقد كتبت هذا التعقيب القصير، لا غيرة على العلويين فأنا لست وكيلهم القانونى، ومستوى الفكرى والأدبى والأخلاقى ليس هناك. لكن لأجلو بعض الحقائق، وأؤكد لو أن الحيف وقع على غيرهم، لفعلتُ ما فعلته الآن، إذ يكفى ما فعله ويفعله معنا نظامنا العربى المتهافت.

ومن باب حرصى على مجلتكم الوقورة، وسمعة الأديب الكبير المرحوم رجاء النقاش أتمنى أن يُنشر هذا التعقيب فى أقرب عدد ممكن من المجلة. وإنى لأزعم أن ذلك سيُسهم فى تثبيت مصداقيتها التى كانت لها هنا على الدوام.

وتقبلوا منى أفضل تحية وأكرم سلام.

■■ قرأت فى عدد أبريل ٢٠٠٨م مقالة للأستاذ حلمى محمد القاعود بعنوان (رجاء وأدونيس جدلية العروبة والشعوبية)، مقبلاً عليها برغبة أكيدة لسببين اثنين. أولهما أنها منشورة فى مجلة «وجهات نظر»: هذه المجلة التى أحترمها لمستواها الفكرى وتوجهها السليم، وإنى أواظب على قراءتها منذ صدورها. والسبب الثانى أنى توسمت أن أقرأ للكاتب الراحل المرحوم رجاء النقاش شيئاً جديداً يعزز لى رأيى بأدونيس. ولكننى - للأسف - صدمت بالسببين.

وقبل أن أقول لماذا، أقول إنى أعارض أدونيس - وهو من جيلى، وابن منطقتى - منذ زمن طويل، لكن لغير الأسباب التى ذكرها الكاتب. فعندما كان أدونيس ينتمى إلى(الحزب السورى القومى) كنت أنتمى إلى جيل التأسيس فى حزب البعث العربى. وكنا نتهم - نحن البعثيين - الحزب القومى السورى بالإقليمية الضيقة، لأننا كنا نعى أننا لو اتهمناه بالشعوبية للأسباب التى أثارها الكاتب لكانت حجتنا داحضة، فالفينيقيون الذين جعل الكاتب غاية الحزب العودة إلى أمجادهم، هم أحد شعوب المنطقة القدامى الذين كان من تراثهم آثار حضارية تناقلتها المنطقة مع حضارات شعوبها الأخرى. ولا نسمح للسوريين القوميين أن يستأثروا بهم، فحضارتهم أحد أهم روافد الحضارة العربية. وكنا نتهم الحزب اتهامات شتى ليس من بينها الشعوبية. وما أظن أحداً من حقه أن يزايد على فكر البعث العربى بالقضية القومية. والمرحوم الكاتب الثقة رجاء النقاش كان صديقاً حميماً للكثير من شبابنا الأوائل (وأرجو ألا يعيدنا الأخ الكاتب إلى مماحكات السياسة المتأخرة فإن لها حديثاً يطول).

وبدل أن أقرأ لرجاء النقاش قرأت لحلمى محمد القاعود ما يشوه فكر النقاش ولا يسىء إلى أدونيس، وعندما يقرأ أدونيس هذه المقالة سوف يسر - فيما أظن - لأنه لم ينقد بما يجب أن ينقد به، فقد غيبه الكاتب ليظهر (أدونيساً) آخر من اختراعه.

أدونيس يا صاحبى أخطر بكثير مما ذكرت. لكن ليس لأنه (فينيقى) ولا لأنه (علوى نصيرى) وإن هجومك عليه ذكرنى بهجوم عبدالصبور شاهين على نصر حامد أبوزيد.

(......)

نحن البعثيين القدامى (جيل التأسيس) نرى أن الفينيقيين والكنعانيين والآراميين، والبابليين والآشوريين وسواهم من الشعوب القديمة، فى الشرق الأدنى والأنباط والتدمريين فى الداخل السورى، والحميريين والسبئيين فى اليمن والفراعنة فى وادى النيل، هم جميعاً تراث المنطقة، ونرفض فى أدبنا أن يؤسس فى مصر حزب يسمى نفسه «الحزب الفرعونى» ومن أهدافه قطع الصلة مع تاريخه وحاضره العربى، كما رفضنا ونرفض أن ينشأ فى سوريا أو فى غير سوريا حزب إقليمى يسهم فى زعزعة كياننا القومى العربى ودوره الحضارى، وإلا كنا جزءاً من النظام العربى الحالى الهش الذى لا صلة له بالتاريخ ولا بالحضارة ولا حتى بالمصلحة العربية الراهنة فى أضيق حالاتها.

إننا نحمد للسيد حلمى القاعود أنه لم يلصق تهمة الحديث الطائفى بالمرحوم رجاء النقاش. لأنه يعلم لو أنه فعل لن يسلم من المؤاخذة من أقرانه أبناء جيله من المفكرين والمثقفين المصريين الكبار، فهؤلاء لا يقبلون أن يسجلوا على أنفسهم هذا السقوط. فقد قال الكاتب فى الصفحة ٢٣ من عدد المجلة المذكور ما يلى:

«بيد أن رجاء لم يشر إلى الهاجس الطائفى لدى أدونيس الذى يفسر شعره، وكل مواقفه تقريباً. فأدونيس ينتسب إلى الطائفة العلوية واسمها الصحيح أو الأصلى هو «النصيرية» ويصنفها البعض من القدامى ضمن غلاة الشيعة. وقد ادعى مؤسس الطائفة النبوة والرسالة، ويدعى «محمد بن نصير البصرى النميرى»، وعاصر ثلاثة من أئمة الشيعة، وقد أقامت فرنسا دولة للعلويين عام ١٩٢٠م، واستمرت إلى عام ١٩٣٦م. وأفكار الطائفة فيها الكثير من الغلو، واستحلال المحرمات، وصلاتهم مختلفة عن صلاة المسلمين، ويستمدون عقائدهم من الوثنيات القديمة والفلاسفة المجوس والأفلاطونية الحديثة.. وهاجس أدونيس الطائفى له صلة أو علاقة بمواقف الطائفة فى فترة الحروب الصليبية الأولى، وفترة الاستعمار الحديث.. مما حدا بابن تيمية إلى محاربتهم فى عهد الصليبيين وكتابة رسالتين عنهم».

انتهى الاقتباس. ونمسك عن الباقى لنستسمح الكاتب ونحاوره حواراً هادئاً ونقول له:

لقد جافاه الحظ ولم يوفق فيما كتب وادعى، وإن التعرض لمثله فى هذه الظروف الدقيقة يعد إسهاماً مشبوهاً فى توهية المناعة القومية إزاء الهجمة الإمبريالية الشرسة على وطننا العربى.

١ - لم يؤسس محمد بن نصير هذه الطائفة وهى أقدم منه ومن أبيه وجده. بل فى فترة من الفترات نسبت إليه. وعلى كل حال هو إنسان عربى صميم من بنى نمير. إذن. فهو ليس شعوبياً، وكان أحد تلامذة الإمام الحسن العسكرى. ولم يدع النبوة والرسالة.

٢ - أما أن أفكار الطائفة فيها الكثير من الغلو، واستحلال المحرمات، وأن صلاتهم مختلفة عن صلاة المسلمين فإننا نسأل الكاتب: من أين استقى هذه المعلومات؟

أما غلوهم فلأنهم يرون أن للإنسانية ديناً كلياً واحداً هو الإسلام فى العصر العربى. فى الوقت الذى يرى فيه غيرهم أن الإسلام منقطع الجذور عن تاريخ الدين والحضارة. ناسين أن القرآن يقول: «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» (سورة ٢٩ آية ٤٦). ويقول تعالى: «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله»



نحن أدرى يا أخى الكاتب أين هو أدونيس من الثقافة والفكر والشعر والسياسة بما لا تلامسه أنت أبداً. فهو قد قفز بعيداً فوق قوميته السورية وعلويته وكل ما وصمته به



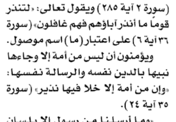
(سورة ٢ آية ٢٨٥) ويقول تعالى: «لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون» (سورة ٣٦ آية ٦) على اعتبار (ما) اسم موصول.

ويؤمنون أن ليس من أمة إلا وجاءها نبيها بالدين نفسه والرسالة نفسها: «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» (سورة ٣٥ آية ٢٤).

«وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» (سورة ١٤ آية ٤).

أما استحلال المحرمات فنقول للأخ الكاتب إن كان هناك من فئة طهرية بين المسلمين، فهم تلك الفئة (ولا نشمل العصر الحاضر، فهم كغيرهم وقعوا ضحايا العصر الأمريكي بأخلاقياته، إلا من عصم ربى).

فهم ناجون كلية من آفة اللواط أو العلاقة المثلية ويعتبرونه من السلوك الموجب لدخول جهنم. ولم تسجل على مدى التاريخ عندهم حادثة لواط معروفة. وقد كانوا يمارسون عملية عزل اجتماعى كامل على المرأة المشبوهة بسلوكها، وإنى لأذكر، وأنا صغير قبل المدرسة الابتدائية، أن امرأة عجوزاً كانت تعيش فى قريتنا قادمة من مكان لم يكن عقلنا الصغير يستوعب ولا يسأل من أين هو. وكانت تلك المرأة تمنع من المشاركة بالخبز على التنور (عجن، ورق، إشعال نار) وغيرها. ولم يكن يسمح لها بالمشاركة فى الأعمال الخيرية (أى نقل الحطب، أو نقل الماء من العين) لإقامة ولائم طعام للفقراء والجيرة فى النذور والأعياد الدينية وسواها. وأذكر أنى سألت أمى لم لا تسمحون لفلانة بمشاركتكم كانت تقول: (يا بنى.. لعنها الله. روحها خبيثة. محكى عليها). لكن لمَ تطعمونها ما دامت هكذا؟ فكانت الأم تجيب: يا بنى الحسنة جائزة على البهيمة فكيف بهذه الفقيرة المقطوعة. ذنبها على جنبها. الله يحاسبها. المهم نحن لا نسمح لها بتدنيس أعمالنا). فما رأيك بهذه الطائفة التى (تستحل المحرمات).



رجـــــاء وأدونيـــــس

جدلية "العروبة" و"الشعوبية"

وإليك . يا أخى العزيز . شيئاً من تاريخ هذه الطائفة التى رميتها بالتعاون مع الأجنبى:

أولاً: هم الذين قاوموا الصليبيين فى ولايتى طرابلس وأنطاكية لأن سكان هاتين المنطقتين كانوا آنذاك من هذه الطائفة.

ثانياً: هم الذين قاوموا الفاتح العثمانى فى معركة مرج دابق عام ١٥١٦م دفاعاً عن مدينتهم حلب وما جاورها.

ثالثاً: تقول إن الفرنسيين أقاموا لهم دولة، وتنسى ما عدا ذلك. تنسى - أو لعلك لا تعلم وفى ذلك عذرك - أن أول رصاصة أطلقت فى وجه الفرنسيين كانت من بارودة شيخ علوى مشهور ومكرمة ذكراه منذ فجر الاستقلال إلى اليوم هو المجاهد الكبير الشيخ صالح العلى الذى نظم ثورة مسلحة فى منطقة جبلية تعلو حوالى ألف متر عن سطح البحر، ضمت جغرافياً من تلكلخ على حدود لبنان الشمالية إلى النهر الكبير الشمالى فى شمالى الساحل السورى. ومن منطقة الغاب فى جوار العاصى إلى البحر الأبيض المتوسط، وجهادياً كان بين مقاتليه المجاهدين سُنّة وعلويون وعرب وأكراد وسواهم. وأن الثورة امتدت من أواخر كانون الأول ١٩١٨م حتى أواخر عام ١٩٢١ ما بعد تخلى فيصل الأول وذهابه لتسلم عرش العراق. وإن الشيخ كان شاعراً وقد أرخ كل معركة مع الفرنسيين بقصيدة مطولة ومفصلة. لم يذكر علويته فى واحدة منها. بل ذكر أنه عربى ومسلم، ويجاهد دفاعاً عن العروبة والإسلام.

وأذكر أيضاً أنه على أثر تمزيق سوريا إلى كيانات، تأصل فى منطقتنا مصطلحا (وحدوى وانفصالى) وحدوى لمن رفض الدولة المزعومة، وانفصالى لمن رضى بها وانضوى تحت لوائها. وإن أهلى وبنى قومى الأقربين كانوا معروفين من (الوطنيين الوحدويين) والشاعر الكبير نديم محمد كان من هؤلاء الذين شكلوا فريقاً مثقفاً لمقاومة تلك الدولة وشرح أهدافها للشعب. وكانت تقوم معارك بالرصاص بين الفريقين.

أدونيس يا صاحبى أخطر بكثير مما ذكرت. لكن ليس لأنه (فينيقى) ولا لأنه (علوى نصيرى) وإن هجومك عليه ذكرنى بهجوم عبدالصبور شاهين على نصر حامد أبوزيد

أما الموقف من إسرائيل والاستعمار الحديث فلا أظن أن الكاتب يعوزنا لنخوض فيه، فمصر العربية مبتلاة به كما هو غيرها مبتلى، ولا أحاشى أحداً. ومهما يكن فإن سوريا لم تقم علاقات لها مع إسرائيل حتى الآن.

وأما تهمة الشعوبية والمجوسية فتلك بضاعة باخت لتقادمها ولم يعد أحد يتعامل بها.

لقد تحاشيت - على ما يبدو - أن تذكر لأدونيس مؤتمر «غرناطة» الشهير، لأنك ستدين به مع أدونيس المرحوم لطفى الخولى رئيس تحرير مجلة «الطليعة» والمرحوم إدوارد سعيد المفكر الفلسطينى المعروف. فمنهم من حضر مؤتمر غرناطة ومن حضر اجتماع كوبنهاجن السرى مع من زُعم أنهم مثقفون يهود.

نحن أدرى يا أخى الكاتب أين هو أدونيس من الثقافة والفكر والشعر والسياسة (...). فهو قد قفز بعيداً فوق قوميته السورية وعلويته وكل ما وصمته به. والحقيقة أقول لك آسفاً أنك أسأت إلى طهرية رجاء النقاش دون أن تدرى، وكذلك إلى مجلة «وجهات نظر» التى هى فى مستوى رفيع فى نظر الكثيرين من قرائها المقبلين عليها بكل احترام من سوريا.

أما صلاتهم، (...)، فإنى أقول لك: إذا كنت غيوراً على الإسلام وعباداته فكلف نفسك وتفضل زر قراهم التى ملئت جوامع بعد أن زال عنهم الخوف وانظر واستمع إلى صلاتهم، واحضر صلواتهم على الجنائز، حيث يقام معظمها على قبر المتوفى قبل دفنه ويحضرها ويسمعها كل أصدقاء ذوى الميت من سنة ومسيحيين وغيرهما. وأنا ضامن بأنك ستراجع نفسك. ■

الوهابيـــة.. رؤيـــة غربيـــة

بشــيــر مــوســى نــافــع

■ منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، تضاعف عدد الأعمال المنشورة حول الحركة الوهابية والعربية السعودية. ولكن هذا الكتاب بنى على جهد بحثى مميز، كتب بلغة واضحة، وهو عمل أكاديمى من الطراز الأول، بعيد تماماً عن أعمال الإثارة التى أغرقت حقل دراسات الإسلام والشرق الأوسط مؤخراً. وهذا عمل بالغ الطموح، يحاول تغطية التاريخ السياسى والفكرى للحركة السعودية - الوهابية منذ منتصف القرن الثامن عشر إلى الوقت الحاضر. بعض من التاريخ الذى يستعرضه كومنز استعرض مراراً من قبل، بينما يعتبر البعض الآخر جديداً ويمثل إضافة هامة؛ بعض جوانب التحليل الذى يقدمه يقف على قواعد صلبة، والبعض الآخر ليس بالضرورة كذلك.

يبدأ تاريخ الحركة التى تعرف الآن على نطاق واسع باسم «الحركة الوهابية» مع العالم الإصلاحى، الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٢-١٧٩٣). ولد الشيخ لأسرة من العلماء فى مدينة العيينة النجدية، شمالى الجزيرة العربية؛ وقد تلقى تعليمه فى حلقات علماء مدينته، كما فى المدينة المنورة والبصرة. ويبدو أن نزعته الإصلاحية المبكرة قد وجدت معارضة من والده، الذى كان آنذاك قاضياً حنبلياً فى مدينة حريملاء؛ ولكن ما إن توفى الوالد، حتى صدع الشيخ بدعوته. إن الأفكار الأساسية التى استندت إليها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وضعت فى «كتاب التوحيد»، الذى كتبه بعد العودة من رحلتيه إلى المدينة والبصرة. يؤكد محمد بن عبد الوهاب فى كتابه على أن عقيدة التوحيد، مركز الإيمان الإسلامى، لا تقتصر على الاعتقاد بأن الله هو الخالق، بل أيضاً أن الله هو الحاكم والمسيطر. فكفار مكة، مثلاً، لم ينكروا ربوبية الله وخلقه للكون، ولكنهم رفضوا الانصياع لحاكمية الله وتشريعه. ويقول الشيخ، أنه عندما تكون عبادة المسلمين موجهة إلى الله وحده، عندما لا يشركون معه أية جهة أخرى، عندما تنتظم حياتهم على أساس أوامر الله ونواهيه، يكونون مسلمين بحق. التوسل بالشيوخ والأولياء، وحتى بالأنبياء، هو شرك؛ تعظيم القبور والأحجار والأشجار، أو أى شىء آخر ذى صلة بالرسول، صلى الله عليه وسلم، أو الصحابة أو الأولياء، هو شرك؛ والاعتقاد بالسحر أو التعويذات أو أية قوة أخرى مع الله، هو شرك.



فى حقبة هيمنة الطرق والثقافة والتقاليد الشعبوية الصوفية على المجتمعات الإسلامية، أثارت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب معارضة قوية، حتى فى أوساط العلماء. وبالرغم من الدعم الذى تلقاه فى مطلع دعوته من أمير حريملاء، إلا أن الدعوة لم تبدأ فى ترسيخ أقدامها إلا بعد الهجرة إلى الدرعية وعقد ميثاق، ليس مكتوباً على الأرجح، للدعم والتحالف المتبادلين بين الشيخ وأمير الدرعية محمد بن سعود فى ١٧٤٤ . هذا الميثاق هو أساس الحركة السعودية - الوهابية والارتباط الوثيق والطويل بين الدولة السعودية من جهة وميراث محمد بن عبد الوهاب والعلماء الذى تبنوا دعوته من جهة أخرى. ومنذ منتصف القرن الثامن عشر، التحمت قوة السيف السعودى بقوة التعاليم التى حملها أتباع الشيخ وتلاميذه، محققة توسع الحكم السعودى وانتشار الدعوة عبر جهات الجزيرة العربية المختلفة. بين ١٨٠٣-١٨٠٤، سيطرت القوات السعودية على مكة والمدينة، لتشكل تحدياً دينياً وسياسياً لسلطة الدولة العثمانية. وبعد عدد من المحاولات العثمانية العسكرية الفاشلة، نجحت الحملة التى أرسلها، محمد على، والى مصر العثمانى، فى استعادة السيطرة على الحجاز، والتقدم نحو نجد، ومن ثم تدمير الدرعية وتقويض مصادر الحياة فيها فى ١٨١٨ . ولكن الحملة كانت مكلفة ودموية، وأخذت أكثر من سبع سنوات لتحقق أهدافها، مشيرة إلى صعوبة استمرار السيطرة المصرية - العثمانية فى الجزيرة العربية، ونجد على وجه الخصوص.

الوصف الذى يقدمه كومنز لنجد باعتبارها «بقعة بعيدة ومنسية من الجزيرة العربية»، ولمجتمعها العلمائى باعتباره «بسيطاً، يضم حفنة من العلماء الجادين»، هو ربما وصف مضلل. فبالإضافة إلى باحثين آخرين، أوضحت الأعمال التى نشرتها مضاوى الرشيد أن محمد بن عبد الوهاب نشأ فى بيئة زراعية، مستقرة من نجد، وليس فى البادية، وأن بيئته كانت وثيقة الصلة، تجارياً وثقافياً، بالمراكز العربية - الإسلامية المجاورة، سواء فى الحجاز أو العراق وسورية. وتظهر كتابات العلماء النجديين المعارضين لأفكار الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنها لا تقل فى مستواها العلمى عن تلك التى وضعها علماء البلاد العثمانية وشمال إفريقيا. المدن النجدية فى القرن الثامن عشر، بالطبع، لا يمكن مقارنتها بدمشق أو القاهرة؛ ولكن بساطة الحياة الحضرية فى نجد آنذاك لم تكن السبب وراء انطلاق دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. المشكلة، أنه بدلاً من القيام باستقصاء بحثى كاف لقراءة وتحليل الجذور الفكرية لرؤية الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فإن كومنز يستعير المقولة، التى سبق أن قدمها أحمد دلال، حول أن «المبادئ التى قال بها ابن عبد الوهاب لا تحمل سوى القليل من المشترك مع الحركات الإصلاحية الإسلامية فى القرن الثامن عشر، بل إن التصور القائل بأن هناك دفعة إصلاحية إسلامية مشتركة فى تلك الحقبة لا يستند إلى أسس راسخة». الحقيقة أن هذه المقولة لا تساعد على فهم التاريخ بالغ التعقيد لتطور التيار الإسلامى السلفى، الذى تعود الحركة الوهابية إليه، كما تقف حاجزاً أمام محاولة تفسير بقاء واستمرار الدعوة الوهابية، من ناحية، والاستقبال الذى لم يكن سلبياً دائماً لها خلال القرنين الماضيين.

بيد أن كومنز محق فى توكيده على

The Wahhabi Mission and Saudi Arabia
(الدعوة الوهابية والعربية السعودية)
David Commins
London: I. B. Tauris, 2006, 276 pp.

لم تستطع حركة التحديث تقويض نفوذ الإسلام (لا فى السعودية، ولا فى غيرها)، فإنها أسست لعملية إعادة بناء وتشكيل لخطاب الدعوة الوهابية، لتعبيراتها، ولأنماط نشاطها وفعلها.



أن المعارضة العلمائية، داخل وخارج نجد، لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانت معارضة ملموسة، وأن بروز الدرعية فى العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر كمركز رئيس للعلوم الإسلامية، على حساب مراكز علمية تقليدية مثل عنيزة وشقيراء، كان انعكاساً لمتغيرات توازنات القوى فى نجد. وهو محق كذلك فى الاستنتاج بأن ما حققته الدعوة والدولة السعودية الأولى من توحيد للجزء الأكبر من الجزيرة العربية، للمرة الأولى منذ قرون، وإطلاق طاقة فعل وتوجه جديدين للقبائل العربية المنقسمة والمتصارعة، ترك أثراً أصبح من الصعب محوه على مجتمع الجزيرة العربية. لهذا، لم تمثل الحملة المصرية - العثمانية، بكل ما نشرته من دمار، سوى مرحلة توقف قصيرة فى تاريخ الحركة. وما إن تراخت القبضة العسكرية المصرية، حتى ولدت الدولة السعودية من جديد، كما عاد علماء الدعوة الذين شتتوا داخل الجزيرة العربية وخارجها إلى التجمع.

الفصل الثانى، الذى يحمل عنوان «الصمود ضد الشرك»، يعتبر أهم أجزاء الكتاب على الإطلاق، ومساهمة كومنز الأبرز فى تأريخ الحركة السعودية - الوهابية. بدراسة تطور أفكار علماء الدعوة الوهابية خلال المرحلة الصعبة وبالغة القلق والتوتر للسيطرة المصرية - العثمانية والدولة السعودية الثانية، يقدم كومنز صورة واضحة لكيف أصبحت فكرة راديكالية أكثر راديكالية. لقد دمرت السلطة السياسية السعودية تماماً فى ١٨١٨، ولم يعد بناؤها من جديد إلا فى ١٨٢٤، وفى منطقة محدودة من نجد فقط. ولكن قوات محمد على قامت مرة أخرى بغزو نجد فى ١٨٣٧، واستمرت فى التدخل فى الشئون النجدية، فى شكل مباشر وغير مباشر، حتى انسحاب القوات المصرية نهائياً من الجزيرة العربية فى ١٨٤١. وبموت الأمير فيصل بن سعود فى ١٨٦٥، اندلع صراع سعودى داخلى حول السلطة والإمارة، استمر على هذا النحو أو ذاك حتى سقوط الدولة السعودية الثانية فى ١٨٩١ على يد حكام حائل من آل الرشيد.

لقد أطلقت فترة النفوذ والتدخل المصريين، وفقدان اليقين السياسى، جدلاً حاداً فى دوائر علماء الدعوة الوهابية حول شرعية الحكم المصرى، كما حول شرعية الأمراء السعوديين الذين أيدوا من قبل القادة العسكريين المصريين. وبموازاة هذا الجدل، انفجر جدل آخر بين علماء الدعوة والعلماء الخصوم، النجديون منهم وأبناء المناطق المجاورة، بعد أن أفسح الوجود المصرى مجالاً لتصاعد الأصوات المناهضة لوجهة النظر الإسلامية التى يحملها خلفاء وأتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب. فى ظل هذه الظروف، نحت مواقف علماء الدعوة الفكرية منحى راديكالياً، وهو ما يبدو فى أعمال وآراء علماء مثل سليمان بن عبد الله، وعبد اللطيف بن عبد الرحمن، وعلى وجه الخصوص، حمد بن عتيق. يقدم كومنز قراءة أولية لآراء وبعض أعمال هؤلاء العلماء، ولكن الحاجة لم تزل قائمة لدراسات وافية ومعمقة لتعليم وحياة وكتابات كل واحد منهم.



فى الفصل الثالث، يناقش كومنز بروز عبد العزيز بن سعود والدولة السعودية الثانية فى ١٩٠٢، مركزاً اهتمامه على ما يصفه بـ «كبح الحماس الوهابى». والمقصود، بالطبع، هو تمرد الإخوان، القوة الضاربة لقوات عبد العزيز خلال العقود الأولى من القرن العشرين، الذى استمر بين ١٩٢٧ و١٩٣٠، وانتهاء هذا التمرد بالهزيمة. عبد العزيز، مؤسس ما نعرفه اليوم بالمملكة العربية السعودية، كان داهية كبيراً، زعيماً براجماتياً من الطراز الأول، وصاحب قدرة استثنائية على تحقيق التوافق ولم الصفوف. وبالتفاف عدد من المستشارين العرب المخلصين حوله، كان عبد العزيز على اطلاع دقيق على متغيرات موازين القوى فى الجوار وفى المشرق العربى ككل. وربما بدون هذا الاطلاع لم يكن عبد العزيز ليستطيع توحيد ما وحده من الجزيرة العربية، وبناء المملكة مترامية الأطراف التى نعرفها اليوم. كانت اعتراضات الإخوان الرئيسية على عبد العزيز تتمحور حول اتصالاته المتكررة بالبريطانيين، قراره إيقاف الحملات على المناطق المجاورة فى العراق وسوريا (التى اعتبرت من وجهة نظر الإخوان استمراراً للدعوة والجهاد)، وإدخاله أدوات التقنية الحديثة، الغريبة على ثقافة أهل نجد، لاسيما فى حقلى المواصلات والاتصالات.

السؤال هو: إلى أى درجة يمكن اعتبار تمرد الإخوان، وهزيمته، إضعافاً للأسس الوهابية للمملكة؟ الحقيقة أن عبد العزيز لم يكن لديه من خيار سوى مواجهة التحدى الإخوانى؛ إذ ما كان باستطاعته تفجير حرب مع بريطانيا وفرنسا اللتين وقعت كل من العراق وسوريا تحت سيطرتهما آنذاك، ولا كان بإمكانه تأمين حكم المملكة الفسيحة بدون تطوير جهاز ما لدولة مركزية. وفى ضوء التربية المكثفة التى تلقاها الإخوان فى المهجر، فقد اكتسبت رؤيتهم للأمور قدراً ملموساً من الحدة؛ على أن من الضرورى كذلك رؤية الأبعاد القبلية لتمرد الإخوان، الأبعاد التى هددت بقاء واستمرار وأمن النظام الذى أقامه عبد العزيز. ولكن القطاع الأكبر من علماء الدعوة وقف إلى جانب الملك على أية حال. ولمواجهة اتهامات الإخوان، أفسح عبد العزيز المجال للمزيد من تعزيز وضع العلماء فى الدولة. هذا التعزيز، أو ما يمكن أن يعتبر بداية «المأسسة» الرسمية للعلماء، كان العامل الأول خلف «كبح» التوجهات الحماسية للدعوة، وليس التمرد بحد ذاته. أما العامل الثانى، فكان ربما الشعور المنتشر فى أوساط العلماء، الذين كانت عقود القرن التاسع عشر المرهقة لم تزل حية فى ذاكرتهم، أن مصير الدعوة بات يرتبط إلى حد كبير بمصير الدولة.

الفصل الرابع لكتاب كومنز، «الوهابية فى الدولة الحديثة»، يتطرق إلى أثر حقبة التحديث السعودية على دور الدعوة والعلماء فى الدولة والمجتمع. هذه، بالطبع، فترة التوسع الهائل لجهاز الحكم، انتشار التعليم الحديث وبناء مؤسسته الرسمية تحت سلطة الدولة، المدن الحديثة الكبيرة وتعزيز وسائل الاتصال، الثروة والنزعة الاستهلاكية الجديدة، وبناء جهاز عدلى - قضائى مركزى. طبقاً لنظرية التحديث، الشائعة فى أوساط دراسات البلدان النامية فى الجامعات الغربية خلال الخمسينيات والستينيات، فإن المتغيرات التى تعرضت لها العربية السعودية فى سياق عملية التحديث كان لابد أن تؤدى إلى إضعاف الدين. لأسباب واضحة، يبدو كومنز وكأنه يرفض مقولات نظرية التحديث. فى هذا الرفض، كومنز هو بلا شك على صواب، ولكن لدرجة معينة فقط. فالمملكة العربية السعودية تغيرت، وهى لا تزال تتغير، وقد نجم عن حركة التحديث مناخ اجتماعى وثقافى جديد، وولدت حركة التحديث معضلات جمة للدولة ولمؤسسة العلماء على السواء، كما أن رؤية الإنسان السعودى لنفسه ولما يعنيه التزامه الإسلامى قد تغيرت. وبينما لم تستطع حركة التحديث تقويض نفوذ الإسلام (لا فى السعودية، ولا فى غيرها)، فإنها أسست لعملية إعادة بناء وتشكيل لخطاب الدعوة الوهابية، لتعبيراتها، ولأنماط نشاطها وفعلها.

الفصلان الأخيران، «الدعوة الوهابية والإحياء الإسلامى»، و«التحديات للهيمنة الوهابية»، يبدوان مضطربين وغير واضحين بعض الشىء. لا يقدم كومنز تحليلاً مقنعاً للصلات الفكرية بين حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والحركات الإسلامية الإصلاحية الأخرى فى القرنين التاسع عشر والعشرين، لاسيما تلك التى يتعرض لها فى كتابه. ويبدو كومنز كأنه لم يلحظ أهمية إدخال فكرة التنظيم السياسى إلى المسرح الإسلامى السعودى، بتأثير من عناصر الإخوان المسلمين العرب، الذين توافدوا على المملكة للعمل أو فراراً من اضطهاد حكوماتهم. إن القراءة التى يقدمها كومنز لأشكال وقوى المعارضة السياسية السعودية منذ مطلع التسعينيات، هى قراءة واضحة وهامة. ولكن الافتراض بأن هذه المعارضة تمثل «تحدياً للهيمنة الوهابية» هو ربما افتراض غير صحيح. إذ بينما يعتبر قطاع صغير فقط من المعارضة السعودية ليبرالياً بالمعنى الأيديولوجى لليبرالية، فإن القطاع الأوسع من المعارضة هو إسلامى التوجه، ويظهر تأثراً متفاوتاً بميراث الشيخ محمد بن عبد الوهاب. إن المعارضة، حتى وهى تطالب بالتمثيل السياسى والشفافية الحكومية، تصوغ مطالبها فى خطاب إسلامى.

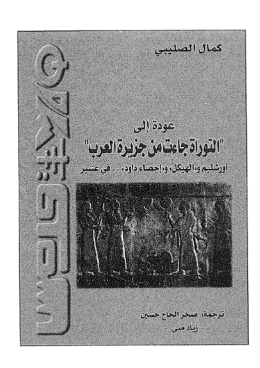
عوضاً عن الاستنتاج بأن المعارضة السعودية تمثل «تحدياً للهيمنة الوهابية»، فإن الأصح ربما قراءة المعارضة فى سياق أزمة الشرعية التى يعانى منها الاعتماد المتبادل بين الدولة ومؤسسة العلماء الرسمية، والطبيعة السائلة للتفاعل المستمر بين الحداثة والفكرة الإسلامية السياسية. وكما يشير أحد النشطاء الإسلاميين السعوديين، فإن العلاقة بين كيان العربية السعودية والدعوة الوهابية هى أقرب للعلاقة بين توأمين سياميين، اقتل أحدهما تقتل الآخر.

هذا، على أية حال، لا يجب أن يقلل من قيمة هذا الكتاب الهام وما يضيفه لدراسات الإسلام ومجتمعاته. وهو كتاب ضرورى لكافة الطلاب والباحثين فى حقل دراسات العالم الإسلامى الحديث. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

التوراة جاءت من جزيرة العرب

عودة إلى «التوراة جاءت من جزيرة العرب/ أورشليم و«الهيكل» و«إحصاء داود».. فى عسير
كمال الصليبى
ترجمة: صخر الحاج حسين، زياد منى
بيروت: شركة قدمس للنشر والتوزيع
٢٠٠٨



إن اقتراح كمال الصليبى فى منتصف ثمانينيات القرن المنصرم ضرورة عد «العهد القديم» تسجيلاً لتجربة بنى إسرائيل التاريخية والدينية فى جنوب غربى جزيرة العرب وليس فى بلاد الشام أو فلسطين، لم يكن عملاً علمياً سهلاً. فطرحه هذا كان يحمل تحدياً غير مسبوق لآراء علمية ومفاهيم دينية ترسخت فى التراث السائد قروناً طويلة. وكون العالم اللبنانى صاحب الموضوعة متخصصا فى التاريخ المعاصر وليس فى «العلوم الكتابية»، أضاف، على ما شبه للبعض، معضلة أخرى، وسلاحاً «مجانياً» لناقديه، وعلى نحو خاص لـ «علماء التوراة» أو لـ «علماء الكتاب المقدس»». فمن النادر أن «يجرؤ» عالم على المخاطرة بسمعته العلمية والمعرفية على الخوض فى موضوع شائك كهذا، معروف حتى لأهل الاختصاص باسم «عش الأفاعى» أو «عش العقارب» ذلك أن أى حركة غلط فيه تكون «قاتلة» علمياً حقاً.

كمال الصليبى، العالم الكبير المعترف به عالمياً فى مجال تخصصه فى مجال تاريخ العرب ولبنان الحديث، على نحو خاص، من العرب القليلين جداً الذين اخترقوا لائحة أسماء المراجع العالمية الأساس فى مجاله، وسجلت (دائرة المعارف البريطانية/ إنسيكلوبيديا بريتانيكا) كتبه مرجعاً أولياً عن تاريخ العرب. مع ذلك، لم يتردد فى طرق باب «العلوم التوراتية» عندما طرح موضوعته الشهيرة: التوراة جاءت من جزيرة العرب.

لكن لم قرر هذا الأستاذ المتمتع بمكانة مرموقة فى «حلقة المؤرخين» العالميين المخاطرة فى موضوع قال منتقدوه إنه ليس من اختصاصه؟

فى الواقع، كمال الصليبى ليس العالم الوحيد الذى يقرر خوض غمار مجال علمى لا يقع ضمن مجال تخصصه المباشر. ونحن نعلم، حتى من أساتذة كبار، أنهم يرحبون بأى تدخل علمى من خارج المجال التخصصى لعله يعينهم على فك رموز استعصت عليهم وعلى زملائهم. فتوماس طمبسن المتخصص فى تاريخ فلسطين القديم وصاحب أهم ثلاثة كتب عن الموضوع آخرها «داود ويسوع: بين التاريخ والتراث المشرقى» رحب فى كتاباته بآراء من خارج الاختصاص حيث رأى فيها مساعداً مهماً لبحثه.

كما أننا على علم بأن أحد أهم الكتب عن جذور الحضارة الإغريقية، إن لم يكن أهمها فعلاً، وهو مؤلف «أثينا السوداء» كتبه البريطانى التروتسكى مارتن برنال، المتخصص باللغة الصينية وليس بالحضارة الإغريقية أو المصرية القديمة وغيرها من حضارات المشرق العربى. مع ذلك، ورغم أن المتخصصين بالمادة «جن جنونهم» من ذلك المؤلف الضخم، إلا أنه ثبت مرجعاً أساسياً عن المادة.

والأمر ذاته ينطبق على كتاب جديد سيصدر عن الإلياذة يقول مؤلفه الألمانى إنها تتحدث عن غزوات آشور ولا علاقة لها بالإغريق. ومع أن الكتاب لم يصدر بعد، إلا أن الحملة عليه ذهبت بعيداً وتحولت إلى تهجم شخصى. وبالمناسبة، المؤلف الألمانى ليس مؤرخاً وإنما شاعر مرموق فى بلاده وفى أوروبا.

الأمر ذاته حدث مع كمال الصليبى عندما طرح موضوعته للمرة الأولى. وبصرف النظر عن «الإطراء والذم» اللذين نالهما فى العالم العربى، فإن كل ما كتب، مع الاحترام لأهل القلم، لم يرتق إلى مستوى علمى مسئول، ما أجبره، فى ظنى، على تجاهل ردود الفعل تلك. لكن بعض أهل الاختصاص الغربيين وجدوا أنفسهم مضطرين للدفاع عن موضوعاتهم التقليدية ومحاولة التشهير بآراء كمال الصليبى. وعندما لم يتمكنوا من دحضها علمياً قرروا تجاهلها، وهو الأسلوب المعهود الذى يتبعه ضعاف الحجة.

لكن كمال الصليبى لم يكن العالم الوحيد الذى طرح تلك الموضوعة حيث سبقه إلى ذلك بعض الرحالة الأوربيين الذين عبروا غربى جزيرة العرب فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ولاحظوا كثرة الأسماء غير عربية البنية، أى: الكنعانية والآرامية. وإذ أبدى بعضهم ملاحظاته على المسألة، ربما غير متجرئ على المضى قدماً فيها، ثمة من طرح الموضوعة بصريح العبارة متسائلاً عن إمكانية أن «العهد القديم» هو تسجيل لتجربة بنى إسرائيل، وليس اليهود، فى فلسطين وجزيرة العرب أيضاً. ويمكن للراغب فى التأكد من المسألة العودة إلى تلك الكتابات القديمة التى أشرنا إليها فى كتاباتنا عن الموضوع.

سوف لن نعود إلى ردود الفعل «العربية» على الموضوعة لأنها، وعلى نحو عام، لم تقع ضمن النقد العلمى حيث غلب الطابع الإثارى أو السياسى على الموضوعى. ولكن كمال الصليبى عاد إلى موضوعته، مرة ثانية فى كتابه الفذ حقاً «حروب داود» وثالثة فى كتاب «خفايا التوراة»، ثم أثبت انسجاماً كاملاً مع الموضوعة فى مؤلف «البحث عن يسوع».

ثم عاد مرة رابعة إلى الموضوعة مجدداً فى كتاب صدر بالإنجليزية عنوانه «تاريخية بنى إسرائيل» ستصدر ترجمته العربية قريباً عن (دار قدمس).

ولكن صاحب الموضوعة لم يتوقف عن إثارة قناعاته تلك علانية كلما سنحت له المناسبة ضمن إطار علمى. فقلة قليلة تعرف أنه كتب مجموعة من المقالات باللغة الإنجليزية فى بعض الدوريات اللاهوتية المتخصصة، إضافة إلى مقالات فى دوريات ليست متخصصة بالدراسات الكتابية، وهى التى تحويها دفتا هذا الكتاب الجديد الصادر أخيراً، باللغتين العربية والإنجليزية.

«عودة إلى «التوراة جاءت من جزيرة العرب»/ The Arabia Bible revisited» يحوى مجموعة من المقالات كتبها كمال الصليبى فى الدورية التى تصدرها «كلية اللاهوت للشرق الأدنى» ببيروت، إضافة إلى محاضرة ألقاها فى سمث كولدج بالولايات المتحدة الأمريكية ومقال نشرته حولية «أبحاث» التى تصدرها الجامعة الأمريكية ببيروت، وآخر نشر فى كتاب صدر بالإنجليزية أشار المؤلف إليه.

المبحث الأول، المحاضرة، «ملاحظات لغوية وجغرافية حول التوراة العبرية» تعد، من وجهة نظر فيلولوجية، إسهاماً طليعياً فى إدراك العلاقة المنطقية بين العربية ولغة العهد القديم، المسماة خطأً: العبرية. نقول دراسة طليعية لأنه لم يسبق لنا الاطلاع على أى عمل شبيه. وفى هذا المقال/المحاضرة يوضح كمال الصليبى العلاقة «الفطرية» بين اللغتين وأن علم الباحث العلمى- الفطرى باللغة العربية وصرفها وإعرابها يساعده فى فك كثير من «طلاسم» لغة التوراة، والتى استعصت على فهم أجيال عديدة من علماء الكتاب (Biblical scholars). وقد ألقى كمال الصليبى محاضرته هذه أمام جمهور كبير من العلماء والطلاب، ولم يظهر بعدها أى اعتراض على ما طرحه أو نقد لآرائه التى ساءلت الفهم التقليدى

لمجموعة من النصوص والمفردات والمصطلحات التوراتية.

المبحث الثانى يتناول بالتحليل الحدث الوارد ذكره فى سفر التكوين (١٤) الذى يشير إلى حروب أبرام/ أبراهام/ إبراهيم، الذى تعده التوراة من الآباء الأولين فحسب. وقد اهتم «علماء الكتاب» بهذا المقطع تحديداً لأنه ينقل، فى ظنهم، نشاطاً عالمياً خارج حدود «أرض الميعاد». كمال الصليبى، قرأ النص بلغته الأصلية من دون مفاهيم مسبقة، فاكتشف أنه يشير إلى تحالفات قبلية محلية لا علاقة لها ببلاد مابين النهرين ولا بشمالى سورية، وإنما رواية إلى صراع محلى، بالطبع فى عسير، وفى منطقة جيزان تحديداً. وكما فعل فى كتاباته السابقة، وعلى عكس ما يدعى ناقدوه، فإنه لم يعتمد فى بحثه على اللغة فحسب، وإنما استعان أيضاً بالجغرافية والطبوغرافية، مرتكزاً على خيال علمى خصب لا تقيده قيود لاعلمية.



المبحثان الثالث والرابع يتعاملان مع موضوعين مختلفين ولكن الشخصية المشتركة فيهما هو داود بن يسى، مؤسس مملكة بنى إسرائيل، على ما تدعيه بعض أسفار العهد القديم. فى المبحث الثالث: مسألة جوليات وداود، يناقش كمال الصليبى النصين المختلفين المرتبطين بقصة داود/ جوليات، ويكتشف تناقضات بينهما تجعل من الأمور غير المقبولة علمياً تجاهلها، حيث ثبت تلاعب (المحرر) بالنصوص، وهو حدث يتفق عليه كل «علماء الكتاب». المهم فى الأمر أن تحليل كمال الصليبى لبعض النصوص ذات العلاقة وإعادة قراءتها خارج تلاعب (المحرر) ثبت، من وجهة نظره أنه لم يوجد شخص اسمه جوليات وأن الرواية عن صراع داود بن يسى جوليات الفلسطينى وصرعه قصة مختلقة تماماً!.

أما المبحث الرابع فيتعامل مع جانب آخر من قصص داود التوراة، ألا وهو موضوع جغرافية الإحصاء الذى أمر بإجرائه، على ما يرد فى سفر صموئيل الثانى (٢٤: ٥-٨) على نحو خاص. ومن خلال تتبع جغرافية تحرك الرجال المكلفين بإنجازه يرى المؤلف أن الجغرافية لا يمكن أن تطابق فلسطين، ولكن عسير، وعسير فقط.

وخصص المؤلف المبحثين الأخيرين، الخامس («الفرار» من أورشليم) والسادس (مسألة أورشليم) لمسألة لم أعثر على أى إشارة إليها من قبل فى كافة المراجع ذات العلاقة التى اطلعت عليها. فكمال الصليبى يلفت الانتباه فى هذين المبحثين إلى مسائل على جانب كبير من الأهمية أهمها:

● النصوص التوراتية ذات العلاقة تتحدث عن وجود ما لا يقل عن (٢٦) بوابة (شعر/ ثغر) لأورشليم. وهنا يلفت الكاتب النظر إلى حقيقة أنه ما من مدينة مهما بلغت مساحتها تمتلك، حتى فى عصرنا الحالى، كل هذه «البوابات». أما بلاد عسير، وفى المنطقة ذات العلاقة بـ«أورشليم» فتحوى ما يزيد على (٣٥) معبراً.

● فى بلاد عسير، ثمة معابر أو ثغور أو شعاب جبلية يعبرها المسافر بين مناطق السراة. ومع وجود اسم عربى أصيل لهذه الشعاب، أى: ثغر/ ثغور، يلاحظ أن اسمها بصيغة المفرد فى بلاد عسير هو (الشعر/ الشعار)، وهو الاسم الكنعانى/ التوراتى ذاته. وهذا من غير الممكن أن يكون محض صدفة.

● هذا كله يقود إلى النقطة الأساس الثالثة ألا وهى موضوع «أورشليم» نفسها. فالتوراة أشارت فى العديد من النصوص إلى «أورشليم» على أنها منطقة حيث ورد الحديث عن المدينة فى أورشليم. ملاحظاً هذا الأمر المهم، قام كمال الصليبى بتحليل النصوص مقترحاً شروحاً وتأويلات لغوية وطبوغرافية وجغرافية، ليصل إلى استنتاج أن الاسم «أورشليم» لم يكن يطلق فقط على مدينة وإنما على إقليم أيضاً. أما المدينة فهى، ودوماً برأى المؤلف، إما (الشريم) بمنطقة النماص أو القرى التوأم (أروى) و(السلام) قرب تنومة. أما «أورشليم» الإقليم فقد حددها المؤلف بأنها المنطقة المعروفة باسم (سراة رجال الحجر)، وجميعها فى بلاد عسير. ولأن «أورشليم» كانت إقليماً بطول نحو (١٣٠) كيلومترا، فقد كان من الطبيعى أن تكون محاطة أو مجانبة لكل هذه الثغور أو الشعاب.

جديد كمال الصليبى رحلة علمية ممتعة فى التاريخ واللغة والجغرافية والتفكير المنطقى السلس. المسألة المهمة لنا وللقارئ، فى ظننا، ليست صحة الموضوعة أو خطأها، وإنما المقدرة على تجاوز الذات والتحرر من القيود المفروضة على البحث والتفكير واختراق أسوار المحرمات المختبئة خلف «المقدس» كائناً اسمه ما كان. ومن هذا المنطلق فإن كتاب كمال الصليبى هذا، وما سبقه عن الموضوع، وجب عدها علامة بارزة فى عوالم البحث التاريخى والفيلولوجى العلمى الرصين، تلهم القارئ المهتم وتحضه على البحث والتفكير.. والتأمل فى ما صور لنا أنه مسلمات غير قابلة للنقاش.

زياد منى

أجمل قصص الحب

رجاء النقاش

القاهرة: كتاب اليوم، ٢٠٠٨، ٢٢٣ صفحة



٤٠ قصة حب جمعها الناقد الراحل من الشرق والغرب، لشعراء وكتاب وقادة عسكريين وسياسيين وفنانين، قدماء ومحدثين، توفيق الحكيم مثلاً الذى اشتهر عنه عزوفه عن النساء، فقد كان فناناً حريصاً على حريته واستقلاله ورغبته فى العزلة والتأمل، وهو ما كان يجعله نافراً من الزوجة العصرية، الراغبة فى الظهور الدائم فى الحفلات والسهرات والحياة الاجتماعية، إلا أنه سقط فى قفص الزواج سنة ١٩٤٦، وكان عمره آنذاك ٤٨ سنة، يقول هو أنه لم يتزوج عن حب، إلا أنه بعد التجربة أيقن الحكمة الإلهية التى جعلت من الزواج سكناً ومودة ورحمة بين الزوجين.

وها هو عروة بن حزام الشاعر الذى عاش فى صدر الإسلام وتوفى سنة ٦٥٠ م أحب عروة ابنة عمه عفراء، وعندما طلبها للزواج طلب منه عمه ثمانين ناقة مهراً لها ليعجزه عن الزواج بها، فهو يعلم بما هو عليه من الفقر والفاقة.. وقام الأب بتزويجها من آخر أكثر غنى وقدرة على تلبية مطالب الأب. وعند ذلك ضاع أمل «عروة» فى حبه، فمرض مرضاً حار الأطباء فى وصفه وعلاجه، وانتهى به المرض بعد فترة قصيرة بالموت، وحين علمت عفراء بموت حبيبها توجهت فوراً إلى قبره وظلت تنتحب حتى ماتت هى الأخرى إلى جواره وبقى من عروة شعره الذى يصفه رجاء النقاش بأنه من أجمل الشعر العربى وأعذبه، ومنها ما يقوله مصوراً أحلامه مع حبيبته وحرصه الشديد عليها:

فياليت محيانا جميعا وليتنا
إذ نحن متنا ضمنا كفنان
ويا ليت أنا الدهر فى غير ريبة
خليان نرعى البهم مؤتلفان
فوالله ما حدثت سرك صاحباً
أخالى ولا فاهت به الشفتان

وتروى الشاعرة جليلة رضا بعضاً مما عانته حين وصفت فى قصيدة لها لقاء ساخنا مع حبيبها، وحين نشرت القصيدة مجلة «المجلة» الأدبية التى كانت تصدر فى النصف الأول من القرن الماضى، انقلبت الدنيا على الشاعرة وتعرضت لضغوط اجتماعية شديدة، وكان مما قالته فى وصف قبلة الحبيب:

اسقنى فيها رحيق المنى
وخلتها لن تنطوى أو تفوت
فلم وكيف لم أمت ها
أنا من تذكرها أموت

أما العقاد الذى عرف بأنه عدو المرأة، فقد كانت له ثلاث تجارب كبرى على الأقل فى الحب، فقد أحب الأديبة المعروفة «مى زيادة»، وكان حباً روحياً عبر عنه فى بعض الرسائل والقصائد، ثم جاء حبه الثانى عنيفاً وانتهى نهاية حزينة، وهى قصة الحب التى عبر عنها فى روايته الوحيدة «سارة»، وحين بلغ الخمسين من عمره، بدأت قصة حبه مع الفنانة مديحة يسرى (هنومة خليل)، وقد قضت أحلام السينما على هذا الحب، فشعر العقاد بتعاسة شديدة وقرر ألا يسمح للحب بأن يتسلل إلى قلبه إلى الأبد.

ولعل قصة حب الشاعر أحمد رامى لأم كلثوم من أشهر قصص الحب المعاصرة. وقد استمر حبه لها منذ اللقاء الأول بينهما فى ١٩٢٤ حتى وفاتها فى ١٩٧٥، وكانت محصلته ١٣٧ قصيدة صدحت بها كوكب الشرق وهى تعرف أنها المعنية بكل حرف فيها.

■

المستشرقون الألمان

رضوان السيد

بيروت: دار المدار، ٢٠٠٨، ٩٦ صفحة

كانت ألف ليلة وليلة التى ترجمها الفرنسى أنطوان جالان (١٦٤٦-١٧١٥)، هى بداية معرفة الأوروبيين غير اللاهوتيين بالعالم الثقافى الإسلامى، فقد سحرت حكاياتها مجموعات كبيرة من المثقفين، خصوصاً فى القرن الثامن عشر، عصر الرومانسية الأوروبية، وقد عرف هذا القرن تيارين ثقافيين كبيرين هما تيار الرومانسية وتيار التاريخيانية الأكاديمية، وكان الشاعر الألمانى الكبير جوتة، وهو أحد كبار الرومانسيين، قد تأثر بسحر الشرق، وانشغل بتجلياته وإبداعاته، وكتب «الديوان الغربى الشرقى» بهذا التأثر.

يؤكد المؤلف بعد استعراض للبدايات الألمانية فى مجال الاستشراق والتى استفادت من كتابات فرنسية وهولندية سابقة، أن الاستشراق الألمانى مثل مشكلة للباحثين العرب والمسلمين، ليس فقط بسبب إشكاليات الاستشراق بعامة، وإنما أيضاً بسبب لغته، وكان هذا الاستشراق يحاول مراجعة مشكلاته والتوصل إلى الانضواء فى أحد أربعة تخصصات، هى: التاريخ، والأنثروبولوجيا، والسوسولوجيا، وعلم الدين، ودراسات الشرق الأوسط. ولاتزال بالجامعات الألمانية عشرون كرسيا تقريبا تعنى بالدراسات الإسلامية والعربية.

ويشير المؤلف إلى حدوث تطورين مهمين: الأول: هو ازدهار دراسات الإسلام المعاصر لفهم واستيعاب ظاهرة الأصولية الإسلامية، وازدهار الدراسات الأدبية المعنية بالتراث الأدبي العربي والفارسي والتركي، المعنية بالأدب الروائي الحديث والمعاصر لدى العرب والإيرانيين والأتراك والشعوب الإسلامية الأخرى.

والثاني: هو قيام معاهد وكراسي لدراسة الدين الإسلامي في كليات اللاهوت أو في مراكز الدراسات الإسلامية المسيحية.

أما بدايات العلاقة عن طريق الترجمة بين العرب والألمان، فقد تمثلت في قيام أحد شباب المستشرقين بترجمة الجزء الثاني من كتاب جورجي زيدان تاريخ التمدن الإسلامي إلى الألمانية عام ١٩١٣. وعرف المصريون أشياء كثيرة من أعمال المستشرقين الألمان عبر العلاقات الشخصية والرحلات والزيارات المتبادلة.

بهذا المنهج يتابع المؤلف التأثيرات المتبادلة بين الباحثين الألمان والعرب، وصولاً إلى الجهود المعاصرة على الجانبين.

■

الاغتيالات في الإسلام

حسن عبدالله

بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠٠٧، ١٤٧ صفحة



منذ البدء، عرف تاريخ المسلمين الاغتيالات والقتل لأسباب سياسية ولأسباب قبلية أيضًا، ولم ينج أي من الخلفاء الراشدين من محاولات الاغتيال، فماتوا جميعًا بيد أعدائهم، حتى أبوبكر الصديق، يلمح المؤلف إلى قتله على يد المنافقين من أهل المدينة، بأن وضعوا له سمًا في الطعام، فأتى عليه بعد سنة.

إلى ذلك يعدد المؤلف حوادث الاغتيال التي أودت بحياة الخلفاء الراشدين وعدد من الصحابة والتابعين، أما الفاروق عمر ابن الخطاب فقد راح ضحية مؤامرة بين الفرس واليهود، وقد أوغرت قلوبهم فتوحات ابن الخطاب واتساع دولته، وقد قتله أبو لؤلؤة المجوسي بعد أن طعنه ست طعنات، ويشير المؤلف إلى أن عملية اغتيال عمر تمت بمؤامرة من حركة سرية يقودها الهرمزان ملك الخوزستان الذي جيء به إلى المدينة أسيرًا، وقد عهدوا إلى أبو لؤلؤة بتنفيذ أمر الاغتيال، وبتخطيط من كعب الأحبار. أما عثمان بن عفان فقد قتل في مؤامرة متكاملة الأبعاد بعد أن جنح به الأمويون إلى ما حذره منه عمر قبل وفاته حين قال له: إن وليت هذا الأمر فلا ترفعن بني أمية على رقاب الناس، لكن عثمان لم يفعل، وبين من شاركوا في مقتل عثمان أناس كانت بينهم وبينه خصومة شخصية، أي أنهم لم يكونوا ينتصرون لفكرة أو قضية، ومن هؤلاء محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وغيرهما، وقد عاب الثائرون على عثمان أنه استعمل أقرباءه، فكان في الشام معاوية بن أبي سفيان، وفي البصرة سعيد ابن العاص وفي مصر عبدالله بن أبي السرح، وكان بعض من ولاته مصدر شكوى المسلمين في هذه الولايات.

وأما علي بن أبي طالب، فكان صريع الفتنة الكبرى بين الهاشميين والأمويين، ومن هذه الفتنة الكبرى ولد الخوارج الذين دبروا أمر اغتيال علي، حتى قتله عبدالرحمن بن ملجم وهو في طريقه إلى المسجد ليصلي بالناس.

وقد عرف تاريخ المسلمين صورًا شتى للاغتيالات والقتل يوردها المؤلف، منها اغتيال الحسين بن علي والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ومحمد بن أبي بكر ومروان بن الحكم وعبدالرحمن بن خالد ابن الوليد وعمر بن عبدالعزيز خامس الخلفاء الراشدين وكثيرون غيرهم.

■

جذور الأصولية الإسلامية في مصر المعاصرة

أحمد صلاح الملا

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٨، ٤١٢ صفحة



محور هذه الدراسة هو إسهامات الشيخ محمد رشيد رضا ومجلته «المنار»، في تكريس تيار الفكر السلفي، بعيداً عن التوفيقية التي دعا إليها الإمام محمد عبده، من خلال دوره في حركة الإصلاح الإسلامي وضرورة توافقها مع المدنية الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

صدرت مجلة المنار في الفترة من ١٨٩٨ وحتى ١٩٣٥، واختفت بوفاة الشيخ رشيد رضا. والمدهش أن هذا التيار السلفي الجديد خرج من أعطاف حركة التجديد الإسلامي التي حمل لواءها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده من بعده، وكان لهذا التيار فكره السياسي والاجتماعي الخاص، تبدى في مناقشته للعديد من القضايا المهمة، وخصوصًا تلك التي تتناول علاقة الدين بالدولة والديمقراطية والخلافة وتعليم المرأة وحجابها، والتعليم الديني وصلته بالتعليم الحديث، وكذلك رؤية هذا التيار لتجليات الحداثة، وما أنتجته من فكر في مجالات مختلفة.

ولكن رأى الكاتب أن فكر رشيد رضا ومدرسة المنار كان رد فعل دفاعيا لمواجهة التهديد الغربي، ومن ثم، فقد حملت هذه المدرسة عبء الدفاع عن أسس المجتمع التقليدي في مواجهة المخاطر التي تمثلها - من وجهة نظرها - هذه التيارات الوافدة.

ويشير المؤلف بين استنتاجاته إلى هشاشة المحتوى التوفيقي لفكر المنار، فقد قبلت المنار الجوانب العملية والتقنية للحداثة باعتبارها وسائل قوة تفيد المسلمين في صراعهم مع الغرب، لكنها من ناحية ثانية رفضت الأفكار والقيم التي طرحها العالم الغربي الذي أنتج هذه التقنيات.

من هذا المنطلق، رفضت المنار فكرة لسيادة الأمة التي يقوم عليها جوهر الديمقراطية، فيما قبلت فكرة الديمقراطية ذاتها، ورفضت الدولة المدنية الحديثة كما جسدها مصطفى كامل في تركيا، ودافعت عن الخلافة كفكرة ونظام، وبقيت نظرتها للمرأة تدور في الإطار الفقهي الكلاسيكي الذي يرى المرأة موضوعًا للجنس فحسب، ويضعها في مرتبة أدنى من الرجل، وفي التعليم، قاومت أشكال التعليم الحديث في مقابل دفاعها عن التعليم الديني التقليدي.

وفي تفسيره للإشكالات التي واجهها الإصلاح الإسلامي الحديث، يرى المؤلف أن أهم هذه الإشكالات هي ضعف القاعدة الاجتماعية للقائمين عليه، فهي بالأساس قاعدة «قبل برجوازية»، ولذا حكم على هذا الإصلاح أن يظل في محصلته العامة إصلاحًا مترددًا وماضويًا، وعاجزًا عن بناء تصورات جديدة للدين تنسجم مع مطالب المجتمع البرجوازي الحديث.

■

ثورة الصورة

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ١٧٤ صفحة



تُعنى البحوث التي يضمها هذا الكتاب بدور وسائل الاتصال واتساع دائرة التأثير المباشر للإعلام ووظائفه في صياغة أسلوب حياتنا اليومية، وبيان الصيغ المختلفة للرسائل الإعلامية، ومدى القدرة الفاعلة في ممارسة الرقابة والملاحظة.

والميزة البارزة في هذه البحوث تكمن في أنها تكشف، عبر مقاربات منهجية، المستور عن واقع الصحافة العراقية في زمن الاحتلال الأمريكي، ودور وسائل الإعلام في الانتخابات، وحروب المعلومات الإعلامية، ودور الفضائيات، في تحقيق الوعي لقيم المجتمع المدني، مع رصد انتقادي لتليفزيون الواقع في المنطقة العربية، إضافة إلى العناية بإشكاليات علوم الإعلام والاتصال وانعكاساتها على واقع البحوث العربية.

ولعل الأهمية المنهجية التي تستوجب الإشارة إليها هنا هي أن هذه البحوث تتنوع من حيث طرائق البحث، لكنها تندرج في وحدة الهدف، أي قدرة الإعلام في التأثير والتواصل، ومسئوليته المهنية والأخلاقية، في مجتمع عربي يعيش أزمات داخلية وخارجية، تدفعه إلى التساؤل والبحث عن الحقيقة، فقد بات نقل المعلومة والمشهد ووقائع الحوار، والنصوص التسجيلية، وتسويق الخبر والترويج الإعلاني، وسوى ذلك من وسائل التواصل والتأثير، علمًا وفنًا، وتقنيات متطورة، إضافة إلى ما للمال والسلطة من أثر فاعل في صناعة هذا القطاع الحيوي.

■

الشرق في الغرب

جاك غودي

ترجمة: محمد الخولي

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨، ٥٧٩ صفحة



على مدى فترات من التاريخ الأوروبي، كان يُنظر إلى الشرق على أنه كيان «ساكن»، أو «متخلف»، بمعنى أن مؤسساته تتسم بخصائص تحول دون التحديث. كانت هذه هي الافتراضات التي انطلق منها ماركس وفيبر في ذروة أيام الرأسمالية، واتبعهما كثير من الذين أدهشتهم «المعجزة الأوروبية»، و«الطابع الفريد للغرب».

بيد أن جاك غودي يفند هذه الافتراضات، ابتداء من المفهوم الذي يقضي بأن عقلانية الغرب الخاصة هي التي أتاحت «لنا»، وليس «لهم»، أن نأخذ بأسباب التحديث. أما العوامل التي يقال إنها تُحد من تطور الشرق، ومن ذلك مثلاً دور الأسرة

وأشكال العمالة، فقد لقيت مبالغة واسعة النطاق. وهذه المركزية الأوروبية فشلت فى تفسير المنجزات الحالية التى أحرزها الشرق، كما أنها تسىء تفسير تاريخ الغرب. من هنا يبدأ كتاب «الشرق فى الغرب» فى تحقيق التوازن، ومن ثم فهو يشكل تحولاً أساسياً فى نظرتنا إلى التاريخ والمجتمع فى الغرب والشرق، على السواء.

وجاك غودى: أحد أشهر أساتذة الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى جامعة كامبريدج ونال جوائز وتقديرات عالمية كثيرة، ونشر عشرات المؤلفات.

■

الصراع فى الشرق الأوسط من هيرتزل إلى شارون

السفير: طاهر شاش

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨، ٢٣٠ صفحة



قتلت إسرائيل الأسرى المصريين العزل بدم بارد وبوحشية بالغة.. أمرتهم بحفر قبورهم بأيديهم وأطلقت الرصاص على رءوسهم، طردت سبعمائة ألف وخمسمائة فلسطينى فى عامى ١٩٤٧ و١٩٤٨م يمثلون الغالبية العظمى من أصحاب البلاد، واستولت على منازلهم وأسكنت فيها المهاجرين اليهود القادمين من شتى أنحاء العالم، والذين أعطتهم حق الهجرة والإقامة والاستيطان فى الوقت الذى حرمت فيه اللاجئين الفلسطينيين من العودة إلى منازلهم وممتلكاتهم.

وقد أعلن دافيد بن جوريون أن يهودا قامت بالدم والنار وأن يهودا ستقوم بالدم والنار، وطبق بكل همة هذا الشعار، فأنشأ - وزملاؤه من الصهاينة - المنظمات الإرهابية التى نكلت بالفلسطينيين، وأقام جداراً حديدياً لترويعهم وإخضاعهم للمشروع الصهيونى. ورفضت إسرائيل تقديم أية تنازلات للعرب حتى يتحقق السلام فى الشرق الأوسط..

وفرضت احتلالها الطويل - لأكثر من أربعين عاماً - على الأراضى العربية، وضربت بالقانون الدولى وقرارات الأمم المتحدة جميعها عرض الحائط.. ولاتزال ترفض يد السلام العربية رغم مبادرة قمة بيروت العربية التى تعرض عليها إقامة العلاقات معها فى حالة انسحابها من هذه الأراضى وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة فى أراضى الضفة والقطاع بعاصمتها القدس وحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين حلاً عادلاً.

قامت بمصادرة أراضى العرب وبناء المستوطنات اليهودية فيها.. واستولت على مصادر المياه وحرمت الفلسطينيين منها، وعاملتهم بوحشية بالغة وأعملت فيهم القتل والتعذيب والاعتقال وهدم المنازل واقتلاع المزروعات، الأمر الذى يدعو للتساؤل عن أسباب هذه الكراهية. وهى الدولة الوحيدة فى العالم التى تصدر قانوناً يبيح التعذيب لتمارسه ضد العرب.

وقد قامت بتسليح جيشها بأحدث الأسلحة التقليدية وأسلحة الدمار الشامل ليكون أقوى جيوش المنطقة، ولتكون دولة إسرائيل الوحيدة التى تملك السلاح النووى فيها.. ووجدت إسرائيل فى الدول الكبرى حلفاء يدعمونها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً.

ومع ذلك، تطالب بحدود آمنة على حساب الدول والشعوب العربية.

والواقع، أن إسرائيل قد اتخذت منذ قيامها وعلى مدى تاريخها سياسة عدوانية لا هوادة فيها تجاه العرب، وافشلت كل المساعى التى بذلت من أجل تحقيق السلام فى الشرق الأوسط.

وهذه ظاهرة تتطلب الدراسة الموضوعية وخاصة لمحاولة التعرف على أسباب هذه السياسة العدوانية. ولما كانت إسرائيل قد أنشئت لتكون دولة لليهود، وأنها أقيمت تنفيذاً لمشروع صهيونى له أهدافه ووسائله، فإن دراسة هذه الأسباب تقتضى استعراض أسس الديانة اليهودية وعقائدها، وإلقاء نظرة سريعة على التراث الدينى والتاريخى لليهود، ثم بحث ظروف نشأة الحركة الصهيونية وأهداف المشروع الصهيونى ووسائل تنفيذه، وخاصة الإرهاب.

■

أن ترحل

الطاهر بنجلون

ترجمه من الفرنسية بسام حجار

المركز الثقافى العربى - الدار البيضاء، ٢٠٠٧ ، ٣١٧ صفحة

مع وجود الكساد الاقتصادى وزيادة عدد السكان والمتعلمين منهم، يحاول كثير من الشباب الهجرة إلى الغرب والتى يسميها بنجلون «هوس الهجرة»، والتى هى غير متاحة قانونياً. لذلك يلجأ العديد من الشباب إلى ركوب أخطار كثيرة قد تودى بحياتهم للذهاب لبلاد الغرب، حيث يعتقد بعضهم أن فرص العمل وجمع المال متاحة وسهلة. لكن الواقع غير ذلك. هذا ما يعرضه بنجلون فى قصته «أن ترحل».

هذه القصة عمل مهم فى أدب المهجر الحديث، حيث يتوغل الكاتب فى تحليل واقعى وشيق وإن كان مؤلما لما يحدث فى بلادنا، حيث يزداد السخط على الحكومات التى يبدو أنها عاجزة عن القيام بمهامها ولكنها متمسكة بشدة بالحكم.

يتخطى الكاتب ما يحدث فى المغرب، حيث تدور أحداث الرواية إلى ما يتعرض له المهاجر فى بلاد الغرب من مطاردة قوات الأمن وصعوبة وجود أعمال، الأمر الذى يلجأ معه البعض للدعارة والاتجار بالمخدرات أو قبول أعمال تتنافى والطموح المرجو من الهجرة. هذا بينما يتجه البعض إلى مجالات التطرف الإسلامى.

القصة مكتوبة بأسلوب سهل ومباشر. على لسان بطل الرواية «عازل» يقول: «لقد درست الحقوق فى بلد يجهل الحقوق، متظاهراً بفرض احترام القانون»، بينما يقول ممثل التيار الإسلامى «أنا أعلم أنك كالكثيرين من أترابك المهجوسين بفكرة الرحيل ومغادرة البلاد. هذا حل سهل ولكنه محفوف بالمخاطر. أوروبا لا تريدنا، الإسلام يخيفنا، التمييز العنصرى هو السائد فيها، مشكلاتنا تتطلب حلولاً منا هنا الآن». بينما يصف الكاتب حالة المغرب فيقول: «هو ذا المغرب فيه من يكدحون كالمسوسين يعملون لأنهم اختاروا الاستقامة، وهؤلاء يعملون فى الظل، لا أحد يراهم ولا أحد يأتى على ذكرهم، بينما هم يستحقون النياشين، لأن استقامتهم هى التى تبقى البلد حياً. كما فيها الآخرون وهم كثرة فى كل موضع وناحية، فى جميع الوزارات، لأن الفساد فى بلادنا العزيزة هو الهواء الذى نستنشقه، بلى الفساد ينضح من مسامنا، هو على وجوهنا، وفى رؤوسنا، وهو كامن فى قلوبنا».

■

مستقبل التعليم العربى

محسن خضر

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ٢٤٨ صفحة



أما الكارثة التى يراها المؤلف محدقة بالتعليم العربى فهى العولمة، بآلياتها المباشرة الكاسحة وأساليبها الناعمة معاً، ومخاطرها فى تفكيك المجتمعات العربية وتفريغ الثقافة الوطنية من مضمونها، ومن ثم، فإنه يؤكد على أهمية التزام التعليم فى سياساته وهياكله ومناهجه بقضية الهوية كأولوية مطلقة، ليكون - بحسب ما يشير الدكتور حامد عمار فى تقديمه - تعليماً بالهوية وتعليماً للهوية، أو بحسب تعبير المؤلف نفسه.. «تعنى التربية على الهوية تأسيس الوعى كبداية، وتمكين الهوية كنهاية، وتحويل الإمكانات إلى قدرات ومكنات، والوعى بالعقبات وسبل التغلب عليها.

ولذا، فإن المؤلف فى القسم الأول من الكتاب، يعالج مختلف مفاهيم الهوية ومكوناتها، واستجابات التربية لتحولاتها إزاء ضغوط العولمة، ويلاحظ المؤلف أن العولمة أيقظت هويات قديمة وفئوية وعشائرية واثنية ومذهبية كانت توارت وراء حكم الدولة القومية، وهو ما أدى إلى تفجير حروب الهويات فى البلقان والجمهوريات السوفيتية القديمة، وفى أفريقيا بين الهوتو والتوتسى، وكذلك فى السودان والعراق والجزائر.

وفيما يتعلق بالوضع العربى، فإن ثمة اتفاق على تأزم واقع الهوية العربية وخاصة فى ظل «أبلسة الفكرة القومية» أو الهوية الجماعية بحيث اعتبرت رديفاً للبربرية فى ظل الإحباطات المستمرة منذ هزيمة يونيو ١٩٦٧(...) هذا الإحباط عززته جهود الدولة القطرية فى تضخيم نفسها، وإضفاء الشرعية المبالغة على حقيقتها.

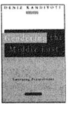
ويضيف: الهوية سؤال مستقبلى كما هو سؤال ماضوى، وفى حالة الهوية العربية القومية، فإن تجددها وانفتاحها على المستقبل يكون بتحقيق المشروع السياسى الوجودى الذى يسعى إلى إيجاد الدول المتطابقة مع الرقعة الجغرافية للأمة.

وحين يناقش المؤلف فى القسم الثانى أزمة الجامعات العربية، فإنه يبدأ برؤية الفيلسوف التفكيكى جاك دريدا الداعية إلى ضرورة أن تتمتع الجامعة بحرية غير مشروطة، تتجاوز من خلالها سلطان الدولة وضغوط العولمة والشركات العملاقة متعددة الجنسيات ومؤسسات التمويل الدولى، فالجامعة - بحسب رؤية المؤلف - رسالة قبل أى شىء آخر، وفى هذا الإطار يعود المؤلف إلى عديد من التقارير الدولية التى ترصد حال الجامعات وكيفية النهوض بها وتحقيق استقلالها، مشيراً إلى ضرورة الانفتاح على كل التيارات ومراكز العلم، فالحرص على الهوية ليس مرادفاً للتقوقع والحصار.

ويفرد المؤلف فصلاً خاصاً عنوانه «الاختراق النفسى للمعلم»، وهى ظاهرة عالمية متنامية، إذ تتعدد مسئوليات المعلم، وتتداخل فيها السياسة والفن والطلاب والإدارة والفصول وإمكانات التعليم وضعف الرواتب وضبط السلوك الأخلاقى وغيرها، وهو ما يؤدى إلى تعدد الضغوط المسببة للاختراق النفسى للمعلم وضياع هيبته وتراجع دوره.

■

Gendering the Middle East
(ثقافة النوع فى الشرق الأوسط)
Deniz Kandiyoti ed.
AUC Press
177pp, 2008



فتحت الدراسات المهتمة بالنوع مجالات جديدة لإعادة فحص العلوم الاجتماعية والإنسانيات وشجعت على نقد وإعادة تقييم التصنيفات التى وضعت لمختلف المجالات. ولكن الأمر ليس بنفس القدر من الشيوع عند الحديث عن الدراسات المتعلقة بمنطقة الشرق الأوسط. يرى الكتاب أن الكتّاب والباحثين العاملين فى المنطقة قد سيطر على أبحاثهم ومناهجهم لفترة طويلة، الاهتمام بمراقبة دور الإسلام أو تحدى الصور النمطية التى تسبب فيها تراث الاستشراق ويتساءل بالتالى إن كانوا قد استجابوا للتحديات واعترفوا بتأثير النوع كمكون فى الثقافة والمجتمع. ويمثل كتاب تنويع الشرق الأوسط عملاً رائداً فى فحصه لمدى نجاح دراسات النوع فى إثراء وتحدى وجهات النظر الراسخة حول الثقافة والمجتمع والإنتاج الأدبى فى الشرق الأوسط. وقد قام بالأبحاث المختلفة فى الكتاب كاتبات متخصصات فى مجالات التاريخ والعلم تطور الإنسان وعلم الاجتماع السياسى والعلاقات الدولية والنقد الأدبى لبيان كيف يمكن للتركيز على النوع أن يعدل من وجهة نظرنا إلى العلوم المختلفة وفهمنا للمنطقة.

■

Women in Iraq
(النساء فى العراق)
Yasmin Husein Al -Jawaheri
AUC Press
228pp, 2008



منذ الغزو الأمريكى للعراق وسقوط نظام صدّام حسين، بدت العراق كأنها مجال متفجر بالعنف والتخويف ضد النساء. ولكن حقيقة الأمر كما توضح الكاتبة ياسمين حسين الجواهرى هى أن ما حدث ليس مفاجئا وإنما هو نتاج طبيعى للتدهور فى العلاقات بين الجنسين الذى كان إحدى النتائج التى تم تجاهلها لعقد كامل من العقوبات الدولية. وقد قامت الكاتبة بإجراء مقابلات مع نساء من مختلف الأعمار والخلفيات لبيان مدى تأثير العقوبات الاقتصادية على العلاقات داخل العائلة، العنف النوعى، المسئوليات المنزلية والعادات العمل والتوظيف. وتبين الكاتبة أن العقوبات الاقتصادية قد تسببت عبر تقليص قدرات المرأة على المشاركة فى التعليم والقوة العاملة فى تعزيز النظرة المحافظة للأدوار المنوطة بكلا النوعين. كما ترى الكاتبة أن الغزو قد صعد من الانشقاقات الطائفية مضاعفاً المشكلة الأصلية. وتستخدم الكاتبة الأساليب البحثية العلمية وقدراتها المميزة على الصعيد النظرى فى تقييم ورسم الإمكانيات المستقبلية للنساء فى العراق

■

Cell Block Five
(عنبر خمسة)
Fadhil Al -Azzawi
AUC Press: 108pp, 2008



فاضل عزاوى شاعر وروائى عراقى وقد أصدر عام ١٩٧٢ رواية بعنوان «عنبر خمسة» كان قد كتبها فى العام السابق ولكنه لم يقدر على نشرها داخل العراق. والرواية تعتبر من النماذج الأولى للكتابات التى انتشرت فيما بعد عن تجربة السجن فى العراق وقد استوحى الكاتب روايته من تجربته الذاتية. بطل الرواية عزيز محمود سعيد شاب لامبال يتم إلقاء القبض عليه بالخطأ من على أحد المقاهى. تبدأ الرواية مع تحويله للسجن بعد ثلاثة أيام من القبض عليه وهناك يعرف أنه أخذ بالخطأ مكان شخص آخر يحمل اسم والده محمود سعيد. يتشبث عزيز بزملائه فى عربة الترحيلات التى نقلتهم إلى السجن فيحبس معهم فى العنبر الذى طلبوا التوجه إليه وهو العنبر رقم خمسة، حيث ينتظرهم آخرون من نفس توجههم السياسى. ومع أن عزيز لم يتهم رسمياً بأى تهمة إلا أنه يجبر على التأقلم على السجن لفترات طويلة. وخلال فترة سجنه يقوم المساجين السياسيون بمصادقته ويدفعونه للحلم بمدينة تحمل اسمه. أما مشرف السجن فيشجعه على التفكير فى أى جريمة بسيطة يمكنه الاعتراف باقترافها كى يتم اتهامه رسمياً وبالتالى الحكم عليه، ثم إطلاق سراحه.

■

Nixonland
(أرض نيكسون)
Rick Perlstien
Scribner: 896pp, 2008



لقد كانت الأعوام بين ولاية الرئيس الأمريكى ليندون جونسون عام ١٩٦٤ وبين ولاية نيكسون من أكثر الفترات فى تاريخ الولايات المتحدة فوضى. كانت الحرب الفيتنامية مشتعلة وتبدو بلا نهاية رغم عدم شعبيتها. وانتشرت فى تلك الفترة الاضطرابات الداخلية العنيفة والاغتيالات والقلاقل الاجتماعية والمقاومة فى الجنوب، بالإضافة إلى أغلبية صامتة اختارت لمرتين متتاليتين سياسيين يستمتعان بالمعارك القائمة وإن كانا قد أنهيا تلك المعارك بشكل مخجل. ويقدم الكاتب فى كتابه «أرض نيكسون» عرضاً لأحداث يبدو مؤلفا للكثيرين على عكس كتابه السابق قبل العاصفة Before the storm الذى كان أكثر تأثيراً لأنه أتى بمعلومات جديدة وغير متوقعة منها تحليله أن النجاح الساحق للمحافظين داخل أمريكا فى الوقت الحالى يعود إلى الهزيمة المروعة للمرشح الجمهورى بارى جولد واتر أمام جونسون عام ١٩٦٤. ومع ذلك فالكتاب مشوق وملىء بالبحث الجاد. ومع أن برلستين كاتب يسارى إلا أنه محايد جداً كمؤرخ فهو ينجح فى توصيل الغضب الصادر من الجهتين بشكل مقنع. فهو لا يتسامح مع سخرية نيكسون ولا مع سذاجة الليبراليين مثل عمدة نيو يورك جون ليندساى. سيشعر من يقرأ هذا الكتاب فى عام الانتخابات أن الفترة الحالية أكثر هدوءا ودعة من تلك الأوقات ولكن يبقى لنا صدى من تلك الأيام التى سببت الانقسامات لايزال حاضرا حتى الآن.

■

Arab Television Today
(التليفزيون العربى اليوم)
Naomi Sakr
AUC Press
262pp, 2008



تزداد فى العالم العربى عبر السنوات الماضية القنوات التليفزيونية سواء الفضائية أو الأرضية، كما أن قوانين بعض الدول أتاحت إنشاء قنوات تليفزيونية خاصة.

وفى منطقة مشتعلة دائما بالصراعات كمنطقتنا فإن القنوات التليفزيونية المختلفة تصبح قنوات أساسية لعرض الخلافات، بل طرفاً أصلياً فى بعضها بناء على سياسة القناة أو توجه القائمين عليها. ويقدم كتاب التليفزيون العربى اليوم تحليلاً للبناء المتحول والاختيارات المختلفة داخل محطات التليفزيون فيما يخص البرامج الترفيهية والأخبار معاً.

ويحاول الكتاب فحص التأثيرات المختلفة التى يمارسها ملاك القنوات والمستثمرون والصحفيون وشركات الإنتاج والمعلنون والناشطون فى مجالات الرقابة ومقاومتها على بعضهم البعض وعلى ما يقدم على كل قناة سواء للاستهلاك المحلى أو للتصدير للخارج.

ويرى الكتاب أن قناة الجزيرة مع أنها صاحبة الاسم الأشهر، إلا أنها ليست إلا لاعباً واحداً فى مجال شديد الازدحام، حيث تبقى النوايا التى تتحكم فى القرارات غير واضحة.

وتقوم الكاتبة نعومى صقر بالبحث فى كيفية تأثير المنافسة على علاقات القوة بين المجموعات المختلفة الفاعلة فى قطاع التليفزيون وبينهم وبين المشاهدين.

كما تفحص تأثير القوالب المتشابهة لبرامج مثل مسابقات الغناء، ستار أكاديمى أو سوبر ستار ودرجة التشجيع أو التعطيل التى تتسبب فيها لبناء وتطوير قوالب محلية للبرامج.

والسؤال الأهم فى الكتاب، هل يعنى التنامى فى منح تراخيص خاصة للقنوات التليفزيونية أن هناك تحولا جذريا نحو تواصل أكثر مصداقية وصراحة بين الحكومات والشعوب؟

■

Case of Exploding Mangoes A
(قضية المانجو المنفجر)
Mohammed Hanif
Knopf, 2008, 336PP, $24.00



فى السابع عشر من أغسطس عام ١٩٨٨، الطائرة «باك ١» التى تحمل الديكتاتور الباكستانى «محمد ضياء الحق» على متنها وعدد كبير من قادة الجيش، تسقط محطمة ليموت كل ركابها.

محمد حنيف يغوص فى القصة

ويحقق في أسباب وقوع الطائرة، هل كان السبب عطلا ميكانيكيا أم كان حادث مدبر، وهل للحادث علاقة بإطاحة محمد ضياء الحق بذو الفقار على بوتو.

في هذه القصة الطيار الصغير «على الشجرى» الذى توفى والده فى ظروف ظهرت كحالة انتحار، ولكنه كان متأكدا أنه قتل من قبل الجنرال «ضياء الحق»، ليقرر أن ينتقم ويبدأ رحلته.

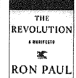
■

The Revolution

(الثورة)

Ron Paul

Grand Central Publishing, 2008, 192PP, $21.00



فى هذا الكتاب، رون بول عضو الكونجرس الأمريكى، والمرشح للرئاسة، يفضح الحقائق وراء كل شىء يهدد الولايات المتحدة، بدءا من الأسباب الحقيقية وراء انخفاض الدولار الأمريكى، إلى كارثة التضخم، ومن الإرهاب إلى فقدان الأمريكيين لحريتهم المدنية.

يرى بول أن الشعب الأمريكى قد كذب عليه بشأن مواضيع عدة، فالضرائب تزيد، والتضخم يرتفع، وحروب أخرى ليس لها سبب يعد لها، وهو ما يراه بول ليس ما كان يتمناه الآباء المؤسسون للولايات المتحدة، فهم وضعوا الدستور الذى يكاد فى رأى بول أن يتحول إلى وثيقة تاريخية.

على الرغم من التجاهل الإعلامى له فى حملته للرئاسة إلا أن بول قد جذب حوله الشباب وأصبح له مؤيدون عده، وهى الظاهرة التى أدهشت العديد من المحللين السياسيين.

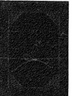
■

The Last Lecture

(المحاضرة الأخيرة)

Randy Pausch

Hyperion, 2008, 224PP, $21.95



العديد من الأساتذة يقدمون محاضرة بعنوان «المحاضرة الأخيرة»، حيث يطلب منهم أن يتخيلوا أنها محاضرتهم الأخيرة، ليلقوا فيها خبرتهم إلى تلاميذهم والجمهور الذى لا يمل عادة من السؤال المكرر دائما، عن الحكمة التى يريد الأستاذ تقديمها إلى العالم فى محاضرته.

«راندى باوش» أستاذ علوم الكمبيوتر بكارنيج ميلون طلب منه تقديم مثل تلك المحاضرة، لم يكن عليه أن يتخيل أن هذه هى محاضرته الأخيرة، فهو بالفعل يعلم أنها كذلك، حيث كان قد أكتشف تفشى السرطان فى جسده، وكان يعلم بقرب أجله، ولكن محاضرته التى ألقاها لم تكن عن الموت، وإنما كانت عن الحياة، المحاضرة بعنوان «تحقيق أحلام طفولتك»، وكانت عن كيفية تخطى عقبات الحياة، كيفية تحقيق أحلام الآخرين، الاستمتاع بكل لحظة فى الحياة، لأن الوقت هو الشىء الوحيد الذى تملكه.

فى هذا الكتاب، يجمع راندى باوش ما قاله فى محاضرته الأخيرة من إلهام، ودعابة، وخبرة، وتحفيز.

■

The Post-American World

(ما بعد العالم الأمريكى)

Fareed Zakaria

W. W. Norton, 2008, 288PP, $25.95



هذا ليس كتابا عن بداية زوال القوة الأمريكية، ولكنه عن زيادة قوة والآخرين.

فريد زكريا، كاتب النيوزويك المعروف، بعد كتابه الأكثر مبيعا «مستقبل الحرية»، يأتى بهذا الكتاب ليناقش عالما جديدا ما عادت لولايات المتحدة تسيطر على اقتصاده، وتتحكم فى جغرافيته السياسية، أو حتى تؤثر على الثقافات المختلفة. عالم صعد فيه العديد من الدول مثل الصين والهند والبرازيل وروسيا، ليبدءوا إعادة تشكيل العالم من جديد.

الآن، أطول العمارات، وأكبر السدود، وأكثر الأفلام مبيعا، وأكثر الهواتف المحمولة تقدما، والعديد غيرها، قد صنع وطور خارج الولايات المتحدة.

هذا التقدم الاقتصادى يراه زكريا ناتجا عن الثقة السياسية والكرامة الوطنية والتوسط فى المشاكل الدولية، لذا يقدم زكريا فى هذا الكتاب إجابات لأسئلة مثل، كيف يجب أن تفهم الولايات المتحدة هذا المناخ العالمى الذى أصبح سريع التغير؟ وما المعنى الحقيقى لان تعيش وتعايش عصر العولمة؟

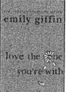
■

Love the One You're With

(حب من أنت معه)

Emily Giffin

St. Martin's Press, 2008, 352PP, $24.95




كيف تعرف انك وجدت حب حياتك؟ وهل تستطيع فعلا أن تحب من أنت معه، فى حين أنك لا تستطيع نسيان حبك القديم.

فى هذه الرواية تطرح «إيميلى جيفين» صاحبة الرواية الأكثر مبيعا «شىء مقترض، وشىء أزرق، ودليل على الطفل» أسئلة عديدة عن الحب الحالى ونسيان الماضى.

كان عام أيلين وأندى الأول فى زواجهما ممتازا، لم يكن هناك شك فى مدى تفانيهما فى تلك العلاقة، وكان كل منهما يرى أجمل ما فى الآخر، ولكن يوما ما، أيلين رأت حبيبها السابق ليو التى لم تكن قد سمعت عنه لثمانى سنوات، حبيبها السابق الذى كان تركها معذبة بدون إنذار ولا تفسير، حبيبها السابق الذى لم تستطع أبدا نسيانه.

يفجر ظهور ليو فى حياة ألين مشاعرها، لتبدأ فى سؤال نفسها، هل هى تعيش فعلا مع الشخص المقدر لها العيش معه؟

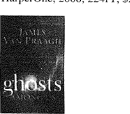
■

Ghosts Among Us

(الأشباح بيننا)

James Van Praagh

HarperOne, 2008, 224PP, $24.95



الجميع يحبون قصص الأشباح الجيدة، ربما بسبب افتتان الإنسان بالظواهر فوق الطبيعية، وربما لأن كلا منا فى وقت ما من حياته، قد مر بتجربة لا يمكنه تفسيرها.

منذ سنوات طفولته «جيمس براغ» كان على دراية بأبعاد لا نعرفها، وهو أمضى عمره ليشرحها للآخرين الذين لا يستطيعون رؤيتها. هذا الكتاب يأخذنا فى رحلة فى عالم روحانى مسلطا الضوء على واحدة من أكبر الغاز الكون، ماذا يحدث بعد أن نموت؟

يشارك «جيمس براغ» خبرته الحياتية عن الأشباح مع القراء، وهو موضوع قد يكون مرعبا للبعض وخياليا للبعض الآخر، ولكن «براغ» يرى أن هناك تفسيرا لكل ما ليس له تفسير فى الحياة.

براغ يتحدى الجميع حول كيف ستكون حياتهم أفضل إذا فهموا عالم الأرواح، بتفاصيل دقيقة ومعلومات مفصلة يقدم «براغ» وصفا لعالم ما وراء الحياة، عالم الأشباح.

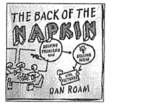
■

The Whole Truth

(الحقيقة كاملة)

David Baldacci

. Grand Central Publishing, 2008, 416PP, $26.99



«ديك بيندر» اله الحرب، وتاجر السلاح، والمدير الناجح لشركة سلاح من أكبر الشركات فى العالم، بارع فى صنع الحروب، يستطيع التلاعب فى أى صراع، وجلب الحرب. يدير جهازا يناطح أجهزة المخابرات العالمية.

«شاو» رجل بماض فريد، يحمل أجندة مختلفة، يعمل لصالح وكالة استخبارات دولية، ويجوب العالم من أجل السلام.

«كايتى جونس» الصحفية النشطة التى تفعل أى شىء من أجل مهنتها، والتى تحصل على فرصة عمرها بمقابلة الناجى الوحيد من مذبحة عظيمة.

فى عالم كبير، هل من فرصة لتقابلهم، هل سيتلاقى مصيرهم يوما ما؟ ما الذى يمكن أن يتغير فى العالم إن تقابل هؤلاء الأشخاص؟ وما الإطار الذى سيسمح لهم باللقاء؟

هذا ما نعرفه فى الحقيقة الكاملة.

■

The Back of the Napkin

(ظهر المنديل)

Dan Roam

Portfolio, 2008, 288PP, $24.95

«دان روم» المستشار الإدارى، طلب منه

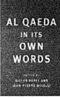
ذات مرة أن يلقى محاضرة على مجموعة من المسئولين الحكوميين، وكان هذا الطلب فقط قبل دقائق من بدء المحاضرة، فما كان منه إلا أن خط أفكاره فى صورة رسوم على ظهر منديل.

فى هذا الكتاب،دان روم، يوضح كيفية التفكير البصرى، كيفية تحويل الأفكار إلى صور ورسومات، وكيف يمكن أن يؤثر ذلك على قوة التفكير. الكاتب يشرح ٤ طرق مختلفة لتحويل التفكير إلى صور و٦ طرق لقراءة تلك الصور.

■

Al Qaeda in Its Own Words
(القاعدة تتحدث عن نفسها)

Gilles Kepel , Jean-Pierre Milelli
Belknap Press, 2008, 384PP, $27.95



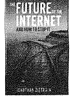
فى هذا الكتاب، الباحثان الفرنسيان مليلى وكابل، يقدمان وصفا لتنظيم القاعدة بكلمات أعضاء القاعدة أنفسهم. الباحثان قاما بترجمة العديد من النصوص التى تعبر عن تنظيم القاعدة، بيانات على شبكة الإنترنت، خطب، وأحاديث. ليقدموا بها سيرة لتنظيم القاعدة قالها، وكتبها أعضاؤها.

يرى الباحثان أن أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى ومصعب الزرقاوى، قد تأثروا بشدة بأفكار المفكر عبد الله عزام الملقب برائد الجهاد، حيث يكررون العديد من كلماته، ويستخدمون جملا من مؤلفاته.

■

The Future of the Internet
(مستقبل الإنترنت)

Gilles Kepel , Jean-Pierre Milelli
Belknap Press, 2008, 384PP, $27.95



عالم الإنترنت الرقمى، يأخذ بالاتساع كل يوم، وتنمو بمساعدة زوارها. حتى أصبحت هناك منتجات تباع فى الأسواق تعتمد كليا على الإنترنت، كالأى بود والاكس بوكس.كما ان تطور الإنترنت أصبح له تطبيقات فى كل المجالات، فهناك مثلا أجهزة الجى بى اس التى تحدد الأماكن والطرق.

أيضا مواقع الإنترنت تطورت لتصبح مصدرا ضخما للمعلومات، ولتتيح لزوار الإنترنت المساهمة بها.

الكاتب يقدم وصفة لكيفية تطوير الإنترنت وكذلك تطوير الهيكل الاجتماعى ليتلاءم مع التكنولوجيا الحديثة مما يسمح لمستخدمى الإنترنت العمل بشكل خلاق وتعاونى لصالح البشرية.

■

1948
(١٩٤٨)

Benny Morris
Yale University Press, 2008, 544PP, $32.50



ستون عاما مضت على بداية الصراع العربى الإسرائيلى، وبهذه المناسبة يأتى كتاب بينى موريس عن أولى حروب ذلك الصراع.

هذا الكتاب يقدم نظرة جديدة متعمقة فى حرب ١٩٤٨، موضحا أبعادها السياسية، والدوافع التى أحاطت بها.

يبحث موريس فى الأسباب وراء الحرب، يسلط الضوء على التطورات السياسية والعسكرية التى سببت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، يحفر وراء دور الدول الكبرى بريطانيا والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى الصراع، ودورهم فى إنهائه عام ١٩٤٩، يتأمل فى عمليات صنع القرار فى الجانبين العربى والإسرائيلى ولدى الدول الكبرى.

■

The Lazarus Project
مشروع لازاروس

Alekandar Hemon
Riverhead: 304pp, $24.95, 2008



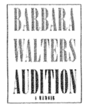
كان الكاتب اليوغوسلافي اليكساندر همون في الولايات المتحدة الأمريكية حين اندلعت الحرب في مدينته، سراييفو فعاش منذ ذلك الوقت في شيكاجو التي اصبح أحد مواطنيها. وقد اغنى وجوده المشهد الأدبي الأمريكي. في كتابه الجديد مشروع لازاروس يعيد همون احياء احداث ملحمية وقعت عام ١٩٠٨ عندما قتل لازاروس أفربوش، المهاجر اليهودي البالغ من العمر ١٩ عاما على يد جورج شيبي رئيس شرطة شيكاجو. وقد كان لازاروس قد دخل بيت رئيس الشرطة بشكل شرعي لتسليم خطاب. ومع ان شيبي قد ادعى ان لازاروس فوضوي وانه كان قد دخل المنزل لأغراض اجرامية الا ان حقيقة تلك الأحداث غير معلومة حتى اليوم.

ينتقل الكاتب من تلك الواقعة الى ما بعدها بقرن من الزمان حيث يحكي قصة فلاديمير بيرك الكاتب البوسني الأمريكي الذي يعيش في شيكاجو ويتلقى دعما ماديا للسفر الى أوروبا الشرقية والكشف عن ما حدث هناك بالفعل. ينجح الكاتب في تضفير القصتين جيدا متنقلا بين ما حدث بعد مقتل لازاروس وبين رحلة بيرك وحكايات رفيقته في الرحلة رورا المصورة التي تخصصت في تصوير حرب البوسنة. ومع ان الرواية قد تذكر القارئ بكتب اخرى كثيرة ظهرت في الفترة الماضية حول نفس الحرب الا ان هذا الكتاب بالذات شديد الإمتاع وحميمي جدا حتى مع موضوعه العام والملحمي.

■

Audition: A memoir
أختبار: مذكرات

Barbara Walters
Knopf: 624pp, $29.95, 2008



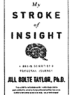
ربما تكون باربرا والترز هي اشهر مذيعة في العالم ولذا فان اصدارها لسيرتها الذاتية حدث شديد الجاذبية سواء للقارئ الجاد الذي يريد معرفة تفاصيل لقاءاتها الشهيرة بأهم زعماء العالم أو للقارئ من هواة الفضائح والذي سيجد وجبة مشبعة في حكايات علاقتها الغرامية. ويجيب الكتاب عن السؤال الذي قد يراود العديد من المراقبين لباربرا والترز والذين يلاحظون بلا شك الإلحاح والإصرار اللذين شكلا الدافع الأكبر وراء نجاحها المبهر. تكشف والترز في هذا الكتاب الكثير عن طفولتها التي قضتها في الترحال وراء والدها فنان برودواي بين ميامي وبوسطون ونيو يورك. عندما توفي الوالد ترك زوجته وابنتها المعاقة ذهنيا في رعاية باربرا التي كانت تعول ابنها ايضا بمفردها. وقد ساهم قربها من والدها على اشعار باربرا انها ستفشل تماما اذا كتب عن اعمالها نقد واحد سيئ.

أما اكثر الموضوعات الشخصية المثيرة للجدل والمتضمنة في كتاب والترز فكانت أعترافها بإقامة علاقة مع السيناتور الأمريكي من اصل افريقي، أدوارد بروك وهي العلاقة التي تخلت عنها والترز كي لا تؤثر على مستقبلها المهني خاصة ان السيناتور كان متزوجا وكان ذلك في زمن لا تغفر فيه الجماهير الأمريكية الخيانات الزوجية بين المشاهير. على الصعيد المهني ترسم والترز صورة شديدة التشويق لعالم التليفزيون في عصره الذهبي بما في ذلك المفاوضات حول العقود والصراعات بين الشركات المختلفة والنميمة حول المشاهير التي استضافتهم وحول زملائها من العاملين في محطات التلفزيون. رأي الكثيرون ان الكاتب يترك القارئ في حالة حسد أقل لباربرا والترز وتعاطف أكبر معها ولكنها لم تسلم كما هي العادة في كل ما يخصها من الانتقادات الكثيرة وتحديدا لكشفها علاقتها مع بروك.

■

My Stroke of Insight: A brain Scientist's Personal Journey
نوبة تأمل: الرحلة الشخصية لعالمة دماغ

Jill Bolte Taylor
Viking: 192pp, $24.95, 2008



من المتعارف عليه في عالم الطب ان المخ لازال من المناطق المجهولة وأن جميع الدراسات حوله تصل الى عدد من الاستنتاجات المنطقية أكبر من عدد المعلومات المؤكدة. لذا فإنه عندما يتاح لعالمة متخصصة في امراض المخ ان تصاب بأحد تلك الأمراض ثم تشفى بما يكفي لتكتب عن التجربة فالكتاب الناتج يستحق القراءة بلا شك. هذا ما حدث مع جيل بولت تايلر التي اصيبت في ١٩٩٦ بأنفجار في أحد شرايين المخ نتج عنه تدهور كبير في قدراتها على المشي والكلام والقراءة والتذكر في مدة قصيرة جدا بلغت اربع ساعات. وبينما تأرجحت القدرات الذهنية للجانب الأيسر من دماغها استمر الجانب الأيمن من الدماغ والمسئول عن الحدس والإحساس العضلي في العمل مما مكنها من طلب المساعدة سريعا.

تسجل الكاتبة تلك الأحداث والملاحظات حول قدرة المخ على شفاء نفسه في كتابها نوبة تأمل.

■